
نفسية اليهودي في التاريخ
نصر الدين البحرة
Bibliotheca Alexandrina
0136906

نفسيـــة اليـــهودي في التاريـــخ

نـــصر الديـــن البـــحرة

الفهرست

* * *

فذلكـــة تـــاريخيـــة.

فذلكة تاريخية

في الحديث عن اليهودي لابد من البحث بادىء ذي بدء عن المادة العلمية – التاريخية في هذا المجال. إلا أننا سنصاب بخيبة أمل كبيرة، ونحن ننقّر وننقب بحثاً عن المادة، فإذا تذكرنا أن اليهود تاريخياً هم من الشعوب البائدة، فإن هذا يزيد الأمر صعوبة. وليس ثمة أمامنا، من مادة مكتوبة عن هؤلاء الناس سوى كتابهم "التوراة".

وهناك إجماع بين الدارسين على أن هذه "التوراة" هي غير تلك التي أشار إليها القرآن الكريم في سورة المائدة – الآية /٤٣/:

"**إنا أنزلنا التوراة، فيها هدى ونور، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء**".

وأما الزبور فيرد ذكره في القرآن في سورة الإسراء – الآية /٥٤/:

"**وآتينا داود زبوراً**".

المفارقة أن اليهود يزعمون أن كتاب داود هو " المزامير" وأن الزبور هو المزامير! والمزامير لا يمكن أن تكون هي " الزبور" لعدة أسباب، فهي

أناشيد يطفح بعضها بأوصاف جنسية فاضحة، تفصح عن هوس جنسي، تجل كلمات الله عنه. ويرى الدكتور عبد المنعم حفني في كتابه " عالم بلا يهود[1] أن بعض هذه المزامير مسروق من أناشيد أخناتون[1].

من جانب آخر، فإذا كان "عزرا" هو الذي دون الأسفار الخمسة الكبرى في التوراة، بعد ألف عام تقريباً من ظهور موسى، عليه السلام، فما الذي استند إليه من وثائق تؤكد أن هذا هو كلام النبي الكريم؟!

وهذه الأسفار: التكوين – الخروج – اللاويين – العدد – التثنية. تنطوي على مبالغات وأخبار كثيرة تجافي المنطق السليم ومبادئ العقل!

وكيف يمكن أن يتضمن كتاب ديني سفراً مثل "نشيد الأنشاد"، وهو الآخر حافل بالأوصاف والرغبات الجنسية الجارفة والجارحة؟

لعل هذا هو الذي حدا بالكاتب الانكليزي المعروف هـ . ج . ويلز إلى أن يقول غاضباً، عن أسفار أخرى من التوراة:

" إن أسفار حزقيال ودانيال واستير وهوشع – ممن يعتبرهم اليهود أنبياء – ليست أسفاراً دينية. وليس هؤلاء أنبياء بالمعنى اللاحق."

مهما يكن من أمر، فإن المؤرخين الذين يضطرون للعودة إلى التوراة بوصفها المرجع التاريخي الوحيد المكتوب لتلك الحقبة من الزمن، يميزون

---

[1] -عالم بلا يهود – ترجمة ودراسة: د. عبد المنعم حفني – مكتبة مدبولي – القاهرة – ١٩٧٦.

عادة بين ثلاث تسميات لهؤلاء الذين يسمون بصورة عامة: "اليهود"[1]. فهناك العبرانيون، والإسرائيليون، واليهود. ويرون أن هذه التسميات ليست مترادفات، فالعبرانيون أو العبريون، هم الذين جاؤوا مع إبراهيم عليه السلام، من بلاد الكلدان إلى أرض كنعان. وقد أطلق عليهم هذا الاسم، لأنهم عبروا نهر الفرات إلى هذه البلاد، أو لأنهم عبروا نهر الأردن، خلال تجوالهم في أرض الكنعانيين.

وتعزو التوراة هذه التسمية: العبرانيين إلى "عابر بن سام بن نوح" الذين هم من سلالته. وقد فنّد بعض المستشرقين هذه التسمية. أما الإسرائيليون فهم أبناء يعقوب الذي دعي أيضاً "إسرائيل" . وقد أنجب اثني عشر ابناً " الأسباط الاثني عشر"، صار كل واحد فيهم أصلاً، وجداً تنسب سلالته إليه.

وعلى هذا، يخرج من أسرة "الإسرائيليين" كثير من العبرانيين، مثل "لوط" وذريته، و"اسماعيل" ونسله و"عيسو بن اسحق"، أيضاً، فهؤلاء عبرانيون وليسوا إسرائيليين. أما اليهود فإنهم ينسبون إلى "يهوذا"، الابن الرابع ليعقوب. وكانت له الرسالة الدينية بين إخوته فنُسبوا إليه باعتبارهم أبناء هذه الديانة.

---

[1] - اليهود واليهودية- د. عبد الجليل شلبي – دار أخبار اليوم – القاهرة ١٩٩٧.

وصارت الرسالة الدينية بعد ذلك في" بني لاوي" – ليفي– وقد عـرف هؤلاء باسم "اللاويين" و"لاوي" هو ابن يعقوب الثالث.

وظهر في هذه السلالة هارون أخو موسى. وهارون عند اليهود هـو الزعيم الديني. أما موسى فهو القائد السياسي. ولذا انحصرت الرسالة الدينيـة في هارون ونسله.

أم االلغة فهي اللغة العبرية، لأنـها أقـدم مـن إسـرائيل "يعقـوب" وبنيه.وهناك الآن لغة عبرية قديمة، ولغة حديثة. وكانت اللغتان فـي عـداد اللغات الميتة. إلا أن قيام الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة، أعاد للغـة العبرية اعتبارها النسبي، في حدود الكيان المذكور. أضف إلى ذلك محاولات الدولة الدائبة من أجل إحيائها وتيسير تداولها وتشجيعه. أما" اليديش" فهي لغة يهود أوروبا – خاصة الشرقية، وهي خليط من اللغـة العبريـة والألمانيـة القديمة والسلافية. وفيها أيضاً بعض ألفاظ محلية أخـرى. وفـي الولايـات المتحدة الأمريكية، قلة من اليهود يتكلمون هذه اللغة ويكتبـون بـها. ولـهم صحيفة تنشر وتوزع زهاء خمسة وثلاثين ألف نسخة . وبين كتّاب هذه اللغة الروائي الأمريكي "إيزاك باشيفيز سنجر" الذي حاز جائزة نوبل سـنة ١٩٧٨ وهو بولوني الأصل ، من مواليد عام ١٩٠٤.

على كل حال، إذا صرفنا النظر عن خطأ التقسيم العرقي للأجنـاس، ونظرنا إلى الدلالة المكانية – الزمانية وحسب، لقلنا إن العـبرانيين، ككـل

الشعوب السامية، سكنوا الجزيرة العربية في الأصل . ذاك أنها مهد كل هذه الشعوب التي سكنت بلاد الشام في الأزمنة الغابرة، وبينها الكنعانيون والفينيقيون والكلدان، والآشوريون والآراميون .. الخ.

وفي الإمكان تمييز أربع هجرات في تاريخ العبرانيين:

١ – هجرة أولى ساميّة من جنوب شرق الجزيرة العربية إلى أرض بابل، حيث أقاموا في (أور) . وكانوا بدواً متنقلين ، وإن يكن تنقلهم في بقعة محدودة من الجزيرة العربية. ويصعب كثيراً تحديد الزمن الذي جرت فيه هذه الهجرة.

٢ – الهجرة الثانية التي أعطتهم اسم: العبرانيين. ويرى د . عبد الجليل شلبي أن هذه الهجرة عاصرت حركة الهكسوس، وكان فيها هجوم على منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط، من شعوب وأجناس مختلفة، بينهم ساميون كهؤلاء العبرانيين، وغير ساميين كالحوريين والحثيين والميتانيين.

٣ – الهجرة الثالثة كانت إلى مصر. وقد جاء في سفر التكوين أنها كانت بسبب يوسف الصديق عليه السلام ووجوده مسبقاً في مصر . وتحدث سفر الخروج عن أبناء يعقوب الأحد عشر الذين جاؤوا معه إلى مصر. وذكر أن مجموع الذين أتوا من نسل يعقوب – إسرائيل كانوا سبعين نفساً. ثم توالدوا وكثروا. ويقال إنهم أقاموا في مصر زهاء ٢٢٠ سنة . وتذكر التوراة – سفر الخروج – الإصحاح الثاني عشر أنهم لبثوا هناك ٤٣٠ سنة.

٤ - الهجرة الرابعة كانت .. من مصر إلى فلسطين، بقيادة موسى، ومن بعده يوشع . وقد كانت أواخر القرن الثالث عشر ق. م.

في مستهل الهجرة الثانية ظهر في " أور" ابراهيم عليه السلام، رئيساً على جماعة هاجر بها إلى بلاد الشام . وقد تنقل في إقليم سورية على حافة الصحراء. وانتقل إلى مصر وعاد منها بجارية تدعى " هاجر " ولدت له " اسماعيل" . وقد دبت الغيرة في قلب "سارة" زوجة ابراهيم الأولى التي جاء بها من "أور" ، ولم تطق إقامة هاجر معها، فذهب بها إلى مكة لتقيم مع ابنها بجوار البيت .. ثم رجع إلى زوجته الأولى "سارة".

كانت المفاجأة أن سارة على الرغم من تقدمها في السن رزقت من إبراهيم ولدها "اسحق" . ومن ثم.. كان لاسحق ولدان :"عيسو" و"يعقوب" . كان "عيسو" أحمر البشرة فسمي " آدوم" ونشأ "الآدوميون" من نسله.

أما يعقوب فسمي "إسرائيل" – أي : عبد الله – وتزوج من ابنتي خاله "لابان" . وكانت الأولى تدعى "ليئة" والثانية "راحيل". وقد أنجبت هذه ولدين، أكبرهما "يوسف". وكان الأحب إلى قلب والده، فغار منه إخوته وألقوا به في الجب.. حتى أنقذته قافلة مهاجرة إلى مصر.. حيث شب وترعرع.. وسجن.. ثم ساد.. إلى آخر القصة التي قدم القرآن الكريم عرضاً جميلاً لها.

وكما أشرنا في الهجرة الثالثة، فإن إخوة يوسف ونسلهم- ٧٠ إنساناً – جاؤوا إلى مصر، بترتيب من "يوسف" عليه السلام. فتكاثروا، لكنهم لم

يختلطوا بالمصريين ، بل أقاموا في بقعة خاصة ، وظلوا منفصلين مميزين عن المصريين.

وحدثت خصومة وبغضاء بين المصريين وبين بني إسرائيل. وحكم مصر فرعون كان يكرههم، فكان يقتل من يولد لهم من الذكور. وفي هذه الأثناء ظهر موسى عليه السلام.. وقصة نشأته في بيت فرعون معروفة.. وكذلك هجرته إلى "مديان" في سيناء وإقامته مع شعيب عليه السلام، وزواجه من ابنته.

وعاد موسى إلى مصر، ومعه أخوه لأمه هارون.. وكانت وقائع بينه وبين المصريين، وفرعون، إلى أن خرج مع قومه من مصر، نحو سيناء.. حيث أقاموا أربعين سنة، توفي خلالها هو وأخوه هارون، فانتقلت القيادة إلى يوشع.. أو يشوع بن نون. فخرج بجماعته من سيناء إلى أرض فلسطين. وكان قاسياً سفاحاً ، شن الحروب من أجل الاستيلاء على الأراضي الخصبة. وخلال ذلك استولى على عدد من المدن الكنعانية، أهمها "أريحا".

ويظهرنا سفر يشوع في "التوراة" المنحولة على وحشية يشوع وجماعته، ويضع أيدينا على الأكذوبة الكبرى التي ينسبها اليهود إلى "ربِّهم" – وهم في النهاية يزعمون أنه هو الله، تعالى أن يقدّم مثل الوعد الذي يتشدقون به.

جاء في العبارات الأربع الأولى ، في الإصحاح الأول من سفر يشوع، ما يلي:

"وكان بعد موسى عبد الرب، أن الرب كلَّم يشوع بن نون خادم موسى قائلاً: موسى عبدي قد مات. فالآن قم اعبر هذا الأردن، أنت وكل هذا الشعب، إلى الأرض التي أنا معطيها لهم أي لبني إسرائيل. كل موضع تدوسه بطون أقدامكم، لكم أعطيته، كما كلمت موسى: من البرية ولبنان هذا، إلى النهر الكبير، نهر الفرات، جميع أرض الحثيين. وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم."

وتروي العبارات في ختام الإصحاح السادس من السفر نفسه، ما صنعه يشوع بن نون وجماعته بأريحا وأهلها، ما عدا الزانية راحاب – وأهلها – التي ساعدت جواسيسهم في استطلاع المدينة قبل غزوها:

"وصعد الشعب إلى المدينة، كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة. وحرّموا – قتلوا – كل ما في المدينة، من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف". "وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما فيها".

أنشؤوا بعد ذلك دولتين: إسرائيل وعاصمتها "السامرة" ويهودا وعاصمتها"القدس". ولم تكن هاتان الدولتان في وئام وخير حال مع بعضهما بعضاً، فقد كانتا متنافستين، بل كانتا عدوتين في عدة حالات ومواقف. حتى

إن "يربعام" وهو من سبط "افرايم"* عمل بكل ما استطاع على توسيع الـــهوة وتعميقها بين هذين القسمين، وعلى قطع إسرائيل "السامرة" عن "اليهوديـــة" نهائياً. من ذلك مثلاً أنه منع الحج إلى القدس، وبنى معبداً جديداً يحج شـــعبه إليه.

وظلت الدولتان في سجال مع الدول المجاورة، ولاسيما الكلدانيـــون " البابليون" والآراميون والآشوريون. إلى أن امتنع الملك هوشـــع عـن دفـــع الجزية إلى "شلما نصر الخامس" فحاصر عاصمته "السامرة"ثلاث ســنوات.. ومات قبل أن يفتحها، لكنها سقطت في يد خلفه سرغون الثاني عام ٧٢١ ق.م فسبى من الإسرائيليين عدداً يختلف المؤرخون في تقديره بين ثمانية وخمسين ألفاً وبين أربعمئة ألف. وأخذ السبي إلى أقصى جـــزء مـــن امبراطوريتـــه الواسعة، وأحل مكانهم أناساً جاء بـــهم مـــن القـــرى الآشـــورية والبابليـــة والعيلامية.

أما مملكة يهوذا أو " اليهودية" فقد عاشت أكثر من مئتيـــن وخمســـين سنة، بعد سقوط "السامرة" عندما وقعت في يد نبوخذ نصر البابلي الكلدانـــي عام ٥٨٦ ق.م. وقد هدم هذا الرجل سور القدس، بعد حصار طويل، وهـــدم

* - كان في الأصل من خصوم "سليمان" عليه السلام الذي قسم مملكته اثني عشر قسماً، في عدد الأسباط، اثنان منها في الجنوب: " يهوذا" و "بنيامين" أي: اليهودية . والباقي في الشمال: السامرة.

المدينة والهيكل، وسبي معظم السكان إلى جنوب العراق ، ولم يبق في المدينة سوى نفر قليل.

وهكذا انتهت دولة اليهودية، مثلما انتهت دولة إسرائيل.

ترى.. ما الذي كان من أمر اليهود المسبيّين الذين نفوا إلى بابل ؟! لقد منحوا هناك تسهيلات في العمل والحل والترحال ، مكنتهم من أن يصبحوا في مدة وجيزة، من أغنى أهل بابل. لكن ذلك لم يمنعهم من أن يديروا ظهر المجن لهؤلاء الناس الذين أكرموهم في مهجرهم. ففي عهد الملك الكلداني الضعيف "نابونيد" ظهر الملك الفارسي "كورش" الذي أعلن تمرده على بابل التي كانت تظن أنها بلغت حداً من القوة، يصعب معه، على أحد أن يتحداها. ومع أن "نابونيد" تحالف مع مصر الفرعونية واسبارطة عام ٥٤٧ – ٥٤٦ ق.م ، إلا أن "كورش" تغلب عليه بعد مقارعة داخل الامبراطورية الكلدانية استغرق ستة أعوام، تمكن يهود بابل خلالها من الاتصال به سراً، وتحالفوا معه، ولعبوا الدور الذي أتقنوه دائماً: التجسس، المكائد، الحرب النفسية.

وهكذا دخل "كورش" بابل عام ٥٣٩ ق.م وكافأ اليهود بأن ولاهم أمور أهل بابل، ثم ساعدهم في هجرتهم المعاكسة إلى فلسطين. ويذهب بعض المؤرخين إلى أن المبالغ التي جمعت من يهود بابل لتمويل قافلتهم الأولى بلغت ما يعادل أربعين مليون قطعة ذهبية. فانظر مدى ما وصلوا إليه في بابل من ثراء فاحش، على الرغم من قلة عددهم، وقصر الزمن الذي قضوه

فيها. مع ذلك، فقد خانوا.. بابل في أول فرصة. وتذكر المصادر التاريخية أيضاً أن معظم مهاجري القافلة الأولى إلى فلسطين، كانوا من الفقراء اليهود. فماذا عن الأثرياء الذين بقوا في بابل ؟ أما كان واجب الوفاء – على الأقل – يفرض عليهم ان يكونوا مخلصين لكورش؟ غير أنهم انقلبوا أفظع منقلب، وشرعوا يتآمرون مع البابليين ضد الفرس في عهد الامبراطور الفارسي "أحشويرش"، فشعر وزيره "هامان" – العماليقي – بمكائدهم فأمر بمراقبتهم واعتقال كل من يشتبه به، فسارعوا إلى تدبير مكيدة لهامان حتى قتله "أحشويرش " . وتابعوا مؤامرتهم فزوجوا هذا الامبراطور الفارسي الخرع من حسنائهم الذكية " استير" مما سيرد تفصيله لاحقاً. وفي ظل أحشويرش هذا تواصلت هجرات اليهود المعاكسة إلى فلسطين. وعادوا ليطفوا على سطح الأحداث في العهد الروماني.. ولم يكونوا ليترددوا عندما تطول أظافرهم في العصيان مدنياً أو عسكرياً، ففي زمن الإمبراطور كلاوديوس، اعتدوا على موظفي الدولة وامتنعوا عن دفع الضرائب، وداهموا حامية القدس الرومانية وقتلوا أفرادها جميعاً، وأعلنوا حرباً سافرة على روما. واستمرت ثورة اليهود هذه زهاء أربعة أعوام، إلى أن اعتلى العرش الروماني "فاسباسيان" VASPASIEN حاكم سورية السابق، فكلف ابنه البكر "تيتوس" بقمع الثورة اليهودية، فقام بحملة واسعة حاسمة، في مختلف أنحاء المنطقة. وخلال ذلك حاصر القدس، وعرض على اليهود الاستسلام مقابل

الإبقاء على أرواحهم، ولكنهم رفضوا. فشدد تيتوس الحصار حتى فتك الجوع بأكثر سكان المدينة وامتلأت الشوارع بجثث الموتى وتفشت الأوبئة في المدينة. وعاد تيتوس يعرض عليهم الصلح، فرفضوا مرة ثانية، وعاود الكرة مرة ثالثة.. وأخيرة فقوبل بالرفض أيضاً. حينذاك حمل تيتوس على المدينة حملة صادقة حازمة، فدمر سورها وأحرق هيكلها ، وقضى على ما تبقى من المدينة، حتى جعلها قاعاً صفصفاً، وسبى أهلها، وأمر ببيعهم في أسواق النخاسة. كان ذلك عام ٧٠م.

وطوال أكثر من ثمانية عشر قرناً .. لم تقم لليهود قائمة في فلسطين..

مصادر :

اعتمدت في كتابة هذه المقدمة التاريخية على عدد من المصادر بينها:

١- اليهود واليهودية – تأليف: د. عبد الجليل شلبي – دار أخبار اليوم – القاهرة ١٩٩٧.

٢- تاريخ فلسطين عبر العصور – تأليف : يوسف سامي اليوسف – دار الأهالي – دمشق ١٩٨٩.

٣- المفسدون في الأرض – تأليف: س. ناجي – الطبعة الثانية – العربي للإعلان والنشر والطباعة – دمشق ١٩٧٣.

٤- بنو إسرائيل. جغرافية الجذور – تأليف: د. زياد منى – دار الأهالي – دمشق ١٩٩٥.

٥- الكتاب المقدس – المطبعة الأميركانية – بيروت ١٩٥٢.

القســـــم الأول

الباب الأول

اليهودي .. في نماذج أدبية

أ – من شكسبير وديكنز وغوغول.. إلى كوستلر وفرويد وكافكا.

ب – شكسبير وعقدتا اليهودي: الدونية والفوقية.

جـ – يهودي العالم السفلي عند ديكنز.

د – غوغول يقدم اليهودي الروسي.

هـ – فرانز كافكا صهيونياً.

اليهودي في نماذج أدبية

- ١ -

من شكسبير وديكنز وغوغول إلى كوستلر وفرويد وكافكا

خلال السنوات الأخيرة الماضية ، قرأت عدداً لا بأس به من الكتب والمراجع الأساسية عن الحركة الصهيونية، والديانة اليهودية، والشخصية اليهودية، الصهيونية أحياناً، بدءاً من التوراة، وأسفارها التسعة والثلاثين، وهي منحولة بإجماع المؤرخين المعاصرين، كما أنها كتاب آخر غير الذي أنزله الله تعالى على سيدنا موسى عليه السلام.

قرأت أيضاً رسالة ابن فضلان، وترجمة كتاب " القبيلة الثالثة عشرة " للكاتب اليهودي الأميركي، مجريّ الأصل " أرثر كوستلر" وفيه يتحدث عن يهود الخزر، موضحاً أنهم هم أجداد اليهود الأوربيين.

كنت أبحث باستمرار عما يمكنّني من أن أضع يدي على العناصر الأساسية في شخصية الإنسان اليهودي، ونفسيته، وماذا يريد من دنياه؟ ولماذا كان اليهودي في عصور كثيرة، موضع الاضطهاد والنبذ والكراهية والاحتقار؟ هل لأنه مغلق على ذاته، ودينه، وقومه باستمرار، متقوقع مع جماعته في الغيتو GHETTO أم أنه نتيجة، لعوامل خاصة كامنة في نفسيته، نُبِذ وحكم عليه بالتقوقع داخل الغيتو؟

ربما كان شكسبير SHAKESPEARE أعظم شاعر – كاتب في تاريخ الإنسانية، انطلاقاً من شمول معالجته النماذج البشرية كافة، بمن في ذلك النموذج اليهودي في مسرحيته المشهورة "تاجر البندقية " THE MERCHANT OF VENICE وهو " شايلوخ".

إن اصطلاح " ضد السامية " ANTI SEMITIC وهو من العبارات الحديثة التي صاغتها الحركة الصهيونية في القرن العشرين، لا نستطيع أن ننعت به الشاعر الإنكليزي العظيم. فإذا لم يكن له رأي خاص في "اليهودي" فإنه عكس، عبر شخصية شايلوخ، المشاعر العامة في مجتمعه وعصره، إزاء شخصية "اليهودي" كانز الأموال، المرابي الجشع، الذي لا يطرف له جفن، ولا تأخذه رحمة أو شفقة حين يتعلق الأمر بمعبوده الأول : المال.

وهذه النظرة نفسها، إلى اليهودي نجدها حيث تعرَّض كتاب العصور الحديثة في أوروبا إلى اليهودي .. في أعمالهم الأدبية.

كان التجار اليهود يمارسون أعمال البيع والشراء في "الهيكل" فطردهم السيد المسيح، وقال كلمته المشهورة: " ما كان للإنسان أن يعبد ربين : الله والمال".

ولا شك أن العالم النفسي اليهودي تسيغموند فرويد SIGMUND FREUD كان واقعاً تحت تأثير هذه النظرة، على هذا النحو أو ذاك، حين وضع كتابه الشهير "موسى والتوحيد " MOSES AND MONOTHEISM فقد كان يحاول أن يتغلغل بعيداً في الأعماق الخفية، عبر التاريخ السحيق، لنفسية اليهودي . وقبله وضع كارل ماركس كتاباً عن المسألة اليهودية، راح يتلمس فيه مفاتيح الشخصية اليهودية، وفيه قال كلمته المشهورة: "لا تسل عن سر اليهودي في دينه، بل سل عن سر دينه فيه".

وبعد فرويد وماركس كتب "فرانز كافكا" FRANZ KAFKA الروائي اليهودي التشيكي ذو الثقافة الألمانية التي كتب أعماله بلغتها، روايته المشهورة " القضية " أو المحاكمة.

من هو "جوزيف . ك" بطل الرواية ، الذي تحاصره الاتهامات من كل جانب، وترتفع الأصابع في وجهه، من كل اتجاه، ولا يغادره الشعور بالحصار والاعتقال لحظة.. ثم لا يجد حلاً لمشكلته، ولا علاجاً لدائه؟ إنه اليهودي الفقير، في أوروبا مطلع القرن العشرين، وقد بلغت البورجوازية

الأوروبية أوج مجدها وثرائها وغطرستها.. واحتلت جيوشها الاستعمارية القاهرة، مشارق الأرض ومغاربها.

ما الذي يستطع جوزيف. ك أن يفعله، وهو مطحون في الغيتو مسحوق بسنابك المعامل الرأسمالية، ومظاهر القوة البرجوازية؟

محدودو النظر جداً، السطحيون، المبهورون بعقد الثقافة الغربية إلى درجة الانخلاع والتشوه، هم أولئك الذين رأوا في نتاج كافكا اليهودي، صيحة رفض واحتجاج في وجه البورجواجية الأوروبية. إنها بالأصح: صيحة يهودية.. صيحة الضعف الماكر الخبيث. صيحة الثعلب المدمى بمخالب فهد شرس.

ما علينا إلا أن ننتظر قليلاً كي يحتال الثعلب على النمر كي يخلص جلده من مخالبه الحادة.. لنراه بعدئذ ما عساه أن يفعل.

يورد لوكاس غرولنبرغ LUCAS GROLLENBERG في كتابه المنقول إلى العربية:" فلسطين أولاً PALESTINE COMES FIRST "مقطعاً من مقابلة أجرتها مجلة "درشبيغل " الألمانية الغربية مع ناحوم غولدمان – وكان الرئيس مدى الحياة للمؤتمر اليهودي العالمي– ونشرت في ٢٧ نيسان ١٩٧٠.

درشبيغل : هل يتعرض وجود الشعب اليهودي للخطر؟

غولدمان: نعم، إن هذا الوجود لم يكن في أي وقت مهدداً كما هو الآن لأن اليهود على وجه الدقة، لم يعودوا يتعرضون للاضطهاد كما كانوا في العصور الماضية.

ماذا لو وقفنا قليلاً عند هذه الفكرة " لم يعودوا يتعرضون للاضطهاد" لنتفحصها تحت المجهر في حقبتين من التاريخ، تعود الأولى منهما إلى الألف الأول قبل الميلاد، وترجع الثانية إلى زمننا هذا .. بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وما تلا قيام الكيان الصهيوني في فلسطين في ١٥ أيار ١٩٤٨. نريد أن نرى كيف يسلك اليهودي إزاء الآخرين وقد اطمأن إلى رفع يد الاضطهاد عنه. نبغي أن نشاهد عن كثب ، شريحة " الضعف" اليهودي على حقيقتها .. وإلى أي درجة ، هو حقيقي وصادق، هذا الضعف.

عام ٥٩٧ ق. م هاجم نبوخذ نصر القدس، بجيش قاده بنفسه، وسبى أكثر من عشرة آلاف يهودي إلى بابل.

وبعد سنوات قليلة آل الأمر إلى مملكة فارس. وفي عهد أحشويرش فعل اليهود المسبيون أنفسهم أموراً جساماً في القصر الملكي الفارسي، يرويها "سفر استير" في كتاب التوراة.

لقد أوقع كهنة اليهود قبل كل شيء بين أحشويرش وبين زوجته الملكة وشتي، مستغلين ما لاحظوه من ضعف في شخصيته فأقنعوه أنها تخونه ، فقتلها. ثم اقترحوا عليه إقامة حفل كبير تشارك فيه أحلى الصبايا في المملكة،

لانتقاء أجملهن وأجدرهن بأن تكون زوجة الملك الفارسي. وكان هؤلاء الكهنة قد هيؤوا الغادة اليهودية " استير" واثقين من فوزها بالدرجة الأولى، في مباراة انتقاء زوجة الملك أحشويرش. فما إن اطمأنت إلى مكانتها ونفوذها في القصر حتى بادرت إلى الكشف عن حقيقة "الضعف" اليهودي – هذا ما تعرض إليه فرويد أيضاً عندما أشار إلى استيطان العواطف المتناقضة في أعماق النفس :"الحب والكراهية والحقد والتسامح، والضعف والعنف" في ذلك السيناريو المتحرك الحيوي العجيب –

"اجتمع اليهود في مدنهم، في كل بلاد الملك أحشويرش ليمدوا أيديهم إلى طالبي أذيتهم فلم يقف أحد قدامهم، لأن رعبهم سقط على جميع الشعوب".

"فضرب اليهود جميع أعدائهم ضربة سيف وقتل وهلاك، وعملوا بمبغضيهم ما أرادوا . وقتل اليهود في شوشن القصر، وأهلكوا خمسمئة رجل – ويعدد السفر هنا أسماء أشخاص قتلهم اليهود – ثم يتابع قائلاً: في ذلك اليوم أتي بعدد من القتلى في شوشن القصر إلى بين يدي الملك، فقال الملك لأستير الملكة: في شوشن القصر، قد قتل اليهود وأهلكوا خمسمئة رجل، وبني هامان العشرة ، فماذا عملوا في باقي بلدان الملك. فما هو سؤالك فيعطى لك، وما هي طلباتك بعد فتقضى؟ فقالت استير: إن حسن عند الملك، فليعط أيضاً لليهود في شوشن أن يعملوا كما في هذا اليوم".

– سفر استير: الإصحاح التاسع –

ويوالي السفر تعداد الناس الذين قتلهم اليهود بإمرة استير.

واما الحقبة الثانية التي أود الإشارة إليها. فهي التي تلت صعود الحزب الاشتراكي الوطني الألماني " النازيَ" إلى السلطة عام ١٩٣٣ في ألمانيا، وما قام به بعد ذلك من تنكيل واضطهاد لليهود – في جملة من أذاهم وقتلهم في ألمانيا وأوروبا كلها، شرقاً وغرباً – و "أوشفيتز" الذي يشير إليه لوكاس غرولنبرغ، في ما يلي هو أحد المعتقلات التي عذب فيها اليهود على أيدي النازيين وأحرقوا أو قتلوا، إبان الحرب العالمية الثانية.

يقول غرولنبرغ:

" واسم أوشيفتز يثير في ذهن كل إنسان في الغرب المذابح الجماعية المروعة التي ارتكبها النازيون" ويستطرد الكاتب الهولندي قائلاً:

"وقد بدأ اسم دير ياسين يلعب دوراً مماثلاً في الوطن العربي، ولا سيما بين اللاجئين الفلسطينيين. فدير ياسين قبل أن تهدم وتسوى بيوتها بالأرض بواسطة الجرافات، كانت قرية صغيرة على مقربة من الحي اليهودي في القدس".

ويصف المجزرة كما يلي:

"ففي التاسع من نيسان ١٩٤٨ هاجمت قرية دير ياسين قوة من عصابة الأرغون التي يقودها مناحيم بيغن، فذبحت بمعنى الكلمة الحرفي ٢٥٠ من

سكان القرية البالغ عددهم ٤٠٠ شخص، وكان بين القتلى عدد كبير من الشيوخ والنساء والأطفال".

ثم يشير المؤلف إلى كتاب بيغن "الثورة" الذي نشره سنة ١٩٥١ وقوله فيه:

"إن دولة إسرائيل ما كانت لتقوم لولا الانتصار في دير ياسين " ثم يصف بيغن في الكتاب نفسه " كيف بات ممكناً على اليهود أن يخترقوا مدينة حيفا العربية، مثلما تخترق السكين قالب الزبدة . ويبدأ العرب يفرون مذعورين صائحين: دير ياسين".

أليس هذا هو نفسه ما فعله اليهودي بيغن، في الرابع من حزيران ١٩٨٢ في لبنان وفعله "اليهودي "بيريز في قانا ١٩٩٦ وفعله أخيراً بنيامين نتنياهو ؟ ويفعله أيضاً أيهود باراك؟!

المشهد نفسه يتكرر، ولكن العنف – الوجه الآخر للضعف في نفسية "اليهودي" مضاعف مئة مرة .. ألف مرة.

اليـــــهودي في نماذج أدبيـــــة

- ٢ -

شكسبير وعقدتا اليهودي: الدونية والفوقية

يقدم لنا شكسبير* في مسرحيته المشهورة "تـاجر البندقيـة" مـادة خصبة، كثيرة الغنى لاستقراء شخصية اليهودي، فـي مسـتهل العصـور الحديثة. وإذا كان اليهودي "شايلوخ"هو بين الشـخصيات الرئيسـية فـي المسرحية، كما يبدو من جهة، فإن ارتبـاط الأحـداث الأساسـية فيـها ، وتمحورها على نحو بارز حول حكاية القرض من "شايلوخ" هذا ومـا تـلا ذلك، وواكبه من وقائع.. كل هذا يحملنا على الاعتقاد، إلى حـد مـا بـأن شكسبير، قد كرس هذه المسرحية ، من جهة ثانية كي يظهر لنا شـخصية "اليهودي" تحت الأضواء الساطعة، فوق خشبة المشرحة التاريخيـة حيـث

* - وليم شكسبير: ولد في استراتفورد في ٢٢ نيسان ١٥٦٤ وتوفي في ٢٣ نيسان /ابريل ١٦١٦

أعمل هذا المفكر الإنكليزي الشاعر، مبضعه في أنحائها كاشفاً عن قروحها القديمة، مظهراً، حتى الندوب التي تركتها جروح مغرقة في الماضي، لم يفلح مر السنين في إخفاء آثارها..

لقد جرت أحداث القصر الفارسي، عقب سبي " نبوخذ نصر" لليهود في الألف الأول قبل الميلاد – ٥٩٧ ق.م – هناك استرسلت الغادة اليهودية "استير" بعد أن ارتاحت على عرش الإمبراطور "أحشويرش " في الانتقام لبني قومها من اليهود، بمعونة الحاخام اليهودي " مردخاي" .. فلنتصَور أن ذلك حدث حوالي سنة "٦٠٠"ق.م ولنضف إلى ذلك ستة عشر قرناً:" ألفان ومئتا سنة" ثم لنتأمل نفسية اليهودي، بعد مرور كل هذا الركام من القرون والأعوام لنرى إلى مدى الاختلاف أو التشابه فيها بعد هذه السنوات الطويلة التي مضت.

ثمة عناصر واضحة للغاية، محددة جداً، يستنتجها قارئ " العهد القديم " حول نفسية اليهودي ، خاصة الأسفار التالية: يشوع – عزرا – استير – حبقوق – أخبار الأيام " فهو متعصب، عابد للمال والذهب والفضة قاس كل القسوة، تجمَّع في قلبه كل حقد الأرض والتاريخ، متعطش للدم، ولا حدود لشهوته للانتقام والقتل والتدمير"..

فهل تغير شيء من هذه العناصر، في العصر الذي كتب فيه شكسبير "تاجر البندقية " ؟ وهل اختلفت صورة " شايلوخ " عن صورة أجداده، كما ورد ذكرهم ورويت أخبارهم في أسفار التوراة التسعة والثلاثين؟

إن أنطونيو هو أحد تجار البندقية المرموقين، وقد وقع صديقه "بسانيو" في هوى وارثة ثرية هي بورشيا التي تكاثر الخاطبون عليها، تأتي بهم إليها الرياح الأربع من كل شاطئ، وإنه ليرجوه أن يقرضه من المال ما يجعله يقف موقف المنافس لأحدهم.

ولكن أنطونيو يعتذر لأن ثروته من المراكب التجارية هي في عرض البحار، إلا أنه ينصح صديقه بأن يتوجه ليستدين أقصى ما يمكن أن يستدينه بضمانته.

ويوافق شايلوخ، المرابي اليهودي ، على إقراض بساينو بكفالة أنطونيو ثلاثة آلاف دوقية** ثم يقول مخاطباً الكفيل أنطونيو : إذا لم تف في يوم كذا – بعد ثلاثة أشهر – وفي مكان كذا بالمبلغ أو المبالغ الموضحة في الصك – كان الجزاء رطلاً بالضبط من لحمك البض أقتطعه من الجزء الذي أختاره من بدنك؟

** – يجدر بالذكر أن الكنيسة منعت الإقراض بالربا في أوروبا منذ القرن الثالث عشر تحت طائلة أقصى العقوبات الدينية. وهذا ما جعل الباب مفتوحاً أمام اليهود كي يقوموا بهذه المهمة. أما "الدوقيّة" فهي عملة عرفت في مدينة "البندقية" كان يضربها "الدوق" أمير البندقية.

فلماذا اختار شايلوخ النسيئة: - غرامة التأخير - رطلاً من اللحم هو عند آخر تحليل كما يقول هو نفسه أقل نفعاً من رطل الضأن أو البقر أو الماعز؟

يعدد شايلوخ أسباب كراهيته لأنطونيو وحقده عليه كما يلي :

١ - أمقته لأنه مسيحي.

٢ - يشتد مقتي له لأنه، بسذاجته الخرقاء، يقرض المال دون فائدة، ومن ثم يعمل على الهبوط في سعر الفائدة عندنا في البندقية.

٣ - أنه يبغض " أمتنا المقدسة ".

٤ - يعيرني في ذلك المكان[***] الذي هو أكثر الأمكنة ازدحاماً بالتجار، بما جمعته بصفقاتي وأموالي الحلال التي جمعتها بكدّي، ويصفها هو بأنها ربا.

ثم يضع شايلوخ النقاط على الحروف، في مسألة " رطل اللحم " حين يقول:

" لو أني تمكنت منه يوماً، إذاً لشفيت منه أحقادي القديمة".

إن شايلوخ يدري جيداً كيف يقتنص الفرصة، ليفرغ أحقاده، وينفس عن كراهيته الدفينة وضغينته الحبيسة، إذ يغدو أنطونيو رهن رغبته، مادام قد جاء مستديناً:

[***] الريالتو: مجمع تجار البندقية.

- هأنتذا تأتي إلي قائلاً: شايلوخ نريد منك مالاً. إنك أنت تقول هـذا، أنت الذي تقول، أنت الذي أفرغت بصاقك على لحيتي وطردتني من عتبـة بيتك ركلاً بالقدم.

ويوضح السر الذي جعله يسكت على الإهانة في صبر وتجلد معلناً أن "الصبر هو شعار أمتنا على بكرة أبيها".

ويؤكد شايلوخ أنه متدين، حتى وهو يقرض أمواله بالربا. إنه يضفـي حتى على "رباه" مسحة من التدين، مستعيناً بالكتاب المقدس ، مسخراً إياه من أجل تبرير تكالبه على .. المال . يقول شايلوخ مخاطباً أنطونيو:

- إليك ما كان يفعله يعقوب: إنه لما تعاقد مع " لابان"، وهـو عمـه وكان يعقوب يرعى غنمه، على أن تكون الخراف ذات اللونين حديثة الولادة أجراً له، فإن هذا الراعي اللبيب ، عمد إلى بضعة أغصان فعراها من قشرها ونصبها في طريق النعاج الولود، فلما حملـت وحمـت عليـها – يقصـد الأغصان التي عريت – وحل موعد الوضع فجاءت بحمـلان رقـط بلـق، وكانت هذه من نصيب يعقوب. تلك كانت إحدى وسائل تنمية الثروة عنده.

ولكن سفن أنطونيو تتحطم جميعاً، فلا يبقى سوى " الوفـاء بوثيقـة اليهودي " و " لقد حاول عشرون من التجار، كما حـاول الـدوق نفسـه، وأعظم أعيان البندقية، أن يقنعوا شايلوخ بعدم اقتطاع شـيء مـن لحـم انطونيو. غير أن أحداً منهم لم يستطع ثنيه عن مطلبه البغيض، وأبـى إلا

أن يحقق ما نص عليه العقد من جزاء. إنه التعطش إلى الدم، والرغبة في الثأر والانتقام.

إن المرء لا يملك إلا أن يتذكر جميع المجازر التي قام بها اليهود في فلسطين وخارجها، منذ مطلع القرن العشرين حتى الآن، وهو يقرأ وصف أنطونيو لقلب اليهودي.. كأن أنطونيو كان يتحدث عن : دير ياسين ، قبية، كفر قاسم، السموع، الكرامة، بحر البقر، جنوب لبنان منذ السبعينات..وصيدا وصور والنبطية وعين الحلوة وبيروت وقانا، وكل مدن الانتفاضة في فلسطين.

يقول شكسبير مقدماً قلب اليهودي ومشاعره وعواطفه بلسان أنطونيو الذي يصر شايلوخ رغم كل الوساطات والشفاعات على اقتطاع رطل من لحم جسده:

إنه لأسهل عليك أن تتوجه إلى الشاطئ لتأمر ماء المحيط أن يخفض من ارتفاعه، أو في وسعك أن تسأل الذئب: لم أبكى النعجة بافتراس صغيرها؟ بل في مقدورك، أيضاً أن تمنع أشجار الصنوبر الجبلية من تحريك أغصانها العالية فلا تحدث صوتاً إذا هبت عليها عواصف السماء.. إذا كان في وسعك أن تفعل كل شيء مهما صعب، فإن في وسعك أن تلين قلب اليهودي الذي لا نظير له في قسوته.

ويوضح شاعر الإنكليز العبقري، أن حقد اليهودي، وتعطشه للدم والثأر والانتقام، أكبر بكثير من تعلقه بالمال، ذاك أن بسانيو يعرض عليه أن يسدده ستة آلاف دوقية، مقابل الآلافه الثلاثة غير أن شايلوخ يرفض قائلاً:

- لو أن كل دوقية من هذه الآلاف الستة قسمت ستة أقسام، وصار كل قسم منها دوقية، لما رضيت بذلك مغنماً. لست أبغي غير تنفيذ شرط الوثيقة.

ويستطرد قائلاً: إن رطل اللحم الذي أطالب به، قد اشتريته بثمن غال.

وهاهو ذا شايلوخ، مايزال يعبر عن تعطشه لتمزيق اللحم البشري في لبنان وفلسطين.

كان شايلوخ يشحذ سكينه على نعل حذائه فابتدره غراتيانو، أحد أصدقاء أنطونيو بقوله:

- إنك أيها اليهودي المتحجر القلب لا تشحذ السكين على نعلك، وإنما تشحذها على نياط قلبك. غير أنه ما من معدن، حتى ولو كان سيف الجلاد يمكن أن يكون أكثر حدة من حقدك.

ويقول غراتيانو:

- لا شك أن روحك الشريرة هي روح ذئب شنق لفتكه بآدمي، وإن روح ذلك الذئب قد هربت وهو فوق المشنقة وسرعان ما تقمصتك وأنت

في بطن أمك الخبيثة، ذلك أن رغائبك ذئبية عضها الجوع فظمئت إلى النهش والافتراس.

وفي سبيل الوصول إلى حل لهذا الإشكال بين أنطونيو وبين شايلوخ، تعمد "بورشيا" إلى حل تفتق عنه ذهنها المتحرك ، يلفت النظر في الآن ذاته، إلى جانب ليس أقل خطورة في نفسية اليهودي، حيث لا وسط ولا توسط. فإما انغلاقة "الغيتو" والإقامة وراء جدران العزلة .. وإما الانفتاح على عالم من القسوة والهمجية والشراسة.. وشرب الدماء والقتل.. والانتقام والثأر. إما لا شيء وإما كل شيء.. إما "الدونية" INFERIORITY COMPLEX في أكثر معانيها تجسداً.. وإما "الفوقية" SUPERIORITY COMPLEX في أقسى مظاهرها وأفظع أشكالها : إما الحرق والموت والسجن في "أوشفيتز" وإما قتل الفلسطينيين واللبنانيين وصب حمم الموت والدمار والحرق وجميع أنواع القنابل والقذائف فوق المساكن والنساء والشيوخ والأطفال.. وقطع الماء والكهرباء والغذاء.. والمعونات الطبية عنهم.

تقول بورشيا مخاطبة شايلوخ:

- إذن فلتستعد لقطع اللحم، ولا ترق دماً، ولا تقطع أقل أو أكثر، بل اقطع رطلاً من اللحم بالضبط، وإذا أنت قطعت أكثر أو أقل من رطل واحد بالضبط، وإذا وجد فرق يزيد أو ينقص في الوزن حبة، بل .. جزءاً من

عشرين من حبة.. بل .. إذا تحرك الميزان فوق الرطل أو دونـــه بمقـدار شعرة، فسيكون مصيرك الموت وستصادر كل أملاكك.

وكان شايلوخ، قد رفض فدية قدرها ستة أضعاف المبلـــغ الأصلــي، ورفض أيضاً جميع الوساطات والشفاعات.. وها هو ذا: إما رطل من اللحـم يشفي غله وحقده به، وإما لا شيء على الإطلاق .. وهذا ما حدث.

ولا يفوت شكسبير أن ينبهنا أخيراً، إلى نقطـــة غايـــة فـــي الأهميـــة والخطورة. ذلك أن العلاقة مترابطة بين اليهودي وبين دينه فحين يتخلى عن دينه الذي هو "تعصب وعبادة للمال وشهوة للثأر والانتقام والدم" تشهد الدنيـا إنساناً آخر سوياً بمعنى الكلمة، يستطيع أن يكون حقيقياً كالآخرين.. ويقـــدر أن يتعاطف معهم ويحبهم.. وكانت الإشارة إلى ذلك في "تاجر البندقية" هـــي تخلي "جيسيكا" ابنة شايلوخ عن يهوديتها، واندراجها في الديانة المسيحية. إن "لونسلوت" خادم شايلوخ، يكتشف نوازع جيسيكا "اللايهودية" وهو يراها تقـع في حب "لورنزو" المسيحي، إلى درجة الهروب معه، فيقول لها:

– ربما جاز لك أن تتمني لو لم يكن أبوك قد جاء بك إلى هذا العـــالم، وأنك لم تكوني ابنة اليهودي.

وإذ ينتبه إلى ارتباطها من جانب آخر "بيهودية" والدتها يتابع قائلاً:

... إذا طلبت لسفينتك النجاة من الارتطام بصخرة أبيك، لم تكتب لـــها النجاة من صخرة أمك .. وهكذا فأنت هالكة لا محالة.

إلا أن جيسيكا ترفض الاثنين معاً، وتعلن عن تخليـــها نـــهائياً عـــن يهوديتها:

سينقذني زوجي، فلقد صرت بفضله مسيحية.

اليـــــهودي في نماذج أدبيـــــة

- ٣ -

يـــهودي العالــم السفلــي عند ديكنز

هنالك بعد زمني يربو على قرنين من الزمـــان، مـــا بيـــن الشـــاعر المسرحي الانكليزي وليم شكسبير، وبين الروائي الانكليزي الآخر تشـــارلز ديكنز CHARLES DICKENS فقد ولد شكسبير عـــام ١٥٦٤ وتوفـــي ســـنة ١٦١٦، في حين أبصر ديكنز النور عام ١٨١٢ وغاب سنة ١٨٧٠ فكيـف رأى اليهودي ، مؤلف رواية "حكاية مدينتين" و"مغامرات مستر بيكويك" و "دافيد كوبرفيلد".

لقد عاش ديكنز طفولة، حفلت بالمتاعب والآلام ، وكان عمره عشـــر سنوات حين تراكمت الديون على والده، فزج بـــه الدائنـــون فـــي الســـجن، ووجدت أمه نفسها عاجزة عن إعالة أطفالها الأربعة، فحملتهم إلى الســـجن ، كي تعيش على نفقة الدولة مع زوجها السجين. أما تشارلز، فقد وجد لنفســـه

عملاً، وهو في هذه السن الغضة، في مصنع للصق البطاقات على زجاجات الطلاء الذي يستخدم لتلميع الأحذية. وكانت سنوات صعبة فظيعة تلك التي أمضاها، بين الأطفال المشردين.. وكم من ليلة أمضاها نائماً في مطارح أشبه بزرائب الحيوانات ..

وإذا صح القول، فإن هذا هو المهاد الاجتماعي الذي تدور فيه أحداث روايته المشهورة: "أوليفرتويست" OLIVER TWIST.

في هذه الرواية شخصيتان رئيسيتان، هما الطفل أوليفرتويست واليهودي العجوز "فاجين".

يمثل " شايلوخ" في مسرحية "تاجر البندقية" اليهودي الثري، والمرابي، الجشع، الذي يريد أن يضفي على أحقاده وتعطشه، إلى الدم والانتقام، طابعاً دينياً تارة، وشرعياً.. تارة أخرى. كان يريد أن يحصل على رطل من اللحم من جسم أنطونيو بموجب الصك الموقع بينهما، وحسب إجراءات قانونية في المحكمة .. فأي طراز من اليهود يمثله " فاجين" ..؟

إنه يهودي العالم السفلي، والأزقة الخلفية. وربما أمكن القول، إن صورته هي أقرب إلى صورة اليهودي كما استقرت، في التصورات الشعبية، والفولكلور، في أوروبا عامة.

كان شايلوخ يستغل حاجة البورجوازيين والبورجوازيين الصغار، إلى المال وهذه هي الصورة العامة للمرابي اليهودي في المجتمعات اليهودية.

فيقرضهم مقابل فوائد ورهونات ولقاء صكوك وضمانات، تصل إلى حد اقتطاع جزء من لحوم أجسادهم. –في مسألة رطل لحم، ضرب شكسبير عصفورين بحجر واحد – أما "فاجين" يهودي العالم السفلي، فإنه يستغل شريحة اجتماعية أخرى: الأطفال والمشردين.. يستغل حاجتهم إلى المأوى والغذاء، فيحولهم إلى نشالين ولصوص يسطون، حتى على المنازل مقابل إيوائهم في منزله.. وتقديم بعض الطعام والكساء لهم: يأخذ منهم حصيلة النشل والسطو واللصوصية والجريمة، جميعاً.. ويعطيهم من الجمل أذنه.

لقد كان " أوليفرتويست " طفلاً غير شرعي، وضعته أمه في ملجأ للأيتام بعد أن حملت به سفاحاً. ولدته، ثم أغمضت عينيها وماتت.

وراح أوليفرتويست الطفل ينتقل من ملجأ إلى آخر ، حتى أسلمه الملجأ الأخير إلى دافن موتى لقاء خمس جنيهات.. ونتيجة المعاملة الخشنة القاسية والأذى الكبير الذي لحق بالطفل، لدى هذا الرجل، قرر أن يهرب، وهكذا فعل.

وخلال مسيرته الهاربة، تعرف أوليفر في بلدة قريبة من لندن، بحدث آخر مثله، مشرد، هو "داوكنز" فحمله هذا إلى منزل اليهودي " فاجين" في لندن.. وكل يوم كان فاجين يرسل غلمانه ككلاب الصيد لينشلوا الجيوب ويسرقوا البيوت ثم يعودوا إليه حاملين ما غنموه، وليس لهم مما جاؤوا به إلا أن يأكلوا ويشربواويناموا آمنين.

وسقط أوليفر في الامتحان قبل أن يدخل تجربة النشل الأولى: يلقى القبض عليه ويحاكم، ثم يجيء صاحب المكتبة الذي شاهد حادث النشل أمام عينيه، يقع على أحد زبائنه، وهو رجل شيخ، وقد قام به اثنان من زملاء أوليفر، فيدلي بشهادة تبرئ ساحة الطفل أوليفر . . وتحمل الرجل الشيخ على التكفير عن خطئه في حقِّه.. بأن يحمله إلى بيته مقرراً أن يجعله يعيش معه..

لقد نسي الرجل الشيخ، عندما حاول زملاء أوليفر أن ينشلاه، دفع ثمن الكتاب الذي اشتراه، فبعد أن عاد إلى منزله مع أوليفر، قرر أن يرسله إلى صاحب المكتبة مع بعض الكتب وخمس جنيهات كانت له في ذمته، ولكن اليهودي كان له بالمرصاد. لقد أرسل من يتجسس ليعرف جلية الأمر، خوفاً من أن ينكشف هو وعصابته..

وأفلحت "نانسي" الفتاة المشردة التي يستخدمها اليهودي "فاجين" في معرفة كل شيء، وعلمت أنهم أطلقوا سراح أوليفر.. وأن الرجل الشيخ آواه معه في منزله.. فما كان من فاجين إلا أن نصب كميناً له.. ثم أعاده بالقوة إلى منزله.. وهناك دهش الجميع من سترة أوليفر الجديدة "فهي من جوخ ممتاز".

قال فاجين مخاطباً أوليفر:

- أنا سعيد بأن أراك حسن البزة إلى هذا الحد يا عزيزي! سوف نعطيك بزة أخرى، خشية أن تتسخ بزتك الجديدة هذه. لماذا لم تكتب إلي يا عزيزي وتخبرني أنك قادم؟! إنك لو فعلت لأعددنا لك عشاء ساخناً..

وأخذ فاجين الخمسة جنيهات.. وأعطى "سايكس" أحد عملائه الكتب والجنيهات!! ولم يمض وقت طويل، حين انهال فاجين على أوليفر صائحاً:

- هكذا أردت أن تفر يا عزيزي، أردت أن تلتمس النجدة.. أن تدعو رجال الشرطة. إننا سوف نشفيك من ذلك.

.. وتمضي الأيام، فيقحم فاجين، الطفل المنكوب في عملية سطو على منزل، إلا أن العملية تفشل ويصاب أوليفر بطلقة رصاص من غدارة.. فيعود اللصوص إلى منزل فاجين.. دون أن يكون معهم أوليفر.. وإن يكن "سايكس" رأس العملية قد تأخر هو الآخر.

وعندئذ يبلغ الغضب بفاجين أقصى درجاته، ويصيح منذراً وهو يخاطب الفتاة نانسي:

- لو رجع سايكس وخلَّف الغلام وراءه، لو نجا بنفسه، ولم يردّ الغلام حياً أو ميتاً، فاقتليه بنفسك إذا كنت تريدين أن تبعدي رأسك عن المشنقة، وافعلي ذلك حالما يدخل الغرفة.. وإلا فقد فات الأوان.

وتصيح الفتاة: ماذا تعني بهذا كله؟

فيتابع اليهودي، وقد ذهب الغيظ بصوابه:

– ماذا أعني بهذا كله؟ حين يساوي الغلام عندي مئات من الجنيـهات، فهل تنتظرين مني أن أخسره بسبب عصابة من السكيرين، أستطيع القضـاء عليهم من غير عناء؟

فما القصة، ومن أين لهذا الطفل أوليفر بمئات الجنيهات؟! أم تراه هو نفسه يساوي هذا المبلغ، في المستقبل، عندما ينضج كلص مـدرب مـاهر يمكن أن يدر أموالاً وفيرة.. على فاجين؟!

الحقيقة أن فاجين يعرف قصة أوليفر تويست كاملة، ويبدو أنه قد عقـد اتفاقاً ما مع شقيقه من والده "مونكس" يحصل بموجبه على قسط مـن الإرث لقاء إبقائه صفحة أوليفر مطوية.

لم يكن "أوليفر" طفلاً مشرداً حقيقياً، لكن مجيئه إلى العالم على هـذا النحو، وموت والده قبيل وفاة أمه بقليل، هو الذي أعطاه هذه الصبغة.. علـى أن هناك ميراثاً يطمح الأخ "مونكس" في الانفراد به.. ولكـن هـا هـو ذا اليهودي فاجين وقد علم كل شيء يطمع هو الآخر، بالحصول على شيء من الميراث، وهذا هو السر في رغبته بأن يبقى "أوليفر" حيا، لكي يساوم أخـاه به، ويراهن عليه..

وهكذا، فإن فاجين يحرص على القتل، قتل "سايكس" أحد عملائه فـي سبيل المال. ويلجأ من جانب آخر إلى ابتزاز "مونكس" أخي أوليفـر غـير الشقيق من والده، من أجل الغرض نفسه..

كان لشايلوخ منزل باذخ، فيه من يخدمه، ومن مظاهر الثراء والنعمة، ما يمكن أن يدرجه في فئة الأثرياء الحقيقيين.. في حين أن " فاجين" مقيم في بيت أقل من عادي، ويعيش حياة أقرب إلى الفقر والتقشف. ولكن على الرغم من هذا الاختلاف في المظاهر وفي طريقة وأسلوب الحصول على المـــال، فإن ثمة قواسم مشتركة تجمع بين كل منهما.

إننا لم نلاحظ مظاهر تدين واضحة، عند "فاجين". وإذا كان الخـــوف من السلطة واضحاً أشد الوضوح عنده، فإنه من خلال ممارسته العمليـــة، يخفي استهتاراً مدهشاً بالقوانين والشرعية. وهنا يلتقي الاثنان مرة أخرى، أفليس تسخير القوانين والشرعية بصكوك لا إنسانية، مثلما فعل شـــايلوخ يخفي هو الآخر استهتاراً حقيقياً، بالقيمة الموضوعية للقوانين والشرعية؟! أليس هذا هو المضمون الحقيقي لمحاولة شايلوخ، أكل لحم أنطونيو، وهـــو حي؟!

وإذا كان شايلوخ نموذج اليهودي، الذي هو "فوق" في أعلـــى الـــهرم الاجتماعي، فإن " فاجين" من جانبه، هو نموذج اليهودي الذي هو " تحـــت " في أدنى الهرم الاجتماعي. الأول يطلب المال، بين الواقفين في قمة الـــهرم. والثاني، يلهث في طلبه بين الواقفين في أسفل السلم..

وكل منهما متعطش إلى الدم والانتقام.. والاثنان يلتقيان، من ناحيـــة أخرى في نظرتهما إلى الأخلاق، أو بتعبير أدق: اللاأخلاق. إن اللاأخـــلاق

هي المبتدأ والخبر، عند اليهودي. أما الأخلاق كما يفهمها الآخرون ويعيشونها في أية صيغة من صيغها الاجتماعية العملية ولا نقول: الفلسفية - فإنها لا تهم اليهودي إلا عندما يكون في حاجة إليها، وحينما تستطيع أن تسدي إليه خدمة ما في مسعاه الدائب من أجل الحصول على المال... وهذا هو الوجه الحقيقي لليهودي في مختلف العصور.

اليهودي في نماذج أدبية

- ٤ -

غوغول يقدم اليهودي الروسي

تناول شخصية اليهودي ونفسيته في روسيا القرن التاسع عشر، اثنان من كبار الكتاب الروس: نيكولاي غوغول NICOLAI GOGOL (*) وفيودور دوستويفسكي FEODOR DOSTOEVSKY (**) فقد نشر دوستويفسكي عام ١٨٧٣ في مجلة "المواطن" سلسلة مقالات عن المسألة اليهودية تحت عنوان "مفكرة كاتب"، لم يقدر لها أن تظهر بين أعمال دوستويفسكي الكاملة سوى مرة واحدة سنة ١٨٩٥ .. اختفت بعدها نهائياً بين مؤلفات الكاتب العظيم التي كان يعاد طبعها بالروسية، وغيرها من

(*) — من مواليد سوروتشيتز في اوكرانيا عام ١٨٠٩. وكانت فاته عام ١٨٥٢

(**) — موسكو: ١٨٢١ – ١٨٨١

لغات أوروبا. وسوف نعود إلى هذه الدراسة في ما بعد، فهي الآن بين أيدينا، وقد عثر عليها الكاتب إبراهيم الكوني ونشرها مترجمة في المجلة اللبنانية المحتجبة "بيروت المساء" أواخر عام ١٩٧٥.. ثم عادت فترجمتها مجلة " الثقافة العالمية".

عالج غوغول الشخصية اليهودية في عمله الأدبي الشهير " تاراس بوليا" مقدماً إياها من خلال وجود اليهود الجماعي في "الغيتو" وخارجه، وعبر شخصية المرابي الخمَّار "يانكل" .

والواقع فإن ملاحظة دوستويفسكي في مقالاته المذكورة آنفاً هي صحيحة تماماً، فهو يكتب معلقاً على خبر قرأه في مجلة "الوقت الجديد" بعث به مراسل المجلة في " كوفنو" ويقول فيه " إن اليهود هناك هجموا على السكان الليتوانيين المحليين حتى كادوا أن يقتلوهم بالفودكا، لولا القساوسة الكاثوليك الذين أنقذوا السكارى مهددين إياهم بنار جهنم، قائمين على تنظيم تجمعات خاصة لمنع تناول المسكرات. بلى، إن اليهود يهاجمون الآخرين.. بالكحول أيضاً".

... لقد كان " يانكل" في الأصل واحداً من يهود " زابورجي[***]" وكانت زمن أحداث الرواية، متداخلة مع روسيا. ونتيجة الأحداث التي وقعت ضد اليهود، في زابورجي، غادر إلى "دربنو" فافتتح حانة هناك،

(***) تقع الآن جنوب غرب بولونيا

وأخذ بالتدريج يتحكم بكل النبلاء والسادة في الجوار. وشيئاً فشيئاً أخذ يمتص كل النقود منهم، حتى صار كل من في المنطقة يشعر بنفوذ هذا اليهودي وتسلطه.

... ولا بأس، إذا نحن بدأنا القصة .. من أولها..

لقد أراد غوغول أن يكتب رواية تصور الماضي البطولي لأوكرانيا – ذلك الجزء الجنوبي من روسيا – في القرن الخامس عشر... ولم يكن ثمة من سبيل لذلك أفضل من تصوير بطولات القوزاق، الذين امتهنوا الحرب والقتال... وكان عليهم أن يواجهوا زمراً مختلفة من الأعداء: الغزاة المغول، والبولونيين ، والأتراك العثمانيين، يحيطون بهم من كل جانب في الخارج، واليهود يستغلونهم من الداخل.

ولقد وصف أحد رؤساء "زابورجي" أسلوب اليهود في الاستغلال حين خاطب أهل زابورجي قائلاً:

– لا يوجد أحد منكم ليس مديناً لهؤلاء الذين يستغلونكم ويجردونكم من كل ما تملكه أيديكم من المال بطريقة .. أو بأخرى. وعندما كانت تخلو جيوبكم من المال كنتم تجدونهم يمتنعون عن إقراضكم إلا مقابل فوائد مرتفعة وشروط قاسية.

ثم يعلن أحد القوزاق:

- يا للعار ! لقد أصبحت كنائسنا تحت سيطرة اليهود الملاعين. ولم يعد بمستطاعنا دخولها للصلاة، إلا إذا دفعنا سلفاً رسم دخول، قد فرضوه. ليس هذا فقط، بل إنهم يدنسون بأيديهم القذرة، القربان المقدس ، ويضعون شارتهم عليه، قبل أن يسمحوا لنا بتناوله . وحتى اليهوديات هناك، أخذن يصنعن لأنفسهن أردية تشابه أردية قساوستنا.

لقد تمكن اليهود إذاً، في " زابورجي" ومختلف أنحاء أوكرانيا... ولم يكتفوا بالسيطرة على مقدرات الروس المالية، فحسب، بل أرادوا أن يتحكموا حتى بحياتهم الروحية والدينية.

ومتى كان المؤمن يدفع مالاً كي يدخل إلى الكنيسة؟

وانفجر الزبوراجيون في ثورة عارمة ضد اليهود، واندفعوا نحو الحي اليهودي في ضواحي المدينة، " وقد صمموا على ألا يتركوا أحداً منهم حياً".

... وعندئذ هب اليهودي "يانكل" صائحاً:

- أرجو رحمتكم وعفوكم أيها السادة، فنحن جميعاً نعلم ما أنتم عليه من طيبة قلب وشجاعة، إنكم تعلمون أننا نعيش هنا ، تحت رحمتكم، فلا يعقل والحالة هذه أن نقابل معروفكم بالإساءة إليكم. نحن إخوة لكم يا أهل زابورجي، ولا يعقل أن نتعاون مع أعدائكم. إن هؤلاء القوم ليسوا من اليهود، والشيطان وحده يعلم من هم، إنهم يستحقون الموت.

ويعلق غوغول على موقف "يانكل" هذا بقوله:

كان اليهودي الخبيث يوجه حديثه محاولاً أن ينال عطفهم ولو على حساب آخرين من بني قومه.

وإذ انتبه يانكل إلى "تاراس بولبا" أحد أبطال القوزاق، أسرع نحوه يتعلق بقدميه ويستعطفه:

– أيها السيد العظيم، لقد عرفت أخاك، "دوروش " وأنا الذي أنقذته من الأسر عندما قبض عليه الأتراك..

وتبدأ حكاية أخرى، بين تاراس بولبا، ويانكل. لقد أنقذ القوزاقي الكهل تاراس، اليهودي المرابي الخمار الجشع من موت محقق، فكيف سيرد عليه يانكل هذا فيما بعد، في الصفحات الأخيرة من الرواية؟

لقد هزم البولونيون القوزاق، وأسروا "أوستاب" ابن تاراس بولبا، وساقوه إلى وارسو. فحين علم والده بذلك، قرر ان يلحق به إلى هناك ، بالغاً ما بلغ ثمن هذه المغامرة. وقصد يانكل، بعد أن انتقل إلى مدينة أخرى فتح فيها حانة" وأخذ يتحكم بكل النبلاء والسادة في الجوار يريد أن يستعين به .. من أجل رؤية ابنه.

وما إن رأى يانكل تاراس بولبا، حتى التمعت عيناه فجأة. لم يكن قد نسي مبلغ الألفين من " الدوكات " التي كان قد عرضها البولونيون ثمناً لرأس تاراس بولبا.

وفيما كان يشرح بغيته، قاطعه يانكل:

- ولكن ألا تعلم يا سيدي...

فبادر بولبا، إلى القول بسرعة:

- إني أعلم كل شيء. لقد عرض البولونيون تقديم ألفين من الدوكات ثمناً لرأسي. ياللأغبياء، إنهم لا يعلمون قيمته. سأعطيك خمسة آلاف وها هي ذي الآن: ألفان سلفاً.

وفيما كان يانكل يقلب قطع النقود في يده، وقد بدا السرور عليه وجشع قومه الفطري ظهر في عينيه، تابع بولبا حديثه قائلاً:

- كان بوسعي ألا آتي إليك، بل أذهب بمفردي إلى وارسو، ولكني خفت من أن يعرفني أحد البولونيين، ويقبضوا علي لأنني لا أحسن الاحتيال وتدبير المكائد، أما أنتم أيها اليهود، فقد خلقتم لمثل ذلك، وبوسعكم خداع الشيطان نفسه.

ولا يستطيع اليهودي تدبير المكائد وخداع الشيطان نفسه فحسب، بل أنه يتقن شؤوناً مشابهة كثيرة، فما أسهل ما يتدبر مسائل الرشوة، وما أسهل أن يقتل، وما أيسر أن يسرق.. حتى نفسه.

يقول تاراس بولبا، مستطرداً، وهو يعقد مع اليهودي يانكل وزملائه الآخرين، صفقة مشاهدة ابنه:

- أنا أعلم أيها اليهود، أن في وسعكم أن تفعلوا أي شيء من شؤون الرشوة، فمن المعروف عن اليهودي أنه يستطيع أن يسرق نفسه إذا اشتهى.

ولا ينسى غوغول، أن يوضح عنصراً بارزاً في نفسية اليهودي، أشار إليه في أكثر من موضع من روايته هذه. فحين يجتمع يهودي بآخر ، وعندما يلتقي ثلاثة مثلاً، فلا بد أن يدور الحديث فيما بينهم بلغة خاصة يسميها الكاتب الروسي " لغة غريبة " وأغلب الظن أنها هي لغة " اليديش" التي يتكلم بها على الأخص اليهود في شرق أوروبا، وهي خليط من العبرية والسلافية والألمانية القديمة.

وعلى الرغم من جميع الإغراءات التي بذلها "بولبا" أمام "يانكل" : **اثنا عشر ألفاً من الدوكات، عدد من الكؤوس الذهبية، قسم من ذهبه المدفون، من أجل مساعدة ابنه على الفرار من سجنه في وارسو**، فإن "يانكل" وزميليه اليهوديين الآخرين اللذين انضما إليه، لم يعطياه وعداً نهائياً، بل علقا الأمر كله، باستشارة رجل، لا غنى عنها، قبل القيام بأية خطوة فمن هو هذا الرجل؟

إنه " مردخاي".

فمن هو مردخاي هذا؟ إنه زعيم العصابة التي ينتمي إليها زميلا يانكل في هذه المدينة: وارسو.

ويقدمه غوغول كما يلي:

كان وجه مردخاي يحمل عدداً من آثار الضربات التي لابد أنه قد نالها في أثناء قيامه ببعض الأعمال الجريئة في نظر اليهود، كالسرقة وقتل الضعيف.

.. ربما كان معروفاً لدى الجميع، جانب النفاق والتملق والمداهنة في نفسية اليهودي، فهو عنصر جوهري ، يلجأ إليه، حين تمس الحاجة ، وعندما يؤانس ضعفاً أو حرجاً في موقفه لا منجاة منه، بغير الرياء والأساليب المداجية. ولكن غوغول يقدم لنا، في الصفحات الأخيرة من روايته التي بدت، وكأنها في إحدى نواحيها الكبرى مخصصة لتعرية نفسية اليهودي والكشف عن خباياها، مشهداً لا أصدق منه في هذا المجال، ففي أحد سجون وارسو، يدور الحوار التالي بين اليهودي يانكل، وبين أحد الجنود الذين برزوا في طريقه، فيما هو يتقدم للبحث عن " أوستاب" ابن بولبا الأسير، والذي سيعدم في الصباح. يقول يانكل مخاطباً الجندي:

- **يا صاحب السعادة، أيها الضابط البطل!**
- **هل تخاطبني أيها اليهودي؟**
- **نعم أيها السيد الجليل**
- **ولكني، لست غير جندي عادي، وأنا لست بضابط.**

– وحق السماء، إنك تبدو وكأنك حاكم المدينة . يليق بك يا سيدي أن تكون قائد فرقة، وتعتلي صهوة جواد أصيل.

ويختتم غوغول هذا المشهد، على النحو التالي:

" رفع الجندي يده إلى شاربه، وقد أعجبه هذا المديح الذي أخذ اليهودي يكيله له، وومضت عيناه بنظرات الحبور".

ثم يغتنم الكاتب العظيم هذه الفرصة ليضرب بفرشاته الذكية ضربة أخرى محدثاً لمسة هامة على صورة اليهودي ، ذاك أن يانكل يتابع حديثه مع الجندي قائلاً:

ما أطيب العسكريين، وما أرق قلبهم، وأينما ترى العذارى اليهوديات الرجال العسكريين من البولونيين.. أوه، أوه•• إنهن يعشقنهم، وهم يدفعون لهن بسخاء.

.. ويبدو أن اليهود عريقون في هذه المهنة، منذ أيام " استير" .. و "هيروديا" وابنتها "صالومي".

اليهودي في نماذج أدبية

- ٥ -

فــرانز كــافكا ... صهيونياً

أدهشني كثيراً أن أقرأ أن فرانز كافكا(*) FRANZ KAFKA.. يعود إلــى الواجهة الأدبية بعد سنوات عديدة من الغياب.

وهل غاب كافكا عنا قط؟ هل غاب عن الصحف والمجــلات والكتــب المترجمة أو غير المترجمة؟ هل كان كافكا إلا حاضراً.. باستمرار؟

خطر لي أن أجري سبراً عاجلاً في هذه المســألة، حســب طريقــة: "العينات العشوائية" المتبعة في علم الاجتماع.

في العدد "٦٢" تاريخ الأحد ١٩٩٧/٥/٢٥ من ملحق صحيفة "الثــورة" السورية الأسبوعي، قصة مترجمة عن كافكا بعنوان "حلم".

(*) – يهودي تشيكي كتب بالألمانية: ١٨٨٣ – ١٩٢٤.

وفي صيف ١٩٩٦، نشرت في مجلة "الآداب" الشهرية اللبنانية – العدد المزدوج ٧–٨ تموز وآب ١٩٩٦ دراسة ضافية عن كافكا.

وبين أحدث الكتب الصادرة ١٩٩٧ عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق، كتاب عنوانه " القصة الألمانية الحديثة، في ضوء ترجمتها إلى العربية" تأليف: د. عبده عبود، فيه فصل ضاف من ثمان وأربعين صفحة من القطع الكبير عن فرانز كافكا.

.. وصيف عام ١٩٨٣، بمناسبة مرور مئة سنة على ميلاد كافكا، أقيمت احتفالات باذخة في عدد من العواصم العالمية: لندن، باريس، فينا، براغ التي ولد فيها عام ١٨٨٣ في ٣ تموز .. وفي مدن أخرى. وكانت احتفالات لم يحظ بمثلها، أي أديب عالمي آخر، سواء أكان في مستوى كافكا، أو في مستوى أعلى. كما هو الأمر لدى: هوغو، فلوبير، دوستويفسكي، ديكنز، راسين، همنغواي.. موليير.. الخ.

فهل كان كافكا أهم من هؤلاء – وأمثالهم، ممن هم في مستواهم الأدبي كثير– وهل قدم للإنسانية، من أدب وفكر، ما لم يقدروا على الإتيان بمثله؟ أم إن وراء الأكمة ما وراءها، كما يقول المثل العربي الدارج؟ وإن هناك مؤسسة تدعو وتروج لأمثال كافكا من اليهود الصهيونيين؟

أخطر ما في الأمر أن الاهتمام بكافكا، أمسى شيئاً يشبه الزي الشائع. ولئلا يتهم أحد ما بأنه متخلف أو " دقة قديمة " OLD FASHION نرى من

يبادر إلى الإدلاء بدلوه في هذا المجال، دون التزود بما يكفي من معرفة أو اطلاع على أدب كافكا واتجاهاته السياسية والفكرية . ولا انفصام بين هذين الطرفين، حتى إن أديباً معروفاً، كالصديق الراحل محمد عمران يوم كان رئيس تحريرمجلة "المعرفة" الشهرية التي تصدرها وزارة الثقافة السورية ، نشر ملفاً خاصاً في ثلاث دراسات عن كافكا عام ١٩٨٢ في هذه المجلة استهله بكلمة قال فيها: " إن أدب كافكا شهادة قاسية على استلاب الإنسان في ظل الحضارة الصناعية" وخلال ذلك أشار إلى قصتين لكافكا هما "القضية" و "المحاكمة" وهما في الواقع قصة واحدة اختلف ناقلاها إلى العربية في ترجمة عنوانها. ثم انتهى إلى القول: "الدراسات الثلاث التي نقدمها في هذا المحور تلتقي في وجهة نظر واحدة: رد تهمة الصهيونية عن كافكا".

في زيارتي الأولى "براغ" قال لي صديق أديب يعمل هناك في الإذاعة:

- ألا ترغب في مشاهدة البيت الذي سكن فيه كافكا فترة من الزمن في هذه المدينة؟

لم يكن كافكا يومئذ لديّ سوى روائي متميز. وكنت قد قرأت له روايته المترجمة "المحاكمة". وليست لدي أية فكرة عن أبعاده الفكرية.. أو السياسية.

في بيت كافكا:

كان البيت طريفاً بالفعل، ويقع في زقاق طريف أيضاً، قرب القصر الجمهوري، ويدعى "الزقاق الذهبي " وماتزال تسميته التشيكية – السلافية في الذهن "زلاتا أوليتزا" ذاك أنها كانت مأهولة في بعض الأزمنة بأولئك الناس الذين يؤمنون بـ " حجر الفلاسفة " مثلما كان العرب يسمون حلم الوصول إلى المعادن النفيسة من المعادن الخسيسة:

بيت صغير منمنم. غرفة واحدة واطئة الجدران، في صدرها نافذة تطل على بستان جميل.. ومنظر رائع.

عرفت في هذه الأثناء أن كافكا ولد في أسرة يهودية تشيكية، وكان والده تاجراً يشتغل في تجارة الخردوات. أما والدته " جوليا لافي " فهي الأخرى يهودية انحدرت من أسرة اشتهرت بإنجاب الدارسين والحالمين الشواذ. وكان كافكا أكبر إخوته، وقد توفي أخواه الآخران وهو طفل. وعلى العموم فإن كافكا عاش شطراً كبيراً من حياته في ظل الإمبراطورية النمساوية المجرية التي كانت تبسط سلطتها على وسط أوروبا.

لماذا نقف عنده؟

في كتاب صدر في دمشق عام ١٩٧٨ بعنوان "اليهود في ألمانيا" – طبعة خاصة – يعرض أسماء عدد من المشاهير اليهود في مختلف مجالات

الإبداع أمثال: **جاك أوفنباخ** (الموسيقي) **وهاينريش هايني** (الشاعر) **وتسيغموند فرويد** (عالم النفس الشهير) **وفيليكس منديلسون** (الموسيقي) **وغوستاف مالير** (الموسيقي) **وهاينريش هيرتز** (الفيزيائي).. الخ.

وهناك سواهم من مشاهير اليهود في الشرق والغرب أمثال الكاتبين الروسيين: ايليا اهرنبورغ وبوريس باسترناك. والسينمائي الروسي: سيرغي ايزنشتاين. والمسرحي الأميركي آرثر ميلر.. والمفكر الفرنسي مكسيم رودنسون..

.. إن أحداً لم يتوقف في كثير أو قليل، أمام أي من هؤلاء المبدعين، كيهودي في ذاته. لأن الدين شيء خاص بالإنسان، ولكن الأمر كان لابد أن يختلف لو أن أحدهم، فعل ما فعله "حاييم وايزمن" الكيميائي روسي الأصل الذي بذل جهوداً معروفة في الحصول على "وعد بلفور" وتأسيس دولة إسرائيل. وهذا ما أصر العالم اليهودي أينشتاين، على أن يتجنبه، حين عرضت عليه رئاسة دولة إسرائيل، رغم أنه لم يكن بعيداً تماماً، عن التعاطف مع اليهود..

إن فرانز كافكا الذي نتحدث عنه ليس هو ذلك اليهودي، بل هو ذلك اليهودي – الصهيوني، الذي وظف كثيراً من أعماله الأدبية الهامة في خدمة القضية اليهودية – الصهيونية.

فرانز كافكا.. يهودياً:

عام ١٩٧٢ نشر الشاعر سعدي يوسف دراسة بعنوان " فرانز كافكا صهيونياً – نصوص من "يانوش " وغوستاف يانوش هذا كان صديق كافكا وزميله في شركة التأمينات التي كان الاثنان يعملان فيها . وبعد وفاة صديقه نشر يانوش كتاباً عنوانه "أحاديث مع كافكا" ترجم إلى عدة لغات.

يقول يانوش: "أرى أن كافكا كان مؤمناً بآراء الحاخام " زفي هيرش كاليتشر" الذي اقتفى هيرتزل أثره والقائلة: إن خلاص اليهود لن يكون على يدي المسيح المنتظر، بل بجمع اليهود المشردين، في الأرض المقدسة".

وينقل روجيه غارودي في كتابه " واقعية بلا ضفاف " – الفصل المكرس لكافكا – قوله على لسان كافكا:

" لقد أصبحت مواطناً في عالم آخر، غير عالم أبي، ولابد أن يكون أرض كنعان، أرض الأمل الوحيدة بالنسبة لي، لأنه لا توجد أرض ثالثة للبشر".

ويؤكد هذه الفكرة النص الذي يورده سعدي يوسف، على لسان كافكا في حديثه مع يانوش، وفيه يقول بكل وضوح:

" لم يعد اليهود اليوم راضين بالتاريخ. إنهم يتطلعون إلى وطن متواضع اعتيادي في هذا الكون. إن عدداً من اليهود الشباب يعودون إلى

فلسطين. إنها عودة المرء إلى نفسه، إلى جذوره، إلى انتمائه،. إن الوطن القومي في فلسطين، هو بالنسبة لليهود هدف ضروري".

كافكا يشرح معنى دياسبورا

ويوضح الأستاذ يوسف أن كافكا كان مقتنعاً حتى بخرافة "الشعب المختار" مؤمناً أن اليهود أسمى من غيرهم، فقد سأل يانوش كافكا عن معنى: دياسبورا Diaspora – معناها المباشر: اليهود المشتّتون بعد السبي البابلي ٥٨٦ ق.م – فقال:

" إنها تعني تشتت الشعب اليهودي. إن الشعب اليهودي مشتت كالبذور، وكما تمتص بذرة القمح الأشياء من حولها وتكتنزها، وتحقق نماءً أكثر، فكذلك كتب على اليهود: أن يمتصوا كفاءات البشر ويطهروها، ويمنحوها تطوراً أعلى. إن موسى ما يزال حقيقة واقعة ".

من مذكرات كافكا

عام ١٩٦٤ ظهرت في سلسلة كتب "بنغوين" مذكرات فرانز كافكا، وقد جمعها الكاتب الصهيوني الذي كان مقيماً في فلسطين المحتلة " ماكس برود". وفي هذه المذكرات يتحدث كافكا عن فرقة تمثيل يهودية قامت في تشيكوسلوفاكيا، وقد ساعد كافكا في تنظيم رحلات سياحية لهذه الفرقة إلى

معظم القرى في إقليم بوهيميا، وهو يقول في الصفحة ١٧٣ ما يلي عن هذه الفرقة:

"وأخيراً فقد أمضيت فترة طويلة، مع الممثلين اليهود الذين تولدت لديهم القناعة بالجمعية الصهيونية بعد إلحاح شديد. كنت أكتب لهم الرسائل التي يطلبون فيها من الجمعيات الأخرى ، ما إذا كانوا يرغبون في مشاهدة العروض المسرحية لأولئك الممثلين – كفرقة تمثيل زائرة. ثم قمت بكتابة المذكرة المطلوبة، وطبعت عنها نسخاً أخرى كثيرة ".

ويدرس اللغة العبرية

و يذكر روجيه غارودي أن كافكا كان يواظب على دراسة اللغة العبرية حتى آخر أيامه بكل جدية. وقد بدأ هذه الدراسة عام ١٩١٧ حين قابل "دورا ديامنت" اليهودية البولندية على بحر البلطيق.

وفي تحليله علاقة كافكا بالديانة اليهودية يقول غارودي " كان كافكا يبحث بشوق عارم عن التأصل في الحياة، وعن الارتباط بجماعة اجتماعية وروحية. كان ينتمي بوصفه يهودياً إلى شعب مختار". و "اليهودية تمثّل في آن واحد جماعة اجتماعية ودينية، فاليهودية ليست مسألة إيمان بعقيدة، ولكنها تجربة حيوية عاشتها جماعة تكيفت وفقاً لهذه العقيدة".

ويستطرد المفكر الفرنسي في حديثه عن ديانة الكاتب الحائر بين جنسيته التشيكية، وبين لغته الألمانية، وبين عقيدته الروحية قائلاً:

" فالرب الوحيد في تصوره هو "يَهْوَه"، الرب الباطش الرهيب في عرف اليهود، الذي لا ترد كلمته الصارمة" و "تاريخ إسرائيل في نظره صورة للعلاقة التي تربط الإنسان بالرب، وشعبه هو الشعب المختار، ولكنه الشعب العاصي أيضاً الذي حقت عليه لعنة الرب. وهو يقول: لا أخون جنسي في الواقع، فهذا أمر مفروغ منه"

وعلى الرغم من أن غارودي يلاحظ أن كافكا "يهودي مقطوع الصلة بالطائفة اليهودية" فإنه يؤكد في الآن ذاته أنه "كان يهودياً صحيحاً".

.. وفي عبارات محددة مكثفة يحدد غارودي أزمة كافكا النفسية العاصفة، فقد " كان يشعر أنه أجنبي في براغ مسقط رأسه. كان معزولاً عن الأهالي المتكلمين بالألمانية لكونه يهودياً. كما كان منفصلاً عن الشعب بوصفه ابناً لأحد كبار التجار. ومع أن الحي المخصص لسكن اليهود وحدهم، كان قد هدم إلا أن العزل المعنوي ظل قائماً. " وينقل غارودي في هذه المناسبة قول كافكا في إحدى محاوراته مع "يانوش" :

" إن المدينة اليهودية النتنة مدينة حقيقية تعيش في نفوسنا أكثر مما تعيش المدينة الصحية الجديدة المحيطة بنا ".

يطرح روجيه غارودي تفسيرات متعددة لأدب فرانز كافكا وشخصيته تتراوح بين أقصى اليمين وبين أقصى اليسار. بل إن ثمة" من تصور أنه وجد في كافكا آخر أنبياء إسرائيل ".

أما التفسيرات الماركسية، فإنها ترى في كافكا " إما بورجوازياً صغيراً متردياً في تشاؤمية ناخرة كالسوس، وإما رجل الثورة، إن لم يكن رجل الاشتراكية"!

ويتابع غارودي قائلاً:

" أرادت الوجودية، هي أيضاً أن تدخل كافكا، في نطاق الجهود العبثية لسيزيف، وفي إطار القلق الطاغي عند هايديغر. أما اختصاصيو التحليل النفسي فقد أغرتهم "رسالة إلى الأب " فاعتقدوا أنهم اكتشفوا في شخصه نموذجاً مثالياً لعقدة أوديب. وخاض الطب أيضاً في المعمعة، فلم يتردد بعضهم في العثور على تفسير حاسم ونهائي لرواية "التحول" أو لرواية "المحاكمة" اللتين كتبهما عامي ١٩١٣ و١٩١٤ من خلال مرض الدرن الرئوي الذي لم يصب به إلا عام ١٩١٧ ".

ولا شك أن ضباب الغموض والتجديد والترميز في أعمال كافكا ساعد النقاد، ولا سيما اليهود ذوو النزعة الصهيونية، الذين يريدون إضافة " عبقرية أخرى " إلى " العبقريات اليهودية " في التاريخ، على تقليب وجهات النظر، وتقديم التفسيرات المختلفة لأعماله الأدبية ونوازعه النفسية. وكان في

الإمكان ترك هؤلاء الناس، يقولون ما يشاؤون، ومـــا تريـــد لـــهم ميولـــهم وعواطفهم، لولا أن في أدب كافكا، ما يقطع الشك باليقين، ويضع النقاط على الحروف تماماً، ويفسر الغامض، ويشخص المجرد، ويفك أسرار الرمز.

.. يدور بعض قصصه في جو عمالي، فيقال : إنه رجل الاشتراكية . ويحار بعض أشخاصه في قلق ضار، فيُسلك كافكا في عـــداد الوجوديـــين. ويصاب بالسل الرئوي عام ١٩١٧ فيفسر في ضوئه عملان كتبـــهما قبـــل ثلاث سنوات أو أربع! فماذا بعد؟

إن لم يكن كافكا " آخر أنبياء إسرائيل " فلا جدل في أنه حَبْر عتيق، قد يبز في إيمانه بيهوديته وصهيونيته كثيرين من الحاخامات داخـــل إســـرائيل وخارجها.

<u>جوزيف. ك يهودي الغيتو:</u>

من هو "جوزيف . ك" في رواية كافكا " المحاكمـــة" والتـــي تـــترجم أيضاً: "القضية" إنه هو اليهودي المعزول في الغيتـــو GHETTO – الحـــي اليهودي المغلق – وليس هو إنسان عصر الرأسمالية المسحوق في أوروبا الصناعية البورجوازية.

.. ربما كان بعض اليهود بروليتاريين Proletarian، وهنـــاك حركـــات يهودية وضعت لنفسها لافتة اشتراكية، غير أنها في اللحظـــات الحاســـمة أو

"عندما دق القنا بالقنا" حسب التعبير الشعبي، أماطت اللثام وأسفرت عن وجه يهودي صهيوني بشع.. وقد كان لليهود الصهيونيين في الاتحاد السوفييتي السابق، يد طويلة وكثرة عددية، ووجود على أعلى مستويات السلطة منذ عام ١٩١٧، وظلوا كذلك حتى السنة التي انهار فيها الاتحاد. وهذه حقيقة باتت معروفة جداً.

أيادي اليهود الطويلة

أكثر من ذلك، فإن اليهود في تشيكوسلوفاكيا، نظموا إيصال الأسلحة إلى إسرائيل بعد استلام الشوعيين الحكم عام ١٩٤٨. وقد تم ذلك بإشراف ستانسلاف سلانسكي أمين عام الحزب الشيوعي. وكان وزير خارجيته في ذلك العهد هو الذي أرسل والد مادلين أولبرايت – وزيرة الخارجية الأميركية حالياً – اليهودي جوزيف كوربل سفيراً لتشيكوسلوفاكيا في رومانيا. وقد حوكم الاثنان الأمين والوزير عام ١٩٥٢، وأعدم الأول .. أكثر من هذا فإن دهاقنة حزب العمل في إسرائيل يعدون أنفسهم اشتراكيين. وهل ينسى منظر " غولدا مئير " رئيسة وزراء إسرائيل السابقة وهي تبكي بعد أيام من حرب تشرين ١٩٧٣، على كتف زعيم حزب العمال البريطاني؟ ذاك أن العامل البروليتاري – Proletariat هي طبقة عمال المعامل الحديثة تحديداً – يظل إنساناً آخر غير اليهودي، ولا سيما يهودي الغيتو Ghetto .

وهذا لا يمكن أن يكون هو نفسه العامل الأوروبي المسحوق. ومن هنا يجيء خطأ الكثيرين في فهم شخصية " جوزيف. ك" ، بطل رواية: المحاكمة.

علاقة الرواية بالسنهدرين

في كتاب تشارلز أوزبورن "كافكا" الذي ترجمه مجاهد عبد المنعم مجاهد عام ١٩٦٧ يرى أن هذه الرواية تسعى إلى كشف حالة الفساد في دار الحاخامية اليهودية، التي هي سليلة " السنهدرين" أي المجمع الديني الأعلى عند اليهود. وقد استعار كافكا وضع هذا المجمع للنظر في قضية شخص يهودي في "الغيتو" هو جوزيف. ك. ولم تكن المحكمة محكمة مدنيَّة بل هي محكمة دينية.

يقول غارودي: إن هذه المحاكمة التي هي عبارة عن شبح ظهر في الليل ليست سوى إدراك للانتصار المحقق ضد الشبح، ومن هنا فهي تأكيد للانتصار على شبح السلطة الحاخامية.

رموز كافكا الصهيونية

في دراسة عنوانها " حل رموز كافكا الصهيونية " يتحدث كاظم سعد الدين عن قصة "القلعة" أو "القصر" لكافكا فيرى أن القلعة كانت في الأصل لليبوسيين وهي "قلعة حصينة على الرابية الجنوبية – الشرقية من

أورشليم، كانوا يطلقون عليها اسم: صـــــهيون". – مزامـــير داود ٢/٧٦ – وصار هذا الحصن يعرف باسم جبل صهيون في عهود تالية.

استولى داود على هذا الحصن الذي كان بيد اليبوسيين وبنى هناك قلعة أو قصراً وموضعاً "لتابوت العهد" وقد وُضِعَ لوحا العهد في هـــذا التـــابوت: سفر الخروج ٣٤: ٣٩/٣٧ . وهذان اللوحان هما الحجريان اللــــذان نقشـــت عليهما الشريعة الموسوية.

قلعة كافكا إذاً ترمز إلى إعادة النظر في هذه القوانين، وتحديد العلاقـــة بين القلعة وبين القرية عن طريق ك. المساح. فوظيفته مسح القريـــــة التـــي ترمز إلى الحياة الدنيا لليهود، ومعرفة قوانينها وعاداتها، وإيجاد نـــوع مـــن العلاقة الجيدة بينها وبين القلعة التي ترمز إلى السلطة العليا، السلطة الدينيـــة اليهودية.

من هو " الصرصار " في المسخ

وتتضمن قصة "المسخ" نقداً حاداً لحياة اليهودي في "المنفى" التي تعتمد على الطفيلية من ربا وخدمات تافهة ، ووساطة تجارية ، وبيع سلع بالطواف باعةً متجولين من أجل المال.

يقول كريكور في المسخ:

"آه، يا إلهي! أي وظيفة منهكة اخترت. الطواف في البلاد يوماً بعد يوم! هناك فوق ذلك كله بلاء الترحل الموصول، والقلق. المعارف العارضون لا يصبحون أبداً أصدقاء حميمين. فليذهب الشيطان بذلك كله. غيري من الباعة المتجولين يعيشون مثل نساء الحريم. إني أعمل لرئيسي، وأنا مضطر على المواظبة على ذلك، بسبب والدي وديونه التي يستغرق سدادها خمس أو ست سنوات أخرى. وبعد ذلك أتغيب وأحرر نفسي تحريراً كاملاً.

.. ويعلق الأستاذ سعد الدين على هذا النص من "المسخ" قائلاً: أما الآن فليتحرر من الوضع الرهيب بالنسبة له: أفاق "كريكورساما" – ساما باللّغة التشيكية – السلافية تعني: الوحيد – البائع المتجول ذات صباح من أحلامه فوجد نفسه قد تحول إلى حشرة ضخمة: صرصار.

.. إذاً هكذا، فإن اليهودي خارج فلسطين: "إسرائيل" لا يستأهل أن يكون أكثر من صرصار..

بنات آوى وعرب

ويصف كاظم سعد الدين قصة كافكا "بنات آوى وعرب" بأنها واضحة جداً في هدفها، فالجَمَل فيها رمز لفلسطين، وبنات آوى هي اليهود ، والمسافر الأوروبي هو الاستعمار البريطاني قبل وعد بلفور وبعده. وشيخ

العرب، والعرب الآخرون، الأنظمة العربية الفاسدة التي تتعاون من أجل جعل الجمل ينفق.. ثم يسهّلون الأمر لبنات آوى. علماً أن العرب يملكون بنادق لكنهم لا يستعملونها، لأن الأوروبي يمسك يد الشيخ، فيقول هذا تمادياً في خيانته: الحق معك أيها السيد، لندعها تمارس مهنتها، لقد حان وقت الرحيل.

سور الصين وبرج بابل

أما قصة "سور الصين العظيم" فإن الأستاذ سعد الدين يلاحظ أن الصين هي رمز فلسطين التي سيحتلها الصهيونيون . ولكن ماذا عن السور؟ ضد من سيبنى هذا السور؟

"إنه سيبنى للحماية من بدو الشمال، هؤلاء البدو الذين، رغم ذلك يستطيعون أن يهدموه في مواضع معينة. لأن هذه القبائل على اطلاع، خيراً منا، بأمور السور، لأنهم دوماً يغيرون خيامهم كالجراد، فلأجل أن يكون – السور – حماية لهم قروناً طويلة، فما عليهم إلا أن يستفيدوا من خبرات وحكمة الشعوب والعصور من الناحية العمرانية، " ثم يعقد مقارنة بين سور الصين وبين برج بابل". ويقول: إن سور الصين سيكون لأول مرة في تاريخ العالم أساساً أميناً لبرج بابل جديد. ثم يتحدث عن السلالات الحاكمة

والإمبراطور الذي لا يراه أحد. وهل تخفى دلالة الإشارة إلى برج "بابل" عاصمة نبوخذ نصر سابي اليهود ومدمر عاصمتهم أورشليم عام ٥٨٦ ق.م؟

وينتهي الأستاذ سعد الدين إلى أن كافكا أسقط رمز سور الصين على حدود الدولة المرتقبة، خشية الشعب الذي سرقت منه الأرض. وهنا يطلق اسم القبائل أو البدو . أما بدو الشمال، فهم رمز الشعب العربي ونبوخذ نصر من ناحية، والدولة العثمانية التي كانت تعارض فكرة إعطاء وطن لليهود في فلسطين، من ناحية ثانية.

أبناء يعقوب الأحد عشر

... وأما قصة "أحد عشر ابناً" فهي واضحة الإشارة من عنوانها بادئ ذي بدء. وهذا ما انتبه إليه "أوزبورن" الذي قال إنها ترمز إلى لم شتات اليهود المتفرقين في العالم. وأوضح أنها مقتبسة من قصة الأسباط، وهم أبناء يعقوب الذي هو اسرائيل نفسه. وتذكرنا أيضاً بقصة يوسف وإخوته الأحد عشر، فهي – أي القصة – كأنها تقول: اجتمعوا يا أبناء الأسرة الواحدة.

وفي قصة "تجنيد القوات" دعوة صريحة لليهود.. لتجنيد أنفسهم رغم أن الأحداث تدور في الصين، كما يقول أوزربون أيضاً.

.. وبعد، فلا بد من القول إن هذا غيض من فيض، ذاك أن كتابات كافكا في كثير منها، على هذا النحو أو ذاك مكرسة لشرح القضايا اليهودية والدعوة إلى "العودة" و "لم الشتات" ، في واحدة من أفضل صيغ الطروح الصهيونية. إذ أنها تتم من خلال أرقى أشكال التعبير البشري: الأدب. وليست رموز كافكا، كما لاحظنا، من الكثافة بحيث تغدو معها سراً مستغلقاً ، وليست صعبة إلى الحد الذي يعسر معه تبسيطها. هي في منتهى الوضوح والسهولة، شريطة ان يتوفر لدى قارئ كافكا شيء من الانتباه والتدقيق، وأن يتذكر وهو يقلب صفحاته أنه كمن يسير وسط حقل ألغام.

لقد حاول غارودي في كتابه "واقعية بلا ضعاف" – وكان ما يزال منتمياً إلى الحزب الشيوعي الفرنسي – أن يكون في منتهى البرود والحياد وهو يدرس كافكا في الفصل الخاص به. إلا أنه رغم ذلك لم يستطع أن يمنع نفسه من القول: "إن عالم كافكا الداخلي، قد شكلته العقيدة اليهودية ، وقراءاته المستمرة لباسكال ودوستويفسكي وليون بلوى وكيركغارد، وبالأخص التوراة، ودراسته للغة العبرية وللتلمود، وشغفه بالمسرح الديني اليهودي".

<u>المصادر:</u>

(*) الشرق الأوسط – العدد ٦٧٧٦ تاريخ ١٩٩٧/٦/١٧

١– القصة الألمانية الحديثة في ضوء ترجمتها إلى العربية – د. عبده عبود – اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٧

٢- واقعية بلا ضفاف – روجيه غارودي – ترجمة: حليم طوسون – دار الكاتب العربي – القاهرة.

٣- كافكا – تشارلز أوزبورن – ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد – المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٦٧

٤- اليهود في ألمانيا – سلسلة مقالات كتبها: ليوسيفرس في صحيفة (شتيرن) الألمانية – لم يذكر اسم المترجم – دمشق: ١٩٧٨ – طبعة خاصة.

٥- مجلة "أقلام" – بغداد – العدد: ٧ – عام ١٩٧٢

٦- مجلة "أقلام" – بغداد – العدد: ٩ – عام ١٩٧٩

٧- مجلة المعرفة – وزارة الثقافة السورية دمشق – ١٩٨٢

الباب الثاني

دوستويفسكي واليهود

دوستويفسكي واليهود

أ - أوراق من "مفكرة كاتب":

اليهودي والشكوى الدائمة.

ب – دوستويفسكي يتنبأ بمطامع الصهيونية في فلسطين.

ج– لا فرق بين يهود معدمين ويهود أثرياء.

أوراق من مفكرة كاتب
اليهودي والشكوى الدائمة

- ١ -

يتساءل الإنسان وهو يقرأ مقالات الروائي الروسي العظيم فيودور دوستويفسكي حول المسألة اليهودية: ترى ما الذي أثار توتر هذا الكاتب، حتى إنه غادر موضوعاته الروائية، وانصرف إلى الكتابة في هذه المسألة على نحو مباشر؟

في ذلك الزمن ، وهو النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لم يكن زمن طويل قد مضى على إلغاء قوانين القنانة في روسيا. وكان ذلك قد حدث عام ١٨٦١، وكانت البورجوازية الروسية النامية تستعد لإكمال اختراقها النظام القناني، وإقامة نظامها الرأسمالي الجديد. وكان الأثرياء اليهود بين

هذه العناصر البورجوازية . ولعل ما ضاعف من شعور دوستويفسكي بالخطر والخوف منهم هو سيطرة اليهود العالمية على مصارف النظام الرأسمالي في أوروبا والولايات المتحدة سيطرة شرسة وخبيثة.

وينهي دوستويفسكي دراسته التاريخية حول المسألة اليهودية* بالقول: "ولهذا فليس من العبث أن نجد اليهود يسودون البورصات المالية هناك – يعني أوروبا – ليس من قبيل المصادفة أن يكونوا المسيطرين على بنوك الاعتمادات السلفية، وليس من قبيل المصادفة – أعود فأكرر هذا – أن يكونوا المسيطرين على دفة السياسة العالمية.. وماذا سيؤول إليه الحال بالنسبة إلى اليهود؟ إن ميعاد إمبراطوريتهم يقترب .. إمبراطوريتهم الكاملة التي لن يشاركهم فيها أحد".

كتب دوستويفسكي هذه الكلمات في زاوية كان ينشرها في إحدى الصحف الروسية تحت عنوان "مفكرة كاتب" عام ١٨٧٧. أي قبل عشرين سنة من انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في بال الذي قرر إقامة دولة لليهود بعد خمسين سنة. ولم يتح لهذه الدراسة أن تنشر مرة ثانية – وبالروسية وحدها فقط – إلا عام ١٨٩٥ حين طبعت أعماله الكاملة.

ولأن دوستويفسكي استطاع في هذه الوثيقة أن يتنبأ بأيديولوجية الحركة الصهيونية، وأن يحلل نفسية اليهودي المهيأ لأن يكون صهيونياً،

* – سبقت الإشارة إلى هذه الدراسة ،ولكننا نعرضها هنا بالتفصيل.

ولأنه استطاع أن يضع يده على الأفكار والمبادئ الأساسية للصهيونية ويعلنها صريحة سافرة فإن الحركة الصهيونية العالمية تولت طمس هذه الوثيقة وحاولت بمختلف السبل أن تمنع ترجمتها إلى لغات العالم الأخرى.

يومئذ لم تكن الصهيونية قد تمكنت من ترويج أسطورة "معاداة السامية" في أوروبا وغيرها من القارات، وكانت تدرك تماماً أنه ليس من السهل التصدي لتشويه سمعة كاتب كبير في مستوى فيودور دوستويفسكي بالذات. ولذلك فإنها آثرت أن تصمت مكتفية بإسدال الستائر على تلك الدراسة التحليلية للمسألة اليهودية.

يقول السيد إبراهيم الكوني الذي قام بترجمة هذه الدراسة من اللغة الروسية إلى العربية، ثم نشرتها مجلة "بيروت المساء" عام ١٩٧٥ * في ثلاث حلقات: إن هذه الدراسة الخطيرة عن المسألة اليهودية لم تكن لترى النور، أقصد أن تترجمَ إلى لغة أخرى غير الروسية لولا المصادفة وحدها. إذاً فيمكن الاعتبار أن العربية هي أول لغة في العالم تنقل إليها دراسة دوستويفسكي بعد مضي زهاء مئة سنة على كتابتها، على الرغم من أن

---

* – نشرت مجلة "الثقافة العالمية" الكويتية في عددها ٨٤ – أيلول، تشرين الأول: سبتمبر، اكتوبر ١٩٩٧ ترجمة للدراسة ذاتها بقلم د. أشرف الصباغ، قال في مقدمتها إن دراسة دوستويفسكي هذه، لم تظهر إلى النور بعد عام ١٨٩٥ في أي من الطبعات لأعمال دوستويفسكي – وظهرت فقط عام ١٩٩٤ في كتيب صغير ضم مقالات أخرى. وهذا يعني أن ترجمة السيد الكوني– كانت هي الأولى عالمياً.. عن اللغة الروسية، وسبقت المقالة المذكورة بتسعة عشر عاماً.

جميع أعمال ومقالات هذا الكاتب العبقري، قد ترجمت إلـــى لغــات العــالم قاطبةً.. فكيف أمكن إخفاء هذه الوثيقة، وكيف تم القفز عنها أو تجاهلـــها، أو عدم الانتباه إليها.. طوال السنوات التي مضت؟

الدوائر الصهيونية وحدها تملك الإجابة عن هذه الأسئلة.

ومنذ البداية فإن دوستويفسكي يعلن:" متى أعلنت عن كراهيتي لليـــهود كشعب؟ إن قلبي لم يعرف كراهية من هذا النوع أبداً، وأولئك اليهود الذيـــن عرفوني، وكانت لهم علاقة بشخصي يعرفون هذا جيداً".

بعد ذلك ينشر مقتطفات من رسائل بعث بها إليه بعض المثقفين اليهود. إن أحدهم يتهمه بأنه يكره بني قومه قائلاً: "أنتم عندما تتحدثون عن "الجيد" – كلمة روسية تعني: اليهودي – فأنتم تشملون بهذا المفـــهوم كـل الجمـــاهير الكادحة من الثلاثة ملايين يهودي في روسيا، والذين يخوض منهم مليونـــان وتسعمئة ألف نضالاً يائساً في سبيل حياة شريفة. وهم أنظف أخلاقياً لا مـــن بقية الشعوب فحسب، ولكن من الشعب الروسي نفسه**" ثم ينتهي هذا الكاتب إلى القول: "للأسف أنتم لا تعرفون الشعب اليهودي أو حياتـــه أو روحـــه أو تاريخه ذا الأربعين قرناً".

إن هذا الكاتب الذي آثر دوستويفسكي ألا يذكر اســـمه، لـــم يكتـــف بتأكيد تعصبه من خلال التظاهر بالروح الطبقية، بل إنه، كشف القناع عـــن

** – هنا يضيف د. صباغ في ترجمته عبارة "الذي تولهونه"

وجهه أخيراً، بعد أن خانه التوازن، فإذا هو يتحول إلى مجرد يهودي متعصب يتحدث عن يهود روسيين.. لهم تاريخ يمتد أربعين قرناً (؟)

ويكتب دوستويفسكي ، راداً على هذا المثقف اليهودي: بعد أن يلفت النظر إلى أنه – أي الكاتب اليهودي – "لم يستطع أن يتمالك نفسه من أن يعامل الشعب الروسي المسكين من أعلى":

لنفترض جدلاً أن من الصعب الإلمام بتاريخ الأربعة آلاف سنة لشعب مثل اليهود، ولكني منذ البداية على علم بشيء واحد، وهو أنه ليس ثمة في العالم[1] بأسره شعب تشكى من قدره في كل دقيقة، ومع كل خطوة، وكل كلمة، فيجعلك تبكي على تحقيره.. على آلامه.. على عذابه.. وكأن الذين يحكمون أوروبا ليسوا هم أنفسهم؟ وكأن الذين يسيطرون على البورصة ليسوا هم؟ وكذلك الأمر مع السياسة والشؤون الداخلية وأخلاقيات الدول الأوروبية[2] ".

ويمضي دوستويفسكي أبعد من ذلك، فيقلب الموضوع كله، ويعيده إلى أصله واقفاً على قدميه لا .. على رأسه، كما يفعل اليهود المتعصبون : "من وجهة نظري أن الفلاح الروسي، بل والإنسان الروسي البسيط على وجه العموم يحمل على عاتقه ثقلاً أكثر من اليهودي بكثير".

---

[1] – في ترجمة د. صباغ: "ربما لا يوجد في العالم"

[2] – يشير د. صباغ إلى أن هذا الفصل نشر في طبعة ١٨٩٥ تحت عنوان " مع وضد" بالروسية.

ثم يوضح ما يعنيه، وهو يخاطب صاحب الرسالة: "ألم يفكر يا ترى أنه عندما كان اليهودي يعتبر مشكلة اختيار مكان للإقامة مشكلته الأساسية، كان ثلاثة وعشرون مليوناً من الجماهير الروسية الكادحة تعاني من قوانين القنانة التي هي بالطبع أكثر قسوة بكثير من اختيار مكان الإقامة؟ وماذا أقول؟ هل أشفق اليهود على الروس في ذلك الوقت؟ لا أعتقد ذلك، ففي غرب أوكرانيا وجنوب روسيا[1] سيجيبونك بكثير من التفصيل المدهش إذا شئت: **لقد كان اليهود في ذلك الوقت يصرخون مطالبين بالحقوق التي لم يكن يملكها في ذلك الوقت حتى الشعب الروسي نفسه**".

وكانت قوانين القنانة السائدة في روسيا حتى عام ١٨٦١ تبيح لمالك الأرض أن يضرب الفلاح – القن، ويبيعه، ويدخل على زوجته في الليلة الأولى.

ويتساءل دوستويفسكي عما حدث بعد أن تحرر الشعب من القنانة "**من الذي انقض عليه ونهشه كالضحية؟ من الذي استغل جهله وعبطه وسخَّرهما لصالحه؟ من الذي بصق عليه بواسطة حرفة امتلاك الذهب**

---

[1] – " غرب أوكرانيا وجنوب روسيا " في ترجمة د. صباغ: "أطراف روسيا الغربية وجنوبها".

الأبدية التي اكتسبها على مدى قرون؟ وما الفرق بين اليهود الذين فعلوا كل هذا وبين ملاكي الأراضي من الإقطاعيين؟ "[1]

لقد كان الإقطاعيون اكثر رحمة بالفلاحين " لكي لا ينهكوا قواهم . أما اليهودي فلم يكن ليهمه أمر استنزاف القوى العاملة الروسية . ما يهمه هو أن يأخذ ماله وينصرف".

ويشير دوستويفسكي من جانب آخر إلى ما فعله اليهود في الولايات المتحدة، حين انقضوا في الولايات الجنوبية عل الملايين من جماهير الزنوج المحررة، وامتلكوها، ووقعت في قبضتهم بواسطة حرفتهم التاريخية الشهيرة: الذهب، مستفيدين من عدم خبرة الزنوج المستَغلين، ومحدودية تجربتهم وجهلهم.

ويعود دوستويفسكي من جديد إلى.مسألة "حرية اختيار مكان الإقامة" فيقول:" **ولا أعتقد أن الإنسان الروسي نفسه قد منح الحرية المطلقة في هذا الاختيار". " أما بالنسبة إلى اليهود فالجميع يلاحظون أن حقوقهم في اختيار مكان الإقامة قد اتسعت كثيراً في السنوات العشرين الأخيرة"، "وبرغم ذلك يستمرون في الشكوى من الكراهية والمضايقة".**

---

[1] – ترجم د. صباغ هذا المقطع كما يلي:" من كان أول المنقضين عليه – الشعب الروسي – كمن ينقض على فريسة؟ من في العالب استغل علله ومشاكله؟ من أحاطه بالأكاذيب وخدعه بحرفته الذهبية الأبدية؟ ومن حل في كل مكان، حيثما استطاع وأدرك محل الإقطاعيين الذين ألغى نظامهم".

إن دوستويفسكي ينتبه إلى عنصر في نفسية اليهودي لازمها ، ولم يفارقها عصوراً طويلة: الشكوى المستمرة من كراهية الآخرين واضطهادهم. وفي الآن ذاته فإن هذا اليهودي يمارس تجاه الآخرين كراهية مسبقة، وشعوراً بالتفوق والاستعلاء عليهم. يقول الكاتب الكبير:

" شاءت لي الظروف، هذا الزمن، أن أعيش مع الشعب بين جماهيره، في ثكنات الجيش، وداخل السجون والزنزانات، حيث كانت مجموعة من اليهود. حتى هنا – داخل السجون – لم يُحتقَر اليهود ولم يستَثْنوا . حتى حين كانوا يصلون –اليهود يصلون وهم يطلقون صراخاً حاداً مرتدين لباساً خاصاً – فلم يحدث أن رأى أحد في هذا غرابة، ولم يقم أحد بإزعاجهم في ممارسة طقوسهم الدينية، ولم يسخروا منهم".

ويؤكد دوستويفسكي أن الشعب الروسي لم يكره اليهود تلك الكراهية الدينية المسبقة القائمة على افتراض أن " يهوذا باع المسيح ". ولكن، كيف كان اليهود يعاملون الإنسان الروسي؟ يقول دوستويفسكي:

"لقد تحاشوه وحذروه على الدوام. يرفضون أن يشاركوه الطعام. ينظرون إليه من أعلى. وأين يحدث هذا؟ في السجون حيث تسود أنظمة صارمة". فماذا يفعل الروسي كرد فعل؟ " بدل أن ينتابه الغضب، يلجأ إلى هذا المنطق التبريري المتسامح: هذا بسبب ديانته. إن دينه يفرض عليه أن

يرفض مشاركتنا الطعام، أي ليس بسبب كونه حقوداً [١]. وعندما يعـي – أي الروسي – هذا السبب القدري [٢] فإنه يغفر لليهودي من كل قلبه".

[١] – في ترجمة د. صباغ: " أي لا لأنه شرير ".

[٢] – في ترجمة د. صباغ: "السبب السامي ".

دوستويفسكي يتنبأ بمطامع الصهيونية في فلسطين
- ٢ -

أيام دوستويفسكي، لم يكن قد ظهر بعد ما ندعوه الآن الحركة الصهيونية. ومن أجل ذلك فقد كان يمكن ان يخطئ المرء في حديثه عن اليهود، وهو يعني هذه الفئة منهم التي انبثقت منها الحركة الصهيونية في ما بعد. وبالطبع فإن الكاتب الروسي العظيم، لم يكن مخطئاً في حديثه عن المسألة اليهودية، قدر ما كان يفتقر إلى دقة التعبير، الأمر الذي نجده موفوراً بين أيدينا الآن.

وكان دوستويفسكي حتماً يشير إلى أضاليل الدعاية الصهيونية التي بدأت بالظهور بعد وفاته بقليل، ضمن التحديدات التاريخية المعروفة، إذ كتب يقول:

" انتبهوا إلى هذه الحقيقة: لكي ينعم الناس بالوجود على الأرض أربعين قرناً من الزمان أعني عبر كل المرحلة التاريخية للإنسانية تقريباً، بل

أكثر من ذلك: في اتحاد محكم التماسك، صلب في وحدته.. يفقد أرضه مرات عديدة، استقلاله السياسي، قوانينه، بل ديانته نفسها، أن يفقد ذلك كله، ويعود في كل مرة ليتحد، ليُبْعث من جديد في فكرته السابقة، ليعود بشكل آخر، ليَسُنَّ لنفسه القوانين، وربما الديانة، شعب عاش على هذا النحو، شعب قوي بصورة خارقة، ويملك هذه الطاقات، شعب كهذا لا مثيل له في العالم. شعب كهذا لم يكن ليستطيع أن يكون كذلك بدون Status in Statu [1] التي احتفظ بها باستمرار، وفي كل مكان في أثناء التشتت والتشرد مما تعرض له عبر آلاف السنين"[2].

إن دوستويفسكي هنا، لا يضع يده فحسب على العقدة التي تشكلت في نفس "اليهودي النموذجي" وهو في المفهوم المعاصر: اليهودي الصهيوني، وإنما يشير أيضاً إلى الفكرة الثابتة، ويسميها "الخالدة" التي نتجت عنها أسطورة الدم اليهودي وبالتالي:وَهْم التفوق اليهودي، أو الصهيوني، بلغة

---

[1] – لاتينية معناها: الوضع الثابت أو الخالد، والفكرة الخالدة أو الثابتة. وجاءت في ترجمة د. صباغ " الدولة داخل الدولة"

[2] – هذه ترجمة هذا المقطع كما وردت لدى د. صباغ :" هل تتصورون هذا الشعب الممتلئ بالحيوية، القوي النشيط بصورة غير عادية، والذي ليس له نظير في العالم، يضيِّع حدوده واستقلاله السياسي وقوانينه ، أكثر من مرة، وحتى دينه فقده. وفي كل مرة يعود فيتحد، ثم يبعث من جديد بالأفكار نفسها، وإن كان في صورة أخرى، فيضع لنفسه قوانين وديانة، ثم يعود فيضيع كل شيء. هذا الشعب لا يستطيع أن يحيا من دون "الدولة داخل الدولة" والتي حافظ عليها دائماً، في كل مكان خلال سنواته الألفين من أفظع المطاردات والتشتتات"

اليوم. فهو يتحدث عن العقدة بالمعنى البسايكولوجي العام، هذه العقدة التي يرى " ألفريد أدلر(*) " أنها هي المسؤولة والكامنة وراء ما يسمى "الشعور بالتفوق ". كل ما هنالك أن "أدلر" يتكلم على مستوى فردي، في حين أن دوستويفسكي. تكلم على مستوى جمعي.

ولكن إلى أين يمكن أن يفضي هذا الشعور بالتفوق؟

يقول دوستوفسكي: لم يحدث لأقوى وأعرق الحضارات في العالم، أن استطاعت الصمود لتحقيق نصف هذا الزمن من البقاء، دون أن تفقد سلطتها السياسية ودون أن يتحلل شكلها القَبَلي – نسبة إلى القبيلة –"

أليس هذا تلخيصاً رائعاً، لمجمل المسيرة الفكرية والسياسية للحركة الصهيونية منذ إنشائها حتى اليوم؟

أليست وراء كثير من عمليات الاضطهاد الجماعي لليهود.. كي تبقي الشعور "بالفكرة الخالدة" حياً متيقظاً متوتراً باستمرار في نفس اليهودي.. ؟

مهما يكن من أمر فإن دوستويفسكي يرى أن "الفكرة الخالدة أو الثابتة Status in Statu " تتمثّل في التالي:

(*) – طبيب نفسي نمساوي "١٨٧٠-١٩٣٧" كان من تلامذة فرويد ثم انشق في اتجاه آخر وأسس علم النفس الفردي.

١ – الانحياز على مستوى العقيدة الدينية، والتقوقع القومي، والإيمان بأن ثمة شخصية وطنية واحدة يجب أن تسود في العالم هي: اليهودي. وكل مَنْ عداه من البشر ينبغي إسقاطهم من الحساب نهائياً، كأنهم لم يكونوا.

ويورد دوستويفسكي بعد ذلك نصاً يضعه بين قوسين، مما يوحي بأنه استقاه من بعض النصوص الدينية اليهودية – التلمود أوبروتوكولات حكماء صهيون – :

"أخرج من نطاق خاصيات الشعوب وكوِّن كيانك المستقل، واعرف منذ تلك اللحظة نفسها أنك وحيد عند الله. أمّا الآخرون فاسحقهم وحوِّلهم عبيداً، أو الجأ إلى استغلالهم. آمن أنك ستنتصر على العالم بأسره. آمن بأن الجميع سيخضعون لسلطانك في النهاية. شنِّع بالجميع في صراحة [1]. لا تتصل بأحد من بيئتك. حتى .. عندما تفقد أرضك أو شخصيتك السياسية، حتى حين تتشرد على وجه الأرض كلها، بين الشعوب جميعها، مهما يكن من أمر، ثق بأنك موعود إلى الأبد، ثق بأن كل شيء سيُبْعث. وما لم يحدث ذلك: عش وشنِّع. اتحد واستغل . انتظر، انتظر".

٢ – يرفض دوستويفسكي أن يُرجع مسألة "الحفاظ على الذات" إلى المطاردات التي تعرض لها اليهود، ولا سيما الاضطهاد الديني في القرون الوسطى. يرفض أيضاً أن يردَّ ذلك إلى" عدم حصول اليهودي على حقوق

---

[1] – في ترجمة د. صباغ " تجنب الجميع في حسم ".

متساوية مع الأمة الأصلية " ويقول :" حتى لو كا ن اليهودي متساوياً في الحقوق، فإنه لن يتنازل عن "الفكرة الخالدة"[1] أبداً مهما يكن الثمن ".

يرى دوستويفسكي أن التقوقع على " الفكرة الخالدة " يخفي وراءه فكرة ديناميكية جذابة ومحركة باستمرار، شيئاً عميقاً ذا محتوى عالمي، وهو أمر مبيت لا تزال الإنسانية عاجزة عن أن تقول فيه كلمتها الحاسمة. أما وجود الطابع الديني هنا، كواقع، فمسألة لا ريب فيها.

ويستطرد الكاتب الروسي قائلاً:

" يستحيل تصور اليهودي في معزل عن "ربه" . بل .. أكثر من ذلك: لا أومن بوجود يهود مثقفين لا يؤمنون بهذا " الرب" كما يزعمون. إنهم جميعاً من طبقة واحدة، بلا أي استثناء [2] ".

.. وهنا ينتهي كاتب " ذكريات من بيت الموتى" إلى ملاحظة مذهلة قالها عام ١٨٧٧ – قبل ٢٠ سنة من مؤتمر "بال" – وجاء فيها:

" الله وحده يعلم ما سيعانيه العالم في المستقبل، بسبب هؤلاء المثقفين اليهود بالذات".

---

[1] – يعود د. صباغ إلى ترجمة مصطلح Status in Statu بكلمة " الغيتو أو الجيتو" وكان قد ترجمها في مرة سابقة "الدولة داخل الدولة ".

[2] – ترجم د. صباغ هذا المقطع كما يلي: " إنني ما زلت أكرر أنه من المستحيل تصور يهودي من دون إله. فضلاً عن أنني لا أثق حتى في المثقفين اليهود الملحدين. إنهم جميعاً ليسوا إلا جوهراً واحداً".

٤ – يؤمن اليهود جميعاً، بدءاً بأكثرهم فقراً، إلى أكثرهم ثراء، مروراً بالعلماء منهم والفلاسفة والحاخامات، بذلك اليوم الذي سيأتي فيه موسى ويجمعهم في أورشليم من جديد، ليحصد بسيفه رؤوس الشعوب الأخرى ليدعها تتدحرج تحت أقدامهم. ولهذا السبب بالذات نرى أن السواد الأعظم من اليهود يفضلون مهنة التجارة بالذهب، ومحاولة الحصول على أكبر قدر ممكن منه، حتى إذا ظهر موسى لن يكون هناك وجود لوطن جديد، ولن يضطروا للارتباط بأرض معينة يمتلكونها في ديار الغرباء. ينبغي فحسب امتلاك الثروة في شكل الذهب والجواهر القيمة الأخرى، وذلك ليكون حملها مريحاً:

عندما سيبزغ .. سيلمع ذلك الفجر،
فنحمل طبولنا ومزاميرنا،
وفضتنا وخيرنا ومقدساتنا،
على ظهورنا إلى بيتنا القديم ..
إلى فلسطين[١] ".

---

[١] – فيما يلي ترجمة هذا المقطع من كلام "دوستويفسكي" كما نقله إلى العربية د. صباغ:
بداية من أبسط "جيد" – أي: يهودي – حتى أرفع العلماء والفلاسفة والحاخامات، مازالوا يؤمنون أن المسيح المنتظر سيجمعهم ثانية في القدس، وسيلقي بسيفه جميع الشعوب تحت أقدامهم، الأمر الذي يجعل اليهود، أو في أبعد الأحوال: غالبيتهم العظمى، لا يفضلون إلا مهنة واحدة: تجارة الذهب وصناعته بكثرة، من أجل ألا

وهكذا سبق دوستويفسكي الكثيرين من الباحثين في القرن العشرين في وضع يده على هذا الملمح الخطير في نفسية اليهودي ، الذي يمنعه من الارتباط بالأرض والوطن، ويحول في الآن ذاته دون اشتغاله في الزراعة، وكل ما يمكن أن يشده إلى وطن أو تراب.

وينتهي صاحب "الجريمة والعقاب" إلى النتيجة:

إن سبب تعصب اليهود ليس الاضطهاد الواقع عليهم بالذات، بل حلم العودة الكاذب، المنبثق من وهم "الفكرة الخالدة"

وبكلمات دوستويفسكي:

" إذاً ليس الاضطهاد[1] هو السبب في هذا التماسك وإنما ثمة فكرة أخرى ".

يملكوا وطناً، وألا يكونوا مرتبطين بأرض غريبة. كل ما في الأمر أن يكون كل ما لديهم وكل ممتلكاقم بجرد ذهب ومجوهرات. وهذا كله لحين ظهور المسيح المنتظر حتى يسهل حمل ونقل كل شيء وقتئذ:

حينما يتلألأ شعاع الفجر

ويضطرم، وتعزف المزامير

والآلات النحاسية والدفوف

سنحمل الفضة والخير

والمقدسات إلى البيت القديم ،

إلى فلسطين.

[1] – يترجمها د. صباغ " لم تكن أبداً المطاردات وحدها ".

ويمضي مؤلف رواية " المغفل " فيشرح على نحو رائع منهج الحركة الصهيونية – قبل ولادتها الرسمية – فيقول:

"وبَدَلَ أن يقوم اليهودي برفع المستوى الثقافي وبعث الكفاءة الاقتصادية وغرس المعرفة في الشعب الأصلي، فإنه يفعل العكس. فحيثما حل اليهودي قام على الفور بإذلال الشعب وإفساده إلى أقصى حد. حيثما حلَّ، حلَّ الانحطاط بالإنسانية أكثر، وانحط مستوى الثقافة أكثر فأكثر، ليزداد الفقر المدقع اللاإنساني، في الانتشار أضعافاً مضاعفة.. واليأس في صحبته[1] "..

ويقوم دوستويفسكي بقفزة هامة حين يصل إلى الكلام على اليهودالذين يستغلون " القوانين المحلية " فيقول: " لقد واتتهم الفرصة هنا على الدوام لاستغلال الحقوق والقوانين، إذ استطاعوا باستمرار أن يخلقوا لأنفسهم صداقات مع أولئك الذين يخضع لهم الشعب ، كأنهم ليسوا هم الذين يتذمرون – هنا على الأقل – من "الحقوق المحدودة " بالمقارنة مع السكان الأصليين!

[1] – يترجم د . صباع هذا المقطع كما يلي: " فاليهودية تزدهر في تلك الأماكن التي يكون فيها الشعب جاهلاً فظاً أو غير حر، أو متخلفاً اقتصادياً. هناك فقط يصيرون سادة أو أحراراً، وتصير أمورهم على ما يرام. وبدلاً من أن يحدث العكس: بأن يرفعوا بنفوذهم مستوى التعليم، ويعملوا على زيادة المعرفة ، وتوليد القدرة الاقتصادية لدى السكان الأصليين، بدلاً من كل ذلك، نجد اليهودي أينما حل وأقام، أذل الشعب وأفسد فيه أكثر فأكثر، وازدادت البشرية ذلاً وخنوعاً، وتدنّى مستوى التعليم أكثر. بل وانتشر بشكل أفظع فقر محكم غير إنساني، ينمو معه اليأس ويترعرع."

لقد نالوا هذه الحقوق عندنا أكثر مما يجب، ليتسلطوا بها على السكان الأصليين بالذات[1] "..

ويربط دوستويفسكي ربطاً محكماً بين هذه الانتهازية السياسية اللاأخلاقية، وبين شعور اليهودي النموذجي بتفوقه وتميزه عن الأقليات الروسية الأخرى.. ويرى أن السبب "**يكمن حتماً في "الفكرة الخالدة" التي تتنفس القسوة والعنف وعدم الرحمة نحو كل من هو غير يهودي.. هذه الفكرة التي تطفح بنزعة الاحتقار إزاء أي شعب أو أي قبيلة.. بل أي كائن إنساني، طالما أنه غير يهودي**". ويرى دوستويفسكي من ناحية ثانية أن اليهودي النموذجي، بتكالبه على المال، وسعيه وراء مصلحته الخاصة، إنما يطبق فكرة " كل فرد لذاته ولذاته فحسب. كل تعامل مع الناس يجب أن يكون منصباً على مصلحته وحدها ". **ويؤكد دوستويفسكي أن هذه هي فكرة البرجوازية الأساسية: "البرجوازية التي استطاعت أن تكنس لحسابها النظام**

---

[1] - أوثر أن أنقل ترجمة هذا المقطع المستفيضة عن د. صباغ: وبالفعل فمجمل نشاط اليهود في جميع أرجاء بلادنا لا يتركز إلا في وضع السكان الأصليين قدر المستطاع في حالة تبعية مطلقة لهم، وذلك باستغلال القوانين المحلية، حيث تحايلوا على الدوام لإيجاد الثغرات في اللوائح والقوانين. وكانت لديهم القدرة دوماً على نسج العلاقات مع هؤلاء الذين بأيديهم مقدرات الشعب، حتى إنه لم يعد يحق لهم أن يتذمروا أو يهمهموا بأي شيء عن حقوقهم الأصلية بالمقارنة بالسكان الأصليين. لقد حصلوا لدينا على حقوق كثيرة إذا ما قورنت بما لدى السكان الأصليين.

العالمي السابق بأسره، بعد أن باتت تشكل المضمون الرئيسي لكل القـــرن الماضي على نطاق العالم الأوروبي كله".

وكمسيحي مؤمن تقي يرفض دوستويفسكي ذلك كله قائلاً: " وبرغم كل شيء، فإن المسيحية قد أدانت ذلك كله".

دوستويفسكي.. أخيراً

لا فرق بين يهود معدمين ويهود أثرياء

- ٣ -

إن دوستويفسكي، بذهنه المتوقد الصافي، بكل الزخم الفكري الأخاذ الذي يملكه، بكلّ الحدس العبقري الذي يتميز به.. يتنبأ هنا بما سيتمخض عنه المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد بعد عشرين سنة، من كتابته هذه الدراسة، من رأي حول إقامة " وطن قومي لليهود في فلسطين " بل . . إنه يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فهي ليست مجرد دولة.. بل إنها إمبراطورية.. هي التي تتطلع الحركة الصهيونية إلى إنشائها من الفرات إلى النيل. ويُصرُّ كاتب "الإخوة كارامازوف" على أن يحيط بالمسألة اليهودية من جوانبها المختلفة جميعاً فيقول:

"مناقشونا يحاولون تأكيد أن اليهود معدمون. في كل مكان معدمون. وفي روسيا بالذات. وأن العناصر الفوقية وحدها هي الثرية. أصحاب المصارف وملوك البورصة". ثم يتولى الرد على هذه الأطروحة:

"ولكن هذا لا يغير من الأمر شيئاً، ما دامت العناصر اليهودية الفوقية، مستمرة في سعي مسعور، يزداد قوة وصلابة كل يوم، ويهدف إلى إخضاع الإنسانية والسيادة عليها، في محاولة دؤوبة لإعطاء العالم الشكل والمحتوى اللذين يريدونهما له".

إنه لا يرفض إمكان وجود يهود جيدين " فاليهود لا يملون من الصراخ بان ثمة بينهم أيضاً أناساً طيبين. أوه. يا إلهي! من قال إن المشكلة تكمن في هذه النقطة!؟"

وها هو ذا يتقدم من أجل إزالة أي لبس ممكن حول أفكاره في هذا الموضوع.. " أنا أقول وأكتب دائماً أنه يجب أن نعمل من أجل اليهود بكل ما تمليه العدالة والنزعة الإنسانية والقانون المسيحي[1] ". ثم يمضي أبعد من ذلك فيقول:

" لقد سبق أن صرحت بهذا وأعيد فأضيف أنني برغم كل التصورات والحقائق التي عرضتها أجدني أقف نهائياً إلى جانب توسيع نطاق حقوق

---

[1] – ترجم د. صباغ هذه الكلمات كما يلي: إنني تحديداً أتحدث وأكتب أنه يجب العمل على منح اليهود كل ما تتطلبه الاعتبارات الإنسانية والعدالة وكل ما يستوجبه القانون الإنساني والمسيحي.

اليهود الكاملة[1] ". ثم إنه يفتح هذين القوسين.. " رغم أنهم في مناسبات أخرى يملكون حقوقاً أكبر، أو بعبارة أصح يملكون الإمكانات الحقيقية للاستفادة من هذه القوانين أكثر من السكان الأصليين..".

ويعود مرة ثانية إلى تأكيد مسألة حقوق اليهود الكاملة ، موضحاً الوجه الآخر للقضية، واضعاً يده على نقطة الضعف التي بلورتها الحركة الصهيونية في ما بعد، وراحت تنفذ من خلالها إلى قلوب البسطاء من اليهود. ذاك أن اليهودي النموذجي الذي كان اليهودي الصهيوني وريثه الحقيقي بعدئذ هو الذي يحول دون حصول اليهود على حقوقهم الكاملة:

"لا أرى أية موانع في توسيع نطاق الحقوق اليهودية مؤكداً في الوقت نفسه، أن هذه الموانع قائمة من جانب اليهود، أكثر منها من جانب الروس ، وإذا لم يتحقق ما يريده اليهود فإن ذنب الروسي في ذلك أقل بكثير من ذنب اليهودي نفسه.."

ثم ينهي دوستويفسكي دراسته التاريخية بهذه الكلمات:

" أنا أعرف أن ثمة أفراداً كثيرين من "الشعب" اليهودي، يتمتعون بروح إنساني، ويبحثون في تعطش لاستثنائهم من سوء الفهم هذا.. ولست أنا الذي يصمت من باب إخفاء الحقيقة[1] ".

---

[1] - يضيف د. صباغ : " في التشريعات الرسمية".

مرة أخرى يلح على وجوب إعطاء حقوقهم الكاملة كغيرهم من المواطنين تماماً " بل إن ثمة إمكانية من الجانب الروسي لمزيد من

* * *

لقد ناقش دوستويفسكي المسألة اليهودية من خلال ثقافة العصر التي انتهى إليها، والتجارب الحيوية التي عاشها، والذهن المبدع الذي يتحلّى به، والإحساس بمسؤوليته في هذا الموضوع، كمواطن أوّلاً، وككاتب طليعي واعٍ ثانياً.

قد يقول أحدهم إنه عالج المسألة من منظور مسيحي. حسناً. ما المانع. هذا ما يؤمن به الكاتب الكبير، غير أنه لم يخرج به قيد أنملة عن التعاليم الأساسية للسيد المسيح، القائمة أصلاً على المحبة والتسامح والسلام: " **إنني أقف إلى جانب المساواة الكاملة والنهائية في الحقوق، ما دام ذلك هو قانون المسيح.. مبدأ المسيح**".

وإنما تتجلى أهمية هذه الدراسة، لا من حيث أنها قدمت رأي الكاتب الروسي الكبير في المسألة اليهودية فحسب، وهو في ذاته أمر ذو بال.. بل

[1] – في ترجمة د. صباغ جاء النص كالتالي: إنني أعرف أنه من الممكن حالياً أن نجد بين الشعب اليهودي العديد من الأشخاص الباحثين عن مواضع الخلل، والمتعطشين لإزالتها والتخلص منها. كما أن بينهم أناساً يحبون البشر، ولن أصمت أبداً عن ترديد ذلك حتى لا أخفي الحقيقة.

من حيث أنها استطاعت أيضاً أن تسبق الحركة الصهيونية، فتحدد ملامحها الأساسية وأهدافها البعيدة، العدوانية، القائمة اصلاً على الأساطير الموهومة الكاذبة، والغطرسة الفارغة، والشعور المَرضيّ بالتفوق، والنزعة إلى كراهية الآخرين واحتقارهم.. والرغبة اللامتناهية في العنف والاغتصاب. **والأهم من هذا كله أن دوستويفسكي أراد في الوقت المناسب، أن يسمع العالم كله قرعه أجراس الإنذار من الخطر الصهيوني الداهم القائم، الذي كان يراه بكل وضوح وجلاء. ولولا أن الدوائر اليهودية الفوقية – الصهيونية في ما بعد – قد تلقفت هذه الدراسة، فأخفتها في الظلمات، وأبعدتها عن دوائر الضوء كلها.. معتمة عليها إلى أقصى درجة ممكنة، لكان لها شأن آخر.**

الباب الثالث

الماركسية واليهود.

الماركسية واليهود.

أ - الماركسية والمسألة اليهودية

ب - الماركسي. . هل يكون صهيونياً!

الماركسية والمسألة اليهودية

عَرَفَتْ دراسة كارل ماركس [1] عن اليهود والمسألة اليهودية أكثر من ترجمة، فقد نقلها عن الفرنسية أولاً – وهي في الأصل مكتوبة بالألمانية – الكاتب اللبناني محمد عيتاني، فظهرت في كتيب من القطع الوسط عنوانه: "المسألة اليهودية". ثم نقلها مرة أخرى عن الفرنسية الكاتب السوري الراحل الياس مرقص، في إطار كتاب له حول موضوع المسألة اليهودية، فجاءت تحت العنوان ذاته. وهذا ما ينتقده الكاتب الفلسطيني حمزة برقاوي إذ يرى أن العنوان في الأصل الألماني هو "حول المسألة اليهودية". وقد ورد ذلك في مقدمة الكتيب الذي نشرته دار الأهالي بدمشق عام ١٩٨٩ تحت عنوان "حول المسألة اليهودية". وجاء أيضاً قوله". . وعندما عهدت إلي دار الأهالي بمراجعة النص عن اللغة الألمانية ، واجهت نصاً معقداً شائكاً، فقمت بالاعتماد على ترجمة الأستاذ عيتاني كأساس، ومستأنساً بترجمة الأستاذ

[1] – KARL MARX فيلسوف اجتماعي ألماني، صاحب نظرية الاشتراكية العلمية. أهم مؤلفاته: رأس المال Das Kapital: "١٨٦٧ -١٨٩٥"

مرقص، ومعيداً الترجمة عن النص الألماني بصورة شبه حرفية تقريباً، محاولاً الابتعاد عن التصرف الذي كان يمكن أن يجعل النص أكثر سلاسة".. أما أنا فإني سأنظر في الكتيبين الأول والأخير، ولا سيما الأول الذي ترجمه الأستاذ عيتاني.

الكتيب في الأصل هو مناقشة دراستين حول المسألة اليهودية عام ١٨٤٣ وضعهما برونو باور Bruno Bauer . عنوان الأولى: المسألة اليهودية. أما الثانية فعنوانها: قدرة اليهود والمسيحيين المعاصرين على التحرر.

يقول ماركس: يطالب اليهود الألمان بالتحرر، فبأي تحرر يطالبون ؟ التحرر بوصفهم مواطنين ، أم التحرر السياسي؟ ! ثم ينقل إجابة برونو باور في مقالته "المسألة اليهودية" التي نشرت في "برونشفايغ "عام ١٨٤٣:" **في ألمانيا، ليس ثمة إنسان متحرر سياسياً. ونحن أنفسنا لسنا أحراراً. فكيف نستطيع تحريركم؟! وإنكم معشر اليهود، لأنانيون، حين تطالبون لأنفسكم بسبب من أنكم يهود، بانعتاق خاص، فعليكم أن تعملوا بوصفكم ألمانيين على الانعتاق السياسي لألمانيا، وبوصفكم بشراً، على الانعتاق البشري".**[1]

وفي الوقت الذي يلفت فيه باور النظر إلى أن "اليهودي يملك في ذاته امتياز كونه يهودياً، وأن له من حيث هو يهودي، حقوقاً ليست للمسيحيين" فإنه يضع يده على جانب آخر من "الأنانية" في نفسية اليهودي، هو هذا الذي

---

[1] – المسألة اليهودية – كارل ماركس – دار مكتبة الجيل – بيروت – بدون تاريخ – ترجمة: محمد عيتاني ص٥

يتناول المسألة القومية،" فاليهودي لا يستطيع من جهته أن يقف من الدولة إلا موقف اليهودي، يعني موقف الغريب، فهو يعارض القومية الحقيقية بقوميته الوهمية، والقانون الحقيقي بقانونه الخيالي. إنه يظن أن من حقه الانفصال عن سائر البشرية ، وهو لا يشارك مبدئياً في الحركة التاريخية. إنه يطمح إلى مستقبل ليس بينه وبين المستقبل العام للإنسان، أي سمة مشتركة. وهو يعتبر نفسه بمثابة عضو من الشعب اليهودي ، ويرى أن الشعب اليهودي هو الشعب المختار[1] ".-م .عيتاني.

وهكذا يضع ماركس أمامنا، منذ السطور الأولى، موقف اليهودي المتعصب والعنصري ، مؤكداً على عقدة اليهودي الذي لا يستطيع الانفصال عن يهوديته. ثم يتجاوز باور، ويذهب أبعد منه، إلى القول: " ونحن لا نقول إذاً مع باور ، أو: بوير – حسب الترجمة الفرنسية للاسم bauer – لليهود: إنكم لن تستطيعوا الانعتاق سياسياً، دون أن تتحرروا من اليهودية جذرياً، بل نقول لهم: إنما بسبب أنكم لا تستطيعون أن تتحرروا سياسياً دون أن تنفصلوا انفصالاً[2] كاملاً مطلقاً من اليهودية، يكون التحرر السياسي نفسه، ليس هو التحرر الإنساني ". – م.ع.

---

[1]– المصدر نفسه – ص٧

[2]– المصدر السابق – ص٣٦

على أن ماركس في معرض مناقشته "حقوق الإنسان" مع الإنسان الذي يستطيع "رغم كونه يهودياً أن يتحرر سياسياً، وينال حقوقاً وطنية" يقر رأي باور في أن "اليهودي الذي يقر بأنه مرغم بسبب جوهره الحقيقي على أن يعيش أبداً منفصلاً عن الآخرين" لا يصلح لتلقي حقوق الإنسان العامة ومنحها لسواه.

إن اليهودي بإصراره على عزلته والانفصال عن الآخرين، لا يستطيع أن يمتلك هذه الحقوق "**فإنه ما بقي يهودياً، فالجوهر المحدود الذي يجعل منه يهودياً، سوف يتغلب بالضرورة على الجوهر الإنساني الذي كان ينبغي أن يربطه، بوصفه إنساناً، بسائر الناس** ". ويستطرد ماركس ناقلاً عن باور: " وهو – أي جوهر اليهودي المحدود – يعزله عمن ليس يهودياً. وهو – اليهودي – يعلن بهذا الانفصال، أن الجوهر الخاص الذي يجعل منه يهودياً، هو جوهره الحقيقي الأسمى الذي ينبغي أن يمحي أمامه جوهر الإنسان [1]". – م.ع.

.. مهما يكن من أمر، فلنتساءل الآن: عمن هو اليهودي؟

يقول ماركس: " ولنفحص اليهودي الواقعي، وليس يهودي السبت، كما يفعل باور، بل اليهودي العادي [2]".

---

[1] – المصدر نفسه – ص ٣٨

[2] – المصدر نفسه – ص ٥٤

وهنا يطرح ماركس موضوعته الهامة: يجب ألا نبحث عن سر اليهودي في دينه. بل، فلنبحث عن سر الدين في اليهودي الواقعي. أي إنه يرى أن اليهودي سيظل موجوداً: "اليهودية الواقعية والعملية" ما بقيت "المتاجرة ". وحين يتحرر العالم من المتاجرة أي: اليهودية الواقعية، فإنه يحرر نفسه أيضاً. يقول ماركس:

" ما هو الأساس الدنيوي لليهودية؟ المصلحة العملية، والمنفعة الشخصية، إذاً، فالعهد الحاضر بتحرره من المتاجرة والمال، وبالتالي: من اليهودية الواقعية والعملية، إنما يحرر نفسه أيضاً"[1].

ويربط ماركس بين تطور التنظيم الاجتماعي ورقيّة – هو يعني طبعاً المجتمع الاشتراكي – وبين التحرر الحقيقي لليهودي من " اليهودية " أيضاً. ذاك أنه يرى أن " التنظيم الاجتماعي الذي يلغي الشروط الضرورية للمتاجرة، ويلغي بالتالي المتاجرة، سيجعل وجود اليهودي مستحيلاً. والضمير الديني لليهودي سوف يتلاشى مثل بخار تافه، في جو المجتمع الحقيقي[2]".

ويرى ماركس في اليهودية عنصراً معادياً للمجتمع، أدى دوره السيئ خلال التاريخ اليهودي، وهو يقول صراحة : " إذاً، فنحن نقر أن ثمة في اليهودية عنصراً عاماً وحالياً مناهضاً للمجتمع، وهو عنصر دفع، بالتطور

[1] – المصدر نفسه – ص ٥٤

[2] – المصدر السابق – ص٥٤

التاريخي الذي ساهم فيه اليهود من هذه الوجهة السيئة، مساهمة نشيطة، إلى نقطة الأوج في الحاضر، إلى ارتفاع لا يستطيع معه إلا الانحلال [1]".

م.ع

وفي الآن الذي يعود فيه ماركس إلى التأكيد من جديد بأن " التحرر اليهودي، في معناه الأخير، يقوم في تحرير الإنسانية من اليهودية " فإنه يشير إلى أن اليهودي، لم يستطع أن يفهم هذا التحرر – أو التحرير – إلا على طريقته.. الطريقة اليهودية. ويقدم مباشرة المثال التالي: "فاليهودي" مثلاً، الذي لا يحسب له حساب في " فيينا " هو الذي يقرر بقوته المالية، مصير المملكة كلها. إن اليهودي الذي قد يكون في أصغر الدول الألمانية – **هذا الكلام كان قبل توحيد ألمانيا** – محروماً من الحقوق، هو الذي يقرر مصير أوروبا[2]" – م.ع

لقد تحرر اليهودي إذاً.. ولكن على طريقته، أي أنه امتلك القدرة على استعباد الآخرين، وفي الوقت نفسه، فرض على الآخرين أسلوبه في التعامل وطريقته في التفكير، فاصبحوا هم أيضاً يهوداً، من حيث النتيجة "فاليهودي تحرر على الطريقة اليهودية، ليس فقط بأن أصبح سيد السوق المالية، وإنما لأن المال، أصبح بواسطته وبفضله،قوة عالمية. والروح

---

[1] – المصدر نفسه – ص ٥٥

[2] – المصدر نفسه – ص ٥٥

العملية لليهودية، أصبحت الروح العملية للشعوب المسيحية. لقد تحرر اليهود بالنسبة نفسها التي أصبح المسيحيون فيها يهوداً ".

وهكذا فإن هؤلاء، حين حذوا حذو اليهود في استعباد الآخرين بقوة المال، أمسوا يهوداً.. **" إن فلاناً الذي تراه على رأس رهبانية محترمة، بدأ حياته تاجراً، وحين أخفق في التجارة، أصبح كاهناً. وذلك الآخر، بدأ حياته في الكهنوت، ولكن منذ أن أصبح يملك مبلغاً معيناً من المال، ترك كرسي الوعظ، وانصرف إلى التجارة[1] ".م.ع**

ويرفض ماركس الأطروحة التي عرضها باور حين رأى أن اليهودي محروم نظرياً من الحقوق السياسية، فهو مادام يحتاز قوة رأس المال ، فإن السياسة – بما فيها حقوقه السياسية – هي تحت تصرفه تماماً، لأن " التناقض القائم بين قوة اليهودي السياسية الواقعية، وبين حقوقه السياسية، إنما هو التناقض القائم بين السياسة، وبين قوة المال. فالسياسة هي نظرياً فوق قوة المال، ولكنها عملياً أصبحت تابعة لها بصورة مطلقة [2]"ح.ب

وإذا كان أساس الدين اليهودي في ذاته، هو المنفعة العملية، الأنانية، فإن "المال هو إله إسرائيل المطماع. إن المال يخفض جميع آلهة البشر، ويحولها إلى سلعة. المال هو القيمة العامة، والمكّونة في ذاتها لجميع

---

[1] – المصدر السابق – ص ٥٧

[2] – كارل ماركس – حول المسألة اليهودية – ترجمة ومراجعة: حمزة برقاوي – دار الأهالي– ص ٥٨

الأشياء". "لقد أصبح إله اليهود إلهاً دنيوياً، وغدا إله الناس. السفتجة*، هذا هو الإله الحقيقي لليهودي، فإلهه ليس إلا سفتجة وهمية[1]"-م.ع.

.. في مثل هذا العالم تتحول الكائنات جميعاً إلى أشياء تشترى وتمتلك. و هنا يستشهد ماركس بقول توماس مونزر في " أنه أصبح لا يطاق كون كل مخلوق، قد تحول إلى ملكية: السمك في الماء، والطير في الهواء، والنبات على الغبراء[2] ".

إن هذه النظرة "الواقعية" اليهودية في جوهرها، إلى الكون والأشياء، تجعل الإنسان وأشياءه الجميلة مزدراة:" **إن ما يتضمنه الدين اليهودي في شكل مجرد: ازدراء النظرية والفن والتاريخ والإنسان المعتبر غاية في ذاته، إنما هو وجهة النظر الواقعية الواعية. فضيلة رجل المال. حتى العلاقات بين الرجل والمرأة تصبح موضوعاً للتجارة، فالمرأة تصبح سلعة يتاجرون بها [3]". -م.ع**

وينتهي ماركس من ذلك إلى تعرية أكذوبة القانون اليهودي، والتأكيد على خواء العقيدة والأخلاق اليهودية. فإن " قانون اليهودي الذي لا أساس له ولا أرضية، ليس إلا الصورة الكاريكاتورية الدينية للأخلاق والحقوق

* - السفتجة كلمة فارسية معناها سند تحويل بشيك مالي.

[1] - المسألة اليهودية - ترجمة: م. عيتاني - ص ٥٨

[2] و٣- المصدر السابق - ص ٥٩

التي لا أساس لها ولا أرضية . هي الطقوس الشكلية الصرف التي يحيط عالم الأنانية نفسه بها[1] –ح.ب

ويقدم كارل ماركس تفسيراً سابقاً للصهيونية المسيحية. بلى، لقد انبثقت المسيحية – تاريخياً – من اليهودية، لكنها عادت إليها. ويقول في هذا المجال:

" لا تبلغ اليهودية ذروتها إلا مع اكتمال المجتمع البورجوازي، ولكن المجتمع البورجوازي لا يبلغ اكتماله إلا في العالم المسيحي. ولم يكن المجتمع البورجوازي ليستطيع التوصل إلى الانفصال التام عن مجرى الدولة، وتمزيق جميع الروابط الاجتماعية للإنسان وإحلال الأنانية ، والحاجة إلى المنفعة الشخصية محلها، وتفكيك العالم البشري إلى عالم أفراد " ذرّات" يعادي بعضهم بعضاً.. لم يكن المجتمع البورجوازي ليستطيع ذلك إلا في ظل المسيحية التي تستبعد جميع علاقات الإنسان القومية والطبيعية والأخلاقية والنظرية: لقد انبثقت المسيحية من اليهودية، وانتهى بها الأمر إلى العودة إلى اليهودية. كان المسيحي، من حيث التعريف هو اليهودي الميال إلى المثالية. واليهودي هو بالتالي، المسيحي العملي، والمسيحي العملي، عاد من جديد فأصبح يهودياً[2] ".–م.ع

---

[1] – حول المسألة اليهودية – ح. برقاوي – ص ٥٧

[2] – المسألة اليهودية – م. عيتاني – ص ٦١

ومن خلال هذا الفهم للعلاقة بين المسيحية البورجوازية، وبين اليهودية العملية يضع ماركس يده، على تفسير آخر للصهيونية المسيحية – بالمعنى العملي البراغماتي هنا – واصلاً في الآن ذاته، إلى إحدى نظرياته التي أوضحها في "رأس المال " عنيت: الانخلاع، أو الانسحاق، أو الضياع، أو الاغتراب، أي أحد هذه المعاني المتعددة التي ترجمت إليها كلمة Alienation – بالألمانية VERAUSERUNG.

يقول ماركس: المسيحية هي الفكر السامي لليهودية. واليهودية هي التطبيق العادي للمسيحية. ولكن هذا التطبيق لم يكن يستطيع أن يصبح عاماً، إلا حين توصلت المسيحية، نظرياً على الأقل، من حيث هي دين كامل إلى أن تجعل الإنسان غريباً عن نفسه وعن الطبيعة ": Alienated

ثم يستطرد قائلاً:

"وعندئذ وحسب استطاعت اليهودية التوصل إلى السيطرة العامة، وإبعاد الإنسان والطبيعة إلى خارج ذاتيهما، وجعلت منهما شيئاً تجارياً خاضعاً للحاجة الأنانية والمتاجرة[1] ". – م.ع

يتجاوز الأمر إذاً ، موضوع " الانخلاع " – اغتراب الإنسان عن نفسه وعن الطبيعة، إلى وضع ليس أقل رداءة: تشييء الإنسان: جعله شيئاً تجارياً،

[1] – المصدر السابق – ص٦٢

خاضعاً لمختلف المقتضيات التجارية. هذا ما أفضت إليه اليهودية حين استطاعت التوصل إلى السيطرة العامة.

يستخدم ماركس وهو يقترب من ختام دراسته مصطلح "صلابة اليهودي". لعله يعني تقوقع اليهودي على ذاته وانغلاقه وتعصبه ضد الآخرين: " الغوييم ". إنه يرفض البحث عن سر هذه الصلابة في دينه. ينبغي البحث في " الأساس البشري" لدينه وهو الحاجة العملية، الأنانية، تماماً مثلما قال في مستهل هذا الفصل: " يجب ألا نبحث عن سر اليهودي في دينه، بل فلنبحث عن سر الدين في اليهودي الواقعي" . واليهودية الواقعية هي الحاجة العملية. المتاجرة. الأنانية.

أخيراً، فإن ماركس يذهب بعيداً في رؤيته جوهر اليهودي – الديني، وقد أصبح دنيوياً وانسحب على المجتمع البورجوازي. وهكذا فإننا "**لا نجد جوهر اليهودي المعاصر – إذاً – في التوراة والتلمود فحسب ، بل نجده في المجتمع الحالي.وليس هو جوهراً مجرداً، بل هو جوهر عملي مطلق. وليس هو بمثابة حدود اجتماعية لليهودي، وإنما بمثابة حدود يهودية للمجتمع**[1] " – م.ع. أي إن اليهودي استطاع " تهويد " المجتمع البورجوازي.

وما دام وجود اليهودي مرتبطاً بالجوهر العملي لليهودية: المتاجرة وشروطها، فإن نجاح المجتمع في إلغاء هذا الجوهر – يريد ماركس: سلطة

---

[1] – المصدر نفسه – ص٦٣

رأس المال – يعني بالتالي أن وجود اليهودي أصبح مستحيلاً، وبعبارة ماركس فإن "التحرر الاجتماعي لليهودي إنما هو تحرير المجتمع من اليهودية [1]".

[1] – المصدر السابق – ص٦٣

الماركسي.. هل يكون صهيونياً

بين الأعمال التي تركها الكاتب السوري الراحل نجاة قصاب حسن، كتاب أهداني نسخة منه عنوانه "من هو اليهودي" وقد كتب على غلاف هذا الكتاب الذي ترجمه عن الفرنسية أن مؤلفه هو اليهودي "الماركسي" اسحق دويتشر.

وكنت أعرف أن هذا الكاتب هو يهودي بولوني، كان عضواً في الحزب الشيوعي البولوني بين سنتي ١٩٢٧ و ١٩٣٢ ذاك أنه طرد من الحزب بعد خمس سنوات من انتسابه إليه.

وقد عرفت دويتشر في الأصل " ١٩٠٧- ١٩٦٧ " من خلال كتابه المشهور الذي ترجم إلى أكثر من اثنتي عشرة لغة بينها العربية بعنوان:"ستالين. سيرة سياسية ".

ويذكر الأستاذ قصاب حسن في المقدمة التي وضعها للكتاب أنه "مختارات مما كتبه دويتشر نشرتها بعد وفاته قريبة له هي تمارا دويتشر".

ويوضح أن ما دفعه إلى ترجمة هذا الكتاب أنه "يحمل وجهة نظر في القضية اليهودية، مهما يكن موقفنا منها فإنها جديرة بأن تقرأ " وذلك من أجل "إطلاع القارئ العربي على وجهة نظر في القضية اليهودية، كتبها يهودي معاصر، لا هو صهيوني، ولا هو نجا من الانحياز للحركة الصهيونية في بعض المواقف [١]".

وعلى الرغم من صعوبة التمييز عندي بين اليهودي المؤمن بالتوراة والتلمود، وبين الصهيوني، وعلى الرغم من قناعتي بان الشخص لا يمكن أن يكون صهيونياً في بعض المواقف ولا صهيونياً في مواقف أخرى، فهو صهيوني أو غير صهيوني فحسب، فإنني أود أن أتساءل من جانب آخر هل في المستطاع أن يكون المرء ماركسياً ويهودياً، وصهيونياً في بعض المواقف؟

ذاك هو مضمون السؤال الذي نهض في نفسي، وأنا أقلب صفحات هذا الكتاب.

لا بأس، على كل حال في أن ننظر قليلاً في طفولة دويتشر، في مقتطف آخر من مقدمة الكتاب، فهو "من الجيل المخضرم الذي عرف في صغره تربية دينية كانت تؤهله ليكون رجل دين، ربانياً "حاخاماً" للمؤمنين بالمذهب الحسّيدي من اليهود، ثم انتقل من هذا الموقف، إلى موقف ملحد

[١] – من هو اليهودي – دار العروبة للطباعة – بدون تاريخ – المقدمة – ص ٩

يستطيع الحديث عن اليهودية بأقل ما يمكن من التأثر بتقاليدهـا الراسـخة. وكان في حدوده ومقاييسه واحداً من أولئك اليهود اللايهود، الذين وصفهم هو نفسه، بأنهم وقفوا على مصلَّبة الحضارات والثقافات واللغـات والأديـان ، ونالوا شهرتهم لهذا السبب بالذات[1]". وهو يعني بـالطبع أمثـال سـبينوزا، وهايني وفرويد وتروتسكي وروزا لوكسمبورغ.

لننظر إذاً، في شأن هذا اليـهودي "الماركسـي" أولاً، واليـهودي – اللايهودي ثانياً، واليهودي المنحاز في بعض المواقف إلى جانب الصهيونيـة ثالثاً، واليهودي الواقف على مصلَّبة – أو: تقاطع– الحضـارات والثقافـات والأديان واللغات رابعاً.

لقد بدأ دويتشر فعاليته الثقافية بكتابة الشعر، كما تقول تمارا دويتشـر كاتبة سيرته. وكان في هذه الأشعار، يقدم في صياغة جميلـة موضوعـات مستعارة من تاريخ اليهود " وكان يمزج الرومانسية البولونيـة بـالفولكلور الشاعري اليهودي، ليقيم جسراً يصل بين الثقافة البولونية وبين ثقافة اليديش[2]" ثم هجر الشعر وانصرف إلى النقد الأدبي ودراسة الفلسفة والاقتصاد. وبعـد أربع سنوات من انتسابه للحزب الشيوعي البولوني عام ١٩٢٧، قام برحلـة

[1] – من هو اليهودي – المقدمة ص ١١

[2] – اليديش: هي لغة يهود شرق أوروبا خاصة. يتكلم بها أيضاً بعض يهود الولايات المتحدة الأمريكية، وبينهم ايزاك باشيفيز سنجر الذي نال جائزة نوبل عام ١٩٧٨. وهي خليط من العبرية والألمانية القديمة، وبعض المفردات السلافية، إضافة إلى مفردات محلّية أخرى.

كبيرة إلى الاتحاد السوفييتي، في الوقت الذي كانت فيه الدولة الوليدة تعاني من صعوبات كثيرة.. بعد الحرب الأهلية الضارية التي عاشتها.

في هذه الأثناء بدأ التعارض بين أفكار دويتشر وبين ما يقول به الشيوعيون في بلاده، وأدى ذلك إلى طرده من حزبهم عام ١٩٣٢.[١]

لا يرى دويتشر في حديثه عمن هو اليهودي شيئاً مشتركاً بينه وبين يهود الـ "مياشاريم" مثلاً، أو بينه وبين أي جماعة أخرى من القوميين الإسرائيليين، لكنه يتعاطف "مع اليسار الماركسي في إسرائيل". وفي الآن ذاته يرفض أن يكون "العِرْق" هو ما يصنع اليهودي، فما الذي يصنعه إذاً؟ يستطرد قائلاً:

"الدين؟ أنا ملحد. القومية اليهودية؟ أنا مؤمن بالأممية. ولذلك فأنا لست يهودياً في أي من المعنيين. ومع ذلك، فأنا يهودي بفعل تضامني غير المشروط مع الناس الذين يُطارَدون ويبادون. أنا يهودي لأنني أحس أن الفاجعة اليهودية هي فاجعتي الشخصية، لأنني أحسُّ تحت أصابعي نبض التاريخ اليهودي، لأنني أريد أن اصنع كل ما في وسعي لأوفر لليهود أماناً واحتراماً للذات أصيلين لا مزيَّفَين"[٢].

---

[١] – من هو اليهودي – ص ١٣

[٢] – المصدر السابق – ص ٨٢

هذا إذاً، هو اعتراف مبدئي، نلاحظه بادئ ذي بدء.. لدى دويتشـــر..

على أن دويتشر، في دفاعه عن اليهودي " اليهودي " يمضي أبعد من هــذا، فيدافع عن جريمة قتل يهودية بدافع ديني، تشبه تماماً الجريمة اليهودية التــي وقعت في دمشق، وكان ضحيتها الراهب المسيحي توما الكبوشي " لمزج دمه بخبز الفصح " عام ١٨٤٠

الجريمة التي يشير إليها دويتشر، وقعت عام ١٩١٢، ودارت حولــها في "كييف" بأوكرانيا محاكمة، عرفت الجريمة فيها باسم "بايليس " ويوضــح أن موضوعها كان جريمة قتل بدافع ديني " إنه يكتفي في تعليقه على هــذه الجريمة بكلمتي: "قيل" و "اتُّهِم": " قيل إن يهودياً هو بايليس اتهم بقتل طفــل مسيحي ليمزج دمه بخبز الفصح [1]".

ويمضي دويتشر وهو يصف المجرم بأنه ضحية قائلاً:" وانقض علــى الضحية رجال "المئة السود" وهم جماعات من الرجعيين والشاذين، وانقــض معهم الروم الأرثوذكس الذين أثارتهم القيصرية " ثم ينتهي إلى الحديث عــن "اللاسامية " في روسيا، مقارناً بينها وبين اللاسامية في أوروبا ، من خــلال مسألة اليهودي الفرنسي "دريفوس " الذي اتهم بالخيانة العظمى، والاتصــال بالعدو الألماني، وهو ضابط في الجيش الفرنسي عام ١٨٩٨.

[1] - المصدر نفسه – ص١٠١

ومع أن دويتشر يستطيع التمييز جيداً بين أوروبا والأمم الأوروبية وبين النظام النازي في ألمانيا، فإنه يحمّل أوروبا مسؤولية ما فعله هتلر باليهود – ساخراً من الأمم الأوروبية "المتمدنة" التي لم يخطر ببال "اليهود غير المؤمنين" أنها "يمكن أن تنحط في القرن العشرين إلى هاوية من البربرية، عميقة إلى حد يجعل كلمة التضامن الإنساني، ترن في الآذان اليهودية كشتيمة وسخرية [1]".

ويردد دويتشر الأكذوبة نفسها التي حوكم المفكر الفرنسي روجيه غارودي لأنه دحضها وفنّدها – عنيت أكذوبة "الملايين الستة" من يهود أوروبا الذين يقول دويتشر إنهم ذبحوا على يد النازيين . ولست أرمي بالطبع إلى نفي الوقائع التي قتل في اثنائها هؤلاء الناس، فأنا اريد أن أشير فحسب إلى المبالغة في تعداد الضحايا .. فهم في حدود مليوني إنسان، كما يقدر بعض مؤرخي اليهود أنفسهم، مما ذكره غارودي في دفوعه.

إن دويتشر في حماسته في الدفاع عن " اليهود " لا يتوقف عند شتم الأوروبيين الذين " لم يترك مصير اليهود الأوروبيين إلا القليل من الأثر[2]" عليهم، بل يعود إلى النغمة القديمة في حكاية اليهودي " فما هو فاجع أكثر من غيره في الوضع اليهودي هو أن الجماهير في أوروبا تعودت، نتيجة

---

[1] – المصدر السابق– ص ٦٤

[2] – المصدر نفسه – ص ٦٥

تطور تاريخي طويل ، على أن تنظر إلى اليهودي من جهة، وإلى التجارة والمضاربة والربا والربح من جهة أخرى، على أنهم شيء واحد "[1] . كان اليهودي في أوروبا خاصة توقف عن ممارسة حرفته التاريخية في التجارة والمضاربة والربا والربح!

وفي تضليل فكري واضح Demagogy يبرر أولاً انعزالية اليهود الأوروبيين الذين "بقوا كجماعة منفصلة ، أي كونهم يمثلون اقتصاداً تجارياً في وسط أناس يعيشون في نطاق اقتصاد طبيعي " ويأسف – نيابة عن اليهود – لأن " تكون الأمم الأوروبية وهي تتخذ موقفاً ضد الرأسمالية، لم تفعل ذلك إلا بصورة بالغة السطحية، خاصة في النصف الأول من هذا القرن[2]".

ويتابع هذا الخط التضليلي حين يرى أن الأمم الأوروبية – وليست طبقات معينة منها – " لم تهاجم ما يشكل نواة الرأسمالية، أي علاقات الإنتاج ونظام الملكية والعمل، وإنما هاجمت مظهرها الخارجي والعتيق جداً، وكان يهودياً في الواقع والغالب. ههنا عقدة الفاجعة اليهودية[3] ".

لقد لاحظ دويتشر نفسه تناقضه وذاته – فيما هو يحاول الفصل بين اليهود الرأسماليين، وبين نواة الرأسمالية، فإذا هو يعتمد التضليل من جديد،

---

[1] – هكذا وردت الكلمة. والصواب: على أنها – المصدر السابق– ص ٦٦

[2] – المصدر نفسه – ص ٦٧

[3] – المصدر نفسه – ص ٦٧

ويستعير من علم النفس مفهوم "العقدة" ليبرر به هذا التناقض: عقدة الفاجعة اليهودية.

ودون أي ترابط موضوعي بين ما تقدم، وبين النتيجة التي انتهى إليها، يقول: " كل هذا قاد اليهود إلى أن يروا في إيجاد دولتهم الخاصة بهم المخرج الوحيد المحتمل[1] "

إذاً، فإنه يدافع أيضاً عن قيام الكيان الصهيوني في فلسطين، دون أن يذكر كلمة واحدة "كماركسي .. على الأقل " عن الصهيونية وارتباطها بالرأسمال العالمي عامة، اليهودي – الصهيوني خاصة في الولايات المتحدة الأميركية وأوروبا.

وفي هذا السياق يندفع نحو الوقوع في تناقض آخر. إنه يشيد بالعدمية القومية " في عصر تصغِّر فيه الطاقة الذرية مقاييس العالم بصورة مستمرة، وبدأ العالم فيه رحلته بين الكواكب، ويكفي فيه دقيقة على الأكثر، بل بضع ثوانٍ على الأكثر، ليمر قمر صناعي فوق بلاد واسعة، أليس واضحاً أن التكنولوجيا في مثل هذا العصر تجعل وجود الدولة – الأمة مَضْحَكَة وشيئاً بالي الطراز، كما كان شأن الإمارات الصغيرة الأوروبية في القرون الوسطى في عهد الآلة البخارية " ويرى أن الدولة الناشئة – بعد تحررها من الاستعمار – تشكل "مرحلة" لا غنى عنها في تاريخ بعض الشعوب، ولكنها

[1] – المصدر السابق – ص ٦٨

مرحلة، وعلى هذه الشعوب أن تتجاوزها لتعطي لوجودها إطاراً أوسع. مع ذلك فإن شأن دولة إسرائيل مختلف في هذا المجال. لماذا؟

"لأن العالم أجبر اليهودي على اعتناق مبدأ الدولة – الأمة، وأن يجعلها أمله وفخره ، في الوقت عينه الذي لم يعد يجد فيه أبداً، أو تقريباً بذرة الأمل. وليس اليهود هم الذين يجب أن يلاموا على ذلك ، ولكن العالم هو الذي يجب أن يحمل الملامة"[1].

.. بماذا يختلف حديث اسحق دويتشر هذا، عما كان يقوله بن غوريون أو غولدا مئير أو مناحيم بيغن.. أو هرتزل نفسه؟

ويستشهد دويتشر بكلمة لا لبس فيها ولا غموض – ذكرها الفيلسوف اليهودي الهولاندي سبينوزا[2] إذ قال متحدثاً عن اليهود "إنهم قد استجروا كراهية العالم بأسره، بانفصالهم عن جميع الشعوب الأخرى".

ثم لا يجد حرجاً في العودة إلى التأكيد مرة أخرى أنه "لو لم تكن اللاسامية قد ظهرت راسخة الجذور، شديدة الاستمرار، عظيمة القوة في الحضارة المسيحية في أوروبا، لما كان اليهود قد ظلوا موجودين كجماعة متميزة، ولكانوا ذابوا في غيرهم تماماً".

---

[1] –المصدر السابق – ص ٦٩

[2] – باروح سبينوزا ١٦٣٢–١٦٧٧

إن أكثر من ثلاثة قرون تفصل بين ما قاله سبينوزا، مؤكداً مسـؤولية اليهود أنفسهم عن "انفصالهم عن جميع الشعوب الأخرى" وبين مـا يقولـه دويتشر عاكساً به الواقع تماماً.. فإذا كان في القرن السابع عشر "لاسـامية" ضد اليهود، فلماذا اعتبر سبينوزا[1] أنهم هم المسؤولون عن الانفصال إن لـم يكونوا هم بالفعل المسؤولين عن ذلك؟ وفي هذه الحال يبقى كـلام دويتشـر مغالطة .. ودون معنى.

ومع أن موقف كارل ماركس كان واضحاً من اليهود، وخاصـة فـي كتابه "المسألة اليهودية" إذ رأى دويتشر أن إله اليهودي الحقيقي هو المـال، فإن دويتشر – مادام يرى أنه ماركسي – لجأ إلى نوع من المداهنة والتضليل والتلاعب بالحقائق، أكثر منه تلاعباً بالكلمات، فهو يكتـب " أن مـا جعـل ماركس يقول إن إله اليهود الحقيقي هو المال ليـس روحـاً شـريرة مـن "المسحوماد"، فلا ينبغي أن نرى في هذه الجملة إدانة معنوية لليهودي، إنمـا هي تأكيد مؤسَّس على الوقائع، يتناول وظيفته الخاصة في المجتمع المسيحي. وكان ماركس يعلن بعد ذلك أن المجتمع المسيحي، بمقدار ما كـان يصبـح رأسمالياً أكثر فأكثر، فهو يصبح يهودياً أكثر فأكثر[2]".

---

[1] – المصدر نفسه – ص٧٧

[2] – المصدر السابق – ص٧٩

ألا يبدو التناقض بيّناً أكيداً في كلام دويتشر ؟ إن ماركس لم يربط بين اليهودي وبين عبادته المال فحسب، بل توقف ملياً عند مايمكن أن نسميه: مسألة الممارسة. وهذا ما عناه عندما قال "يجب ألا نبحث عن سر اليهودي في دينه، بل.. عن سر الدين في اليهودي الواقعي".

ويقدم دويتشر برهاناً مدهشاً، على احتفاظ اليهودي بيهوديته في مختلف الأحوال الفكرية التي يمكن أن يمر بها. حتى "الهرطيقي" اليهودي الذي يجدف، ويظهر أنه حاد عن سبيل الديانة اليهودية.. يظل يهودياً، فهو يقول:

"**إن الهرطيقي اليهودي الذي يجاوز اليهودية جزء من تقليد يهودي. يمكن إذا أردتم أن تعتبروا الـ "آخر "كنموذج لهؤلاء الثوريين الكبار في الفكر الحديث: سبينوزا وهايني وماركس وروزا لوكسمبورغ وتروتسكي وفرويد، ويمكن لمن يشاء أن يضع هؤلاء الآخرين في قلب تقليد يهودي**[1]".

وبعد أن يتساءل إن كان الأثر الذي تركوه في الفكر الإنساني بسبب "عبقريتهم اليهودية الخاصة"، ينفي اعتقاده "بذكاء ينفرد به عرق مهما كان" ثم يستطرد قائلاً:

"ومع ذلك فإنني أرى من بعض وجهات النظر أنهم كانوا بالفعل يهوداً جداً "

فما هو بعض وجهات النظر هذه؟

---

[1] – المصدر نفسه – ص ٤٩

يواصل دويتشر حديثه عن هؤلاء الرجال قائلاً: " لقد عاشوا على الحدود أو في الأحياء اليهودية "الغيتو" في قومية كل منهم. وكان كل واحد منهم، في الآن نفسه، ضمن محيطه، وخارجه، عضواً في وسطه، وغريباً عنه"[1].

ولست أدري تماماً، ما إذا كان حديثه هذا عن عقدة اغتراب اليهودي التاريخية ALIENATION ، قد جاء عفوياً أو مقصوداً. إلا أنه بعد سطور قليلة، يكرس واحداً من اولئك اليهود "غير اليهود" يهودياً خالصاً، هو سبينوزا كما جاء في شهادة مؤرخ انكليزي بروتستانتي كتب سيرة سبينوزا ، فقد قال: "لا يمكن إلا ليهودي أن يثير في فلسفة زمانه مثل هذه الزعزعة"[2]. إذاً، فإن عبقريته الفلسفية ترجع إلى كونه يهودياً قبل أي اعتبار آخر، كما يرى دويتشر.

وربما كان في حديثه عن الازدواجية الدينية التي عاشها أجداد سبينوزا، ما يساعدنا في إلقاء ضوء آخر على نفسية اليهودي. يقول دويتشر:

"كان أجداده – سبينوزا – قبل وصولهم إلى البلاد الواطئة، من "المرّان" وهم يهود متخفون، يهود القلب، ومسيحيون في الظاهر، كالكثير

[1] – المصدر السابق – ص ٥٠

[2] – المصدر نفسه – ص٥١

من أبناء دينهم الإسبانيين الذين فرض عهد التفتيش عليهم المعمودية. وما إن أقاموا في هولندا حتى عادوا إلى اليهودية[1] ".

ويستعرض دويتشر سمات عامة مشتركة بين أولئك المفكرين اليهود "غير اليهود" كإيمانهم بالحتمية فقد كانوا" جميعهم يؤكدون أن العالم تقوده قوانينه النابعة منه، ولم يكونوا يرون في الواقع مجرد تشابك من الحوادث، ولم يعتقدوا أن التاريخ تصنعه أهواء الحكام ونزواتهم " ففرويد على سبيل المثال يقول: "ليس هناك شيء عارض في أحلامنا وشطحات جنوننا"[2].الخ..

من هذه السمات أيضاً أن أولئك المفكرين كانت " طريقتهم في التفكير جدلية Dialectical" بدت لهم الحقيقة متحركة لا ساكنة[3] " وكانوا يؤمنون " أن المعرفة لكي تكون واقعية يجب أن تكون فعالة[4] " ومن هنا استنتج دويتشر قاسماً مشتركاً بين سبينوزا و ماركس، هو محصلة الأطروحة السابقة:

"كان سبينوزا هو الذي قال: أن تكون معناه أن تعمل، وان تعلم معناه أن تعمل، وليس هناك سوى خطوة واحدة بين هذا القول وجملة ماركس

---

[1] - المصدر نفسه – ص ٥١

[2] - المصدر نفسه – ص٦١

[3] - المصدر نفسه – ص ٦٢

[4] - المصدر السابق – ص ٦٣

التي تقول: حتى الآن فسّر الفلاسفة العالم. ومنذ الآن يتعين عليهم أن يغيروه"[1].

بعد كل هذا تلح على دويتشر عقدته اليهودية، وهي أشبه بداء "الجرب" الذي يدفع المصاب به إلى أن يحك جلده بين وقت وآخر، فإذا هو ينعى على أولئك المفكرين "اليهود غير المؤمنين" كما يصفهم تفاؤلهم الذي منعهم من تخيل ما تخبئه الأيام ليهود أوروبا، يقول دويتشر:

"كانوا متفائلين في جوهرهم. ولقد بلغ تفاؤلهم ذرى ليس من السهل علينا أن نرتقيها في الوقت الحاضر. فلم يكن يخطر لهم أن أوروبا "المتمدنة" يمكن أن تنحط في القرن العشرين إلى هاوية من البربرية عميقة إلى حد يجعل كلمة التضامن الإنساني ترن في الآذان اليهودية كشتيمة[2] "هايني وحده استطاع بحدس الشاعر – يقصد دويتشر الذهنية التنبئية اليهودية – أن يتنبأ بالكارثة " عندما حذر أوروبا من عودة قوة الآلهة الجرمانيين القدامى التي كانت تنبعث " وكانوا يضحكون مما يقول " عندما كان يصرّح مستنكراً أن مصير اليهودي المعاصر فوق كل تعبير، وفوق كل فهم[3] ".

---

[1] – المصدر السابق – ص ٦٣

[2] – المصدر نفسه – ص ٦٤

[3] – المصدر نفسه – ص٦٤

بلى.. إن دوتيشر الذي يزعم أنه ماركسي، لا يستطيع أن يميز بين السلطة الطبقية الحاكمة في ألمانيا النازية – وليست أوروبا كلها كما يزعم – وبين الجماهير الكادحة المذلة المهانة، المضطهدة، المسحوقة، والتي سحقتها النازية أيضاً، حين يتعلق الأمر باليهود.

وينتقل دويتشر إلى دفاع مباشر عن الصهيونية، مميطاً اللثام عن وجهه، يهودياً وصهيونياً في الآن ذاته. ففي حديثه عن الصهيونية بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ في روسيا يعترف بأن " الحركة الصهيونية كانت تدير ظهرها للثورة، أو تحاول في أحسن الأحوال أن تتجاهل الثورة . غير أنه لم يكن في هذا موضوعياً، ما يدين الصهيونية كمذهب خطر وضار. وكان القول بأن الصهيونية تهدد الثورة الروسية بالخطر، قولاً خاطئاً ومضحكاً، بالنظر إلى ما تتصف به جميع التنظيمات اليهودية في روسيا من عجز كامل[1] ".

لقد كتب دويتشر هذا الكلام قبل أكثر من ثلث قرن، من انهيار الدولة السوفييتيّة، فهل في الكرة الأرضية كلها، من يجادل اليوم في الدور الذي لعبته المعاول اليهودية والصهيونية في تحطيم وتدمير هذه الدولة؟!

ولم يهاجم دويتشر الستالينية لممارساتها القمعية في الاتحاد السوفييتي، بل لأنها لم تكن متعاطفة مع اليهود.. فهو يقول "وفي هذه الفترة بدأت في الاتحاد السوفييتي، في فترة إبعاد تروتسكي – اليهودي الآخر –

[1] – من هو اليهودي – ص ١١٤

عن الحزب والقيادة، تلميحات عن "الأخلاط مقطوعي الجذور. وكانت الازدواجية تتجلى في أن أحداً لم يلفظ أبداً كلمة "يهودي" ولكن الناس كانوا يفهمون تماماً، من هم هؤلاء: الأخلاط مقطوعو الجذور[1]".

.. مع ذلك فإنه اضطر إلى الاعتراف بالدور التخريبي الذي لعبه اليهود في الدولة الجديدة "ففي المدينة كانوا يُطارَدون على أنهم "أخلاط بلا جذور" يعارضون تقدم الاشتراكية في روسيا. وفي الريف كانوا محل بغضاء الفلاحين الذين يرون في اليهودي البلشفي كاغانوفيتش "المسؤول الرئيسي" الذي أدار حملة فرض المزارع الجماعية بالقوة[2].

.. ويستطرد إلى الحديث عن كراهية الروس اليهود العاملين في التجارة قائلاً : " فاليهود من صاحب الدكان الصغير، إلى المحتكر والمتعيّش، كانوا يطفون دائماً على أمواج التقلبات الكبرى. وكل منهم يجتذب إلى نفسه النفور العميق من جانب الأهلين الروس [3]".

ثم ما يلبث دويتشر أن يفسر أسباب نفور الأهلين الروس من اليهود، في الوقت الذي يريد فيه تبرير سلوكهم التجاري، وما فيه من جشع وتكالب على المال. ذاك أن اليهود الروس بادروا إلى الإسراع في الابتعاد عن المدن

---

[1] +٢ المصدر نفسه – ص ١١٥

[3] – المصدر نفسه – ص١١٥

الروسية متجهين نحو الشرق خلال الحرب العالمية الثانية. وهناك لم يمنعهم شيء من العودة إلى "أصولهم" في التجارة والاحتكار والابتزاز. يقول دويتشر:

"والمليونان والنصف من اليهود الذين رحلوا إلى كازاكستان وأوزبكستان وجمهوريات آسيا الوسطى وهم مفعمون رعباً، ويائسون، ارتموا في وسط لا يعرفونه. وبذلك وجدوا أنفسهم يُقتلعون من جذورهم مرة جديدة. وحين أجبروا – هم أجبروا أنفسهم – على أن يعيشوا في منطقة تسود فيها مجاعة وفقر لا يصدَّقان، عادوا فأظهروا كفاءتهم في السوق السوداء، وتحولوا إلى متعيشة"[1].

ويمعن دويتشر في تبرير سلوك هؤلاء اليهود اللا أخلاقي، في أثناء الأزمات الطاحنة التي عاشها الاتحاد السوفييتي، إبان الحرب العالمية الثانية، واستغلال احتيازهم القدرات المالية، للتلاعب بالمواد الغذائية الأساسية واحتكارها وبيعها بأسعار فاحشة، فيرى "أن من الظلم أن نلوم هؤلاء اللاجئين الذين لم يكونوا مزارعين ولا فلاحين، وبالتالي، فهم عاجزون عن أن ينتزعوا من الأرض أي شيء" ويضيف قائلاً: **"كانت عقلية التجار التي بقيت لديهم ولم تذهب بعد، قد مكنتهم من أن يخفوا " قليلاً "من الشاي**

[1] – المصدر السابق – ص ١١٧

والسكر وبضعة أكياس من البطاطا والقمح ليعودوا فيبيعونها من ثم بـأغلى الأسعار، بينما تموت من حولهم جموع الشغيلة من الروس جوعاً"[1].

.. إن اسحق دويتشر لم يخجل وهو يكتب في وصـف مـا احتكـره اليهود: "قليلاً" ذاك انه يعلم قبل سواه أن المليونين ونصف المليون من اليهود في جمهوريات آسيا الوسطى، – ومازالت بقاياهم حتى الآن هناك وقد رفعوا رؤوسهم بعد انهيار الاتحاد السوفييتي – لا يمكن أن يحتكروا.. إلا.. كثيراً.. كثيراً.. جداً.

وكأني به، بعد أن أخذته العزة بالإثم – يرتد – وقد لاحـظ تناقضـه الكبير مع نفسه، فيعترف بأن ذلك أدى " إلى إعطاء دفعـة جديـدة لموجـة اللاسامية ".

.. إن الأستاذ قصاب حسن، مترجم هذا الكتاب، لم يملك في نهاية هـذا الفصل سوى أن يعلق مدهوشاً مستغرباً، **من عقلية هـؤلاء اليـهود "التـي استمرت من عـام ١٩١٧ حتـى ١٩٤٢ دون أن يدخـل عليـها النظـام الاشتراكي أي تعديل ".**

في أحد فصول الكتاب يتساءل دويتشر "ما هو الإسرائيلي، ومـا هـو اليهودي[2]".

---

[1] – المصدر نفسه – ص ١١٨

[2] – الأصح: من هو الإسرائيلي، ومن هو اليهودي. لأن حرف الاستفهام "ما" هو لغير العاقل.

ونفاجأ – في الواقع: لا نفاجأ – بأنه يطرح وجهة النظر الصهيونية ذاتها في تبرير احتلال اليهود الصهاينة فلسطين واستيطانها . إنه يتحدث عن يهود الشتات "الدياسبورا" الذين هاجروا إلى فلسطين، وعن أولئك اليهود الذين خُلقوا فيها "الصابرا" فيجعلهما يلتقيان في نقطة واحدة: أنهم باتوا جميعاً إسرائيليين. وها هو ذا يتكلم في لهجة تذكرنا بما سبق أن تحدث به بن غوريون حين قال: إن الصهيوني هو اليهودي الذي يريد العودة إلى جبل صهيون. هو اليهودي الذي يحس انه إذا كان يعيش في أي بلد آخر غير إسرائيل فهو يعيش في منفى، وأنه آن الأوان لانتهاء عصر النفي والتشرد، ولابد من العودة إلى أرض إسرائيل. ثم ينتهي بن غوريون إلى القول: " إن ما ربط بين اليهود، وجعل تلك الصفات الأخرى ، كالدين والعنصر واللغة – صفات قابلة لأن تجمعهم من جديد، هو صفة أخرى أساسية، هي: رؤيا العودة. الإيمان بأن الخلاص هو في العودة إلى جبل صهيون، حيث أقام داود معبده الأول، أي إلى أرض إسرائيل[1].

ويقول دويتشر:" إن كثيرين من الصهيونيين يؤمنون بالكيبوتز هاغالوت، أي بعودة جميع اليهود العائشين في بلاد المهجر، فهم يرون أن كل يهودي يقيم خارج إسرائيل، هو بالضرورة شخص منفي . إن عليه التزامات حيال الدولة الجديدة، لأن واجبه الأسمى هو أن يصبح مواطناً

[1] – اسرائيليات وما بعد العدوان – أحمد بهاء الدين – دار الهلال – القاهرة– الطبعة الرابعة ١٩٦٩ – ص٦٠.

إسرائيلياً. وبالمقابل فإن الشباب الإسرائيليين، ولا سيما الـ "صابرا" الذين ولدوا ونشؤوا في البلاد، لا يحسّون بأنهم ينتمون إلى "اليهودية العالمية" وبالتالي فإنهم لا يرون أن "اليهودية العالمية" تنتمي إلى إسرائيل.بل يذهب بعضهم إلى حد التصريح بأنهم إسرائيليون وليسوا يهوداً[1]".

إذاً فإنه يشير صراحة دون مواربة إلى قومية جديدة ناشئة هي القومية الإسرائيلية، وهو يعلم قبل سواه – مادام قد عدَّ نفسه ماركسياً – أن للقومية نشأة تاريخية وشروطاً موضوعية لا تنطبق على هذه القومية التي يتكلم عنها.

وها هو ذا يعرض الفكرة نفسها، بعد سطور معدودة، رافعاً صوته أعلى وأقوى قائلاً: "في إسرائيل شَكَّل أقدم شعب في العالم أحدث دولة بين الدول القومية. وهو يرمي بكل حرارة عواطفه إلى استدراك الزمن الذي فات. وفي إسرائيل كان اليهود تقريباً يفكرون بأنهم من أجل الوصول إلى سعادتهم الفردية والجماعية المثلى، عليهم أن يبنوا درعاً متينة من الحماية الوطنية، مما يفرض عليهم واجب الخلاص من الهجرة والتشتت، ومن ذكرياتها وعاداتها وأذواقها، ومن روائح المنفى، آلاف سنين المنفى"[2].

---

[1] – من هو اليهودي – ص١٢٨

[2] – المرجع السابق – ص ١٣١

كان دويتشر يعرب عن عميق إعجابه " بـهؤلاء المزارعين الذين يقاتلون الصحراء ويجبرونها على أن تنتج كروماً وأشجار زيتون، وهؤلاء الجنود الذين يراقبون في برود العرب الموجودين على الطرف الآخر من الحدود " عندما التفت ليقول باسمهم: "ويسألون زائرهم: "أفلست تشعر بأن جذورنا نحن اليهود موجودة هنا؟"[1]

ويستطرد قائلاً: الجذور والناس الذين اقتلعوا من جذورهم، كلمات لا تفتأ تتكرر في المناقشات. فالناجي من معسكرات الاعتقال النازية، والذي تألّم من اللاسامية البولونية القديمة، أو تعرض لعسف الحرس الحديدي الروماني، يحس أخيراً أنه في بيته وفي مأمن، ويعبر عن رضاه، وعن ارتياحه وعن فخاره[2].

مهما يكن من أمر، فإن ماركسية اسحق دويتشر التي اتضح وتأكد أنها ليست سوى قشرة رقيقة، يمكن أن تزال بطرف ظفر طفل، ذكرتني بتلك السيدة التي التقيت بها عام ١٩٧٢، في مهرجان "كارلوفي فاري" السينمائي في تشيكوسلوفياكيا. مازلت أذكر اسمها: "أوليفافا" وكانت مسؤولة عن سينما العالم الثالث في المهرجان. استقبلتني في حفاوة وحرارة، والتقيت بها عدة مرات في مناسبات مختلفة ، فتجاذبنا أطراف الحديث في شؤون فكرية

[1] – المرجع نفسه – ص ١٢٩

[2] – المرجع نفسه – ص ١٢٩

وسياسية وفنية مختلفة. كانت وجهات نظرها في الأمور ، توحي بأنها تقدمية يسارية.. بل ماركسية. إلى أن أخذنا الحوار مأخذاً مختلفاً، فقد رسونا على شواطئ فلسطين والاحتلال الصهيوني وتشريد شعب بكامله لإحلال مهاجرين يهود، أتوا من مختلف أطراف الأرض، محل أهل البلاد الأصليين.

عندئذ أحسست أنني أمام امرأة أخرى غير التي عرفتها. امرأة اندفعت بكل عواطفها لتبرير الاحتلال والاستيطان و المذابح التي أقامها الصهاينة في فلسطين منذ عام ١٩٤٧. هنا عرفت جيداً من هي محدثتي، فقد خرجت اليهودية الصهيونية من جلدها، مثلما خرج اليهودي الصهيوني من إهاب.. دويتشر، فسقطت عنه مزاعمه الماركسية.

القسم الثاني

الباب الرابـــــع

من .. تاريخ اليهود

أ – فكرة شعب الله المختار.

ب – اليهود من السبي الأول إلى عصر الإسلام.

ج – من أخلاق اليهود.

فكـــرة شعـــب اللـــه المختـــار

من منظور يقترب كثيراً من "الفكرة الخالدة أبداً"[1] يتحدث بن غوريون عن شعب الله المختار في كتابه "الفكرة الصهيونية" فإن أول أمجاد اليـــهود "فكرة الشعب المختار ذي الرسالة العظيمة، والوضع الفذ بين الأمم " وهـــذا ما عبر عنه بمزيد من الوضوح والصراحة التي تبلغ حدود القحة "آشـــربن غنزبرغ"[2] وهو أحد واضعي الإيديولوجية الصهيونية، حين كتـــب باســـمه المستعار "آحاد ها عام" قائلاً " إنني أؤمن بتفوقنا الأخلاقي والعقلي، وأؤمن بأهليتنا لأن نكون نموذجاً لإنقاذ وخلاص الجنس البشري"[3].

ويقدم مؤسس رابطة الدفاع اليهودية، ألفاظاً تكاد تكون هي نفسها، وها هو ذا مئير كاهانا، الحاخام الشهير والإرهابي المعروف – القتيل- يقول."إن الشعب اليهودي، هو الشعب المختار، الأخلاقي الذي يجب ان يسود الشـــعوب

[1] – ورد الحديث عن "الفكرة الخالدة أبداً" في الفصول الخاصة بدوستويفسكي

[2] – أحد واضعي الأيديولوجية الصهيونية (١٨٦٥- ١٩٢٧)

[3] – أمجاد إسرائيل في أرض فلسطين – تأليف: الدكتور جورجي كنعان – دار الطليعة – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٧٨ – ص ٤٨

كافة، إننا لسنا مدينين بوجودنا لأحد، بل.. إن العالم مدين لنا بالكثير الذي لا يستطيع أن يفينا إياه[1]".

من أين جاءت فكرة "شعب الله المختار" وكيف توغلت في أعماق نفس اليهودي، وأمست جزءاً لا يتجزأ من عقيدته الدينية والدنيوية؟!

قبل تفصيل هذا الحديث، يهمنا أن نتوقف قليلاً لنشير مرة أخرى إلى أن ما يسمى "العهد القديم" وهو نفسه كتاب "التوراة" المتداول بين أيدي الناس، هو كتاب آخر غير الذي تنزل على سيدنا موسى عليه السلام.

وهناك إجماع بين المؤرخين المعاصرين على أن أحبار اليهود هم الذين كتبوا الأسفار الأولى من "التوراة" المزعوم في القرن الخامس قبل الميلاد تقريباً.

وقد كتبوه كما يروق لهم، وبالطريقة التي تعيننا على كشف نفوسهم وسبر أعماقهم، خلال المراحل التاريخية التي سبقت أو تلت.

ونحن إذ نورد أخبار النبي موسى عليه السلام والرسل الذين تعرض لهم "التوراة" المنحولة، فهذا لا يعني أننا نتبناها أو نؤمن أنها أفعال سيدنا موسى كليم الله، بل نحن نوردها، لتساعدنا في هذا الحديث عن نفسية اليهودي التي تسمح له حتى بالعبث بسيرة الأنبياء والمرسلين. ويظل هذا

---

[1] – المصدر السابق – ص ٤٩

الكتاب، غير الإلهي ، مكتوباً من وجهة نظر اليهود إلى الحياة والواقع والبشر.

إن معظم الباحثين في المسألتين اليهودية والصهيونية، يردون الفكرة إلى كتاب العهد القديم، وخاصة أسفاره الخمسة الأولى "**التكوين، الخروج، اللاويين، العدد، التثنية**" وربما كانت اليهودية هي الديانة الوحيدة التي تحدثت عن "إله" خاص، بجماعة مخصوصة فان "أهيه" كما يدعى أوّلاً في الإصحاح الثالث من سفر الخروج، و "يهوه" كما يسمى ثانياً في الموضع ذاته، هو إله بني إسرائيل. وإسرائيل هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم، وقد ورد ذكره في الإصحاح نفسه كما يلي:

"وقال الله أيضاً لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل، يهوه إله آبائكم، إله ابراهيم، وإله اسحق وإله يعقوب أرسلني إليكم"

ثم تتكرر هذه الصيغة الخاصة في أكثر من موضع من الإصحاح الثالث. إضافة إلى صيغ أخرى "فقال الرب إني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر". "فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر".

"ترى كيف فهم اليهودي، ابن "شعب الله المختار" ديانته، وفسر وصايا موسى العشر" ؟

يقول الدكتور جورجي كنعان في كتابه "أمجاد إسرائيل" في معرض كلامه عن التطبيقات العملية للوصايا العشر إن موسى أو يهوه الموسوي أو الكاتب الذي دوّن شريعة موسى، لم يكن يقصد بقوله "لا تقتل" النهي عن ارتكاب جريمة القتل بحق الناس، وإنما يهدف إلى نهي اليهودي.. عن قتل اليهودي فقط. أما أفراد بقية الشعوب، فهو يأمره بقتلهم وذبحهم، واستعباد من تبقى منهم إلى نهاية الدهر.[1]

ويمكن أن يقال الكلام نفسه حول الوصية الثانية "لا تسرق" والثالثة "لا تزن" فاليهودي، منهيٌّ عن سرقة اليهودي فحسب. أما مسألة الزنى.. فإن لها شأناً آخر.

وفي جميع الأحوال، فإن في التوراة تداخلاً مدهشاً بين مسألتي القتل والزنى. ولعلّنا قادرون على استنتاج الكثير، من العناصر التي تشكل نفسية اليهودي، عبر حقب التاريخ المختلفة، من قصتين اثنتين، تحفل أسفار التوراة الكثيرة بأمثالهما. يقدم الأولى منهما سفر العدد، ويحدثنا بالثانية سفر يشوع.

---

[1] - أمجاد إسرائيل في أرض فلسطين – ص ٦٩

القصة الأولى:

كان الجزء الجنوبي الشرقي، المطل على خليج العقبة، من شبه جزيرة سيناء يدعى "بلاد مديان" وقد لجأ إلى هناك موسى عليه السلام في مستهل حياته هارباً من مصر بعد أن قتل أحد المصريين وطمره في الرمل. والقصة واردة في القرآن الكريم[1]، وهناك تزوج من "صفورة" بنت "رعوئيل"[2] ثم حدث أن رجلاً من بني إسرائيل جاء وقدم إلى إخوته امرأة "مديانية" أمام عيني موسى وأعين كل جماعة بني إسرائيل، وهم باكون لدى باب خيمة الاجتماع. فلما رأى ذلك "فينحاس" الكاهن أخذ رمحاً بيده، ودخل وراء الرجل الإسرائيلي، إلى القبة وطعن كليهما: الرجل والمرأة[3].

إذاً فقد عوقب الزانيان، ويجب أن تتوقف الحادثة عند هذا الحد. ولكن ما حدث بعد ذلك.. كان مختلفاً.

حين جرت هذه الواقعة، كان موسى وقومه، قد بلغوا في ترحالهم "موآب" علىالبحر الميت. وكان موطن المرأة في "مديان" بعيداً عشرات

---

[1] - سورة القصص (١٥/٢٨)

[2] - سفر الخروج – الإصحاح الثاني

[3] - سفر العدد – الإصحاح ٦/٢٥

الكيلو مترات، ولكن التعليمات كانت واضحة أمام موسى "انتقم نقمة من المديانيين"[1].

وهكذا جرد موسى اثني عشر ألف مقاتل . اختار ألفاً من كل سبط من الأسباط الاثني عشر "فتجندوا على مديان كما أمر الرب، وقتلوا كل ذكر وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم"[2]

" وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم، وكل أملاكهم. واحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار . وأخذوا كل الغنيمة وكل النهب من الناس والبهائم، وأتوا إلى موسى والعازر الكاهن، وإلى جماعة بني إسرائيل، بالسبي والنهب والغنيمة، إلى المحلة إلى عربات "موآب" التي على أردن أريحا"[3].

غير أن هذا كله لم يعجب موسى وقال لهم موسى : هل أبقيتم كل أنثى حية[4] ثم إنه بأسلوب هذا الزمان استطرد قائلاً: فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت بمضاجعة ذكر اقتلوها[5].

---

[1] - سفر العدد ١/٣١

[2] سفر العدد ٨،٧/٣١

[3] - سفر العدد ٩/٣١ حتى ١٣

[4] - سفر العدد ١٥/٣١

[5] - سفر العدد ١٧/٣١

يعيد الدكتور كنعان إلى الذاكرة حكاية لجوء موسى إلى مديان، وإقامته في بيت "رعوئيل" الذي زوجه من ابنته، إلى حين عودته إلى مصر، ويقول: "وكانت مديان مدرسة فكرية لموسى، وربما أخذ منها فكرة الإيمان بإله واحد "إيل" واسم "رعوئيل" حمي موسى يشير إلى صفته الكهنوتية[1]"ويحدثنا مؤلف "أمجاد إسرائيل" أن رعوئيل رحب بموسى عندما قاد قومه في عملية الخروج المشهورة من مصر، وأسدى إليه نصائحه الثمينة وألقى عليه درساً في أصول القضاء شهد موسى نفسه بعظمته[2].

مع ذلك فإن موسى، قتل رعوئيل في من قتل من أهل مديان. لماذا؟ لأن امرأة مديانية، زنت مع رجل من بني إسرائيل. ولكن ماذا.. في شأن مديان التي آوته وأمنته.. وأبعدت عنه الشعور بالغربة والوحدة. أهذا جزاؤها؟.

القصة الثانية:

كان يشوع بن نون خليفة موسى، بطل القصة الثانية، وفيما كان يدبر خطة لغزو أريحا، عبر نهر الأردن، أرسل إليها جاسوسين " فذهبا ودخلا بيت امرأة زانية اسمها راحاب. واضطجعا هناك. فقيل لملك أريحا هوذا، قد

---

[1] - أمجاد إسرائيل ص ٧٠

[2] - سفر يشوع ١/٢ حتى ٥

دخل إلى هنا الليلة رجلان من بني إسرائيل لكي يتجسسا الأرض. فأرسل ملك أريحا إلى راحاب يقول: أخرجي الرجلين اللذين أتيا إليك ودخلا بيتك، لأنهما قد أتيا لكي يتجسسا الأرض كلها، فأخذت المرأة الرجلين وخبأتهما. وقالت نعم جاء إلي رجلان ولم أعلم من أين هما. وكان نحو انغلاق الباب في الظلام أنه خرج الرجلان. لست أعلم أين ذهب الرجلان " سفر يشوع الإصحاح الثاني ".

" ثم رجع الرجلان ونزلا عن الجبل، وعبرا وأتيا إلى يشوع بن نون وقصا عليه كل ما أصابهما[1]".

وفي موعد الغزو واقتحام أريحا " حرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، بحد السيف[2] وقال يشوع للرجلين اللذين تجسسا الأرض : ادخلا بيت المرأة الزانية، وأخرجا من هناك المرأة، وكل مالها، كما حلفتما لها. فدخل الغلامان الجاسوسان وأخرجا راحاب وأباها وأمها وإخوتها، وكل مالها، وأخرجا كل عشائرها ، وتركاهم خارج محلة إسرائيل، وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها"[3]

---

[1] - سفر يشوع ٢/٢٣

[2] - المقصود بالتحريم: القتل

[3] - سفر يشوع ٦/٢١ حتى ٢٤

.. نحن في القصة الأولى والثانية، إزاء زانيتين من طينة واحدة يجمعهما قاسم مشترك واحد، هو أنهما تعيشان من بيع جسدهما، فبإزاء وصية "لا تزن" كان ينبغي أن ينزل بالاثنتين عقاب واحد، فلماذا عوقب قوم الأولى جميعاً " أهل مديان" بجريرة امرأة واحدة، على الرغم من كل ما قدمته "مديان" وسيدها "رعوئيل" إلى موسى؟ في حين أن العقاب نزل بأهل أريحا جميعاً، واستثنى فقط الزانية "راحاب" وأهلها؟.

هل يمكن أن يكون هناك حكمان أخلاقيان ودينيان، يختلف كل منهما عن الآخر، إزاء الحادثة الواحدة؟.

تبدو واقعة الزنى ، حادثاً جانبياً للغاية، مقابل حوادث .. القتل الجماعية، وهي جميعاً، في مختلف الحالات التي وردت في التوراة، حوادث مجانية لا تستحق كل الدماء التي أريقت والنفوس التي أزهقت.

إن موسى نفسه – كما تزعم التوراة المنحولة – هزئ بوصيّة " لا تقتل" حين جرد اثني عشر ألف مقاتل من أجل إبادة أهل مديان كافة ، لمجرد أن امرأة واحدة منهم ارتكبت فعل الزنى. كما أن يشوع، خليفة موسى، هزئ هو الآخر بوصيّة "لا تزن" عندما استثنى الزانية "راحاب" وأسرتها من مدينة أريحا التي أبادها، عن بكرة أبيها.

فعل القتل والإبادة والتدمير، هو ألصق إذاً بنفس اليهودي وكذلك فعل الزنى.. وما أكثر الشواهد.

إن "رأوبين" بن يعقوب – وهو إسرائيل نفسه – " ذهب واضطجع مع "بلهة" زوجة أبيه"[1] .

وإن يهوذا بن يعقوب الآخر قد زنى بكنته. وكان أبناء "عالي" الكاهن يضاجعون النساء المجتمعات في باب خيمة الاجتماع[2].

كما أن "أمنون" بن داود اضطجع مع أخته "ثامار"[3] في حين أن ابنه الآخر "ابشالوم" نصب الخيمة على السطح ودخل إلى زوجات أبيه أمام جميع إسرائيل.[4] ويجدر بالذكر أن خيمة الاجتماع هي بيت الإله: يهوه.

القتل والزنى، عنصران جوهريان في نفسية اليهودي إذاً.. منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة.. كما تؤكد ذلك أسفار التوراة وأقاصيصه المختلفة.

ويمكن القول أن جذور السرقة والاحتيال والتلاعب، تمتد إلى الزمن نفسه، والفترة التي تحدثوا فيها عن وصية "لا تسرق".

---

[1] – سفر التكوين ٢٢/٣٥

[2] – سفر صموئيل الأول

[3] – سفر صموئيل الثاني – الإصحاح ١٣

[4] –سفر صموئيل الثاني – الإصحاح ٢٢/١٦

اليهود من السبي الأول .. إلى عصر الإسلام

كان ذلك قبل أربعة عشر قرناً، مع ظهور الإسلام والدعوة الإسلامية. وقد كان لابد أن يكون احتكاك بين الرسول العربي الكريم، ومعه المسلمون، وبين اليهود الذين تمركزوا على نحو رئيسي في المدينة المنورة "يثرب". وكان هؤلاء اليهود قد لجؤوا إلى هنا في القرن الأول الميلادي ، إثر الحرب التي شنها الرومان ضدهم، في فلسطين، وتدمير هيكل بيت المقدس. وقد سكنت يثرب عدة قبائل يهودية أشهرها: بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع[1].

إذاً فإنهم أتوا إلى أرض الحجاز، هاربين لاجئين، ليقيموا في بلاد ليست ديارهم، وليعيشوا بين أناس ليسوا منهم.. فما كادوا يستقرون، حتى بادروا إلى فعل ما يفعله اليهودي، في كل زمان ومكان: التقوقع والانغلاق على الذات، والابتعاد عن الآخرين وراء المنِع والحصون. وهكذا أقاموا في حصون في المدينة وخيبر وسواهما. وحين هاجر الرسول الكريم إلى المدينة

[1] - اليهود في القرآن: تأليف: عفيف عبد الفتاح طبارة – دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة التاسعة ١٩٨٢ ص ١٤

المنورة، التقى بهم وزارهم وطمأنهم. وكما يقول ابن هشام فإنه منع جميع المسلمين "من التجاوز والتطاول على من في يثرب من يهود[1]". وجعل لهم نصيباً من المغنم إذا هم قاتلوا مع المسلمين.

يقول عفيف عبد الفتاح طبارة : رأت اليهود أن الإسلام دين اعترف بأنبيائهم، وأنه دين توحيد، وأنه في بعض أحكامه قريب من أحكام ديانتهم، وأنه يناهض الأوثان، وقد تسامح معهم فأباح للمسلمين طعامهم وأجاز التزوج من بناتهم، كما تصرح بذلك الآية القرآنية:

"اليوم أحل لكم الطيبات، وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌ لكم، وطعامكم حل لهم، والمُحْصَنَات من المؤمنات، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم" . سورة المائدة – ٥ .

.. بل إن الرسول الكريم بذل لليهود من الود، ما هو فوق ذلك، فقد اتخذ بيت المقدس قبلة للصلاة، عقب الهجرة إلى المدينة، تأليفاً لقلوب اليهود. وفي الوقت نفسه، فإنه كما يروي البخاري في صحيحه أمر المسلمين أن يصوموا عاشوراء. وكان ذلك بعد هجرته إلى المدينة، وقد رأى اليهود يصومون عاشوراء، فسألهم عن ذلك فقالوا: هذا يوم نجَّى الله بني إسرائيل

[1] – المرجع السابق – ص ١٦ نقلاً عن ابن هشام

من عدوهم فصامه موسى، فقال الرسول: فأنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه. وكانت اليهود تعده عيداً .. وما تزال[1].

ذلك كان عهد الحسنى والود، بذله الرسول والمسلمون لليهود، منذ البداية، فماذا كان جزاء ذلك؟ كيف رد اليهود.. على المودة الطيبة والجوار الحسن؟

كان لابد أن تنشأ بين اليهود وأحبارهم ، وبين الرسول الكريم مناقشات دينية، نتيجة دعوتهم للدخول في الإسلام. وسوف نصرف النظر عن ولوج هذا الباب، على الرغم من أنه يظهر جانباً لصيقاً بنفسية اليهودي، عبر عصور التاريخ كلها، أعني المماحكة الذرائعية والغطرسة البغيضة. ولئن كان عدد قليل من اليهود، قد دخل الإسلام صادقاً، فإن أكثر اليهود رفضوا الدخول في الدين الجديد، وكانت محاجتهم الرسول، ذات طابع تعجيزي واضح، فقد طلبوا إليه، وهم من أهل الكتاب الموحّدين أن يجعلوا الله يكلمهم حتى يسمعوا كلامه: " وقال الذين لا يعلمون، لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم .. " سورة البقرة – ١٨

ربما كان من المفيد هنا، ونحن نتحدث عن نفسية اليهودي، أن نشير إلى أن اليهودية، هي الديانة الوحيدة التي لا تسمح بالتبشير والتوسع وزيادة عدد المؤمنين بها. ولا جدل في أن لذلك علاقة وثقى بما يؤمن اليهود به من

---

[1] – المرجع نفسه – ص ١٦

أنهم " شعب الله المختار" وأصحاب "أفكاره الخالدة أبداً" بما في ذلك كله من عنصرية وغطرسة وجمود و "دوغماتية".

وإذن، فقد ذهبت هدراً جميع جهود المسلمين من أجل تأليف قلوب اليهود والتحاور معهم. وكانوا على معرفة منذ بداية عهدهم مع المسلمين، بما يريدونه، وما ينوون أن يفعلوه: أن يراوغوا، ليبقوا على حالهم، مع محاولة الحصول على أكبر مقدار ممكن من المغانم والمكاسب. فإذا استطاعوا أن يلحقوا أذى مباشراً بالرسول الكريم وجماعته، لم يوفروا جهداً. وإذا استطاعوا أن يشعلوها حرباً مباشرة ضد المسلمين، بادروا إليها.

.. بعد سبعة عشر شهراً من إقامة الرسول في المدينة، أوحي إليه ان يُحوّل القبلة من القدس إلى مكة.. وعندئذ اغتاظ اليهود، وجاؤوا إلى الرسول يراوغون وكان فيهم "رفاعة بن قيس، وقردم ابن عمرو، وكعب بن الأشرف"[1] وقد عرضوا على الرسول، إن هو رجع إلى القبلة الأولى" أن يتّبعوه ويصدقوه". وكان بديهياً أن يعرض عنهم الرسول، وأنْ تبقى الكعبة في مكة.. قبلة المسلمين.

وتصاعد العداء بينهم وبين المسلمين، حين حل صوم رمضان محل صوم عاشوراء، وأُحِلّ أكل بعض المحرمات عند اليهود مثل لحوم الإبل[2].

---

[1] - المرجع السابق – ص ٢١

[2] - المرجع السابق – ص ٢٢

وبلغ غيظ اليهود أقصى درجاته عندما رأوا أهل يثرب، وقد أمسوا كتلة واحدة من حول الرسول.. فبدؤوا الحرب بأن امتنعوا "عن دفع ما يجب عليهم دفعه من ديون وبيوع وأمانات لمن اعتنق الإسلام ، مدعين أن ما كان لهم من حق إنما كان لهم قبل الإسلام، وأن دخولهم في هذا الدين قد أبطل حقهم فيه ".[1]

ألا يذكرنا هذا على نحو ما بموقف " شايلوك" من " أنطونيو" في مسرحية شكسبير الخالدة "تاجر البندقية" حين ألح في الحصول على رطل من لحمه، وقد تأخر في سداد دينه إلى هذا اليهودي؟

إن التشدد في الحصول على الحق، يشبه التشدد في إنكار الحق والامتناع عن أدائه. إنهما ينطلقان من النقطة ذاتها، في سويداء النفس، وهذا هو اليهودي بالذات: إما كل شيء تاماً كاملاً ناجزاً، وإما .. لا شيء على الإطلاق. إما السيادة والاستقواء إلى درجة اغتصاب حقوق الآخرين، وقتل الناس، وتدمير البلاد والمدن: تدمير "أريحا، شكيم، مديان" ... وإما الوقوع في براثن الذل والسبي، والانتهاء بالموت والطرد. اليهودي لا يعرف توسطاً: فإما أبيض وإما أسود.

لقد نزلوا بأرض كنعان، فماذا فعلوا بعد؟ وهل كان من حدود لطغيانهم، وقتلهم الأبرياء وإيذائهم الناس؟ أليس هذا هو أحد الأسرار الكبرى،

---

[1] - اليهود في القرآن – ص ٢٣

في مهاجمة "نبوخذ نصر" لهم في "أورشليم" أول مرة عام ٥٨٧ ق.م وهــذا هو ما عرف تاريخياً باسم " السبي الأول" كما أنهم اضطروه لأن يعود فيشن ضدهم حرباً كاسحةً ثانية بعد ستة أشهر عام ٥٨٦ ق.م وهـو مـا اشـتهر بالسبي الثاني الكبير.. ويومذاك سيقوا ألوفاً.. أسرى وسبايا، نحـو بـابل.. وعندما قدر لفلولهم أن يتجمعوا من جديد، في القرن الأول للميلاد، وما قبـل – وكان الإمبراطور الفارسي "أحشويرش" قد بدأ فعاونـهم علـى العـودة بتحريض من زوجته الثانية، وهي اليهودية استير.. إلى أرض كنعان– عادوا إلى إثارة الفتن والقلاقل.. حتى ضربهم القائد الروماني تيتوس سنة ٧٠ م.

وبعد سنوات قليلة، عاد القائد الروماني " ادريانوس" فخـاض حربـاً ضدهم وكان يقودهم ابن الكوكب " ويدعى بالعبرية: باركوخبا " لم تنتـه إلا بتدمير الهيكل نهائياً، وإصدار تشريعات رومانية تمنع اليـهود مـن سـكنى القدس "أورشليم" وتبدل اسمها إلى "ايليا كابيتولينا" .. وظل هذا هـو اسـمها حتى فتحها الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

إذاً فقد بدأ يهود المدينة حربهم المضادة المعاكسة على المسـلمين، بعد أن راعهم رؤية المسلمين يداً واحدة. لقد بدؤوها بواحـد مـن أقـوى الأسلحة التي احتازها اليهودي في التاريخ: المال. وفـي الآن ذاتـه أداروا رحاها، في ميدان هم دهاقنته وسادته: الفتنة. ولا بأس في إيـراد بعـض الأمثلة في هذا المجال:

يروي ابن هشام أن يهودياً اسمه "شاس بن قيس" مر على نفر من أصحاب الرسول، من الأوس والخزرج، في مجلس جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم واجتماعهم، بعد الذي كان بينهم من عداوة في الجاهلية. فقال: قد اجتمع ملأ بني الأوس والخزرج في هذه البلاد. لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع مَلَؤُهم بها من قرار.

ثم أمر هذا الدهقان اليهودي شاباً من قومه قائلاً: اجلس معهم، ثم اذكر يوم "بعاث"[١] وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من أشعار.

استطاع الشاب اليهودي أن يوقظ الفتنة فتكلم القوم عندئذ وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين: الأوس والخزرج، على الركب فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه، إن شئتم رددناها الآن جذعة[٢] فغضب الفريقان، وقالوا: قد فعلنا موعدكم الظاهرة[٣]. ثم نودي: السلاح .. السلاح.

---

[١] – بُعَاث: يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج. وقتل من الفريقين عدد كبير.

[٢] – جَذَعة: ردّ آخر الأمر إلى أوله. والمقصود: العودة إلى حروب الماضي.

[٣] – الظاهرة: مكان ذو حجارة سوداء.

وبلغ ذلك الرسول الكريم، فخرج إليهم في من معه من أصحابه المهاجرين وصالَحَ الحيَّيْن، فعرف القوم أنها نزعة من شيطان، وكيد من عدوهم فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً.[1]

وثمة واقعة مدهشة، توضح الغطرسة في نفسية اليهودي، وتكشف المدى الذي وصلت إليه نزعته المادية، وتؤكد في الآن ذاته، معرفة اليهودي بهويته الحقيقية ورأسماله الأول، كمراب، يشكل المال أهم الأشياء في حياته:

دخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوماً على اليهود "بيت المدراس" وهو البيت الذي يتدارسون فيه كتابهم. فوجد طائفة منهم اجتمعوا إلى رجل يدعى "فنحاص" وهو من علمائهم وأحبارهم. وكان ثمة حبر آخر اسمه "أشيع" وقد توجه أبو بكر نحو فنحاص يدعوه إلى الإسلام فكان هذا جوابه:

- والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير. وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغني. ولو كان عنا غنياً ما استَقْرضَنا أموالنا - كما يزعم صاحبكم - ينهاكم عن الربا ويعطيناه. ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا..فغضب أبو بكر، وضرب وجه فنحاص ضرباً

[1] - محمد واليهود- تأليف: محمد احمد برانق - محمد يوسف المحجوب - مؤسسة المطبوعات الحديثة - القاهرة - بلا تاريخ - ص ٦٤-٦٥

شديداً. وقال: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينكم، لضربت رأسك يا عدوّ الله![1]

وكانت هذه الغطرسة تظهر في أشكال أخرى، تحفل بالبذاءة والاستفزاز. من ذلك مثلاً ، هذه الواقعة.

فقد قامت امرأة من العرب إلى سوق بني قنيقاع وكانت معها بضاعة فباعتها، ثم جلست إلى صائغ منهم لتشتري حلياً. فجعل اليهود يرغمونها على أن تكشف وجهها فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت، وهي لا تدري انكشفت سوأتها فضحكوا منها ساخرين، فصاحت مستغيثة، فوثب رجل على الصائغ فقتله، وشد اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون ووقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.[2]

ويروي الطبري في تاريخه وابن سعد في طبقاته محاولة اغتيال اليهود للرسول الكريم، على الرغم مما كان بينه وبينهم من عهد وميثاق زمن الحادثة. وعلى الرغم من أن الرسول كان يسعى مسعى صلح وخير.

كان بين يهود بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف، وكان الرسول قد عقد جواراً للعامريَّين اللذين قتلهما خطأ عمرو بن أمية. ولهذا

---

[1] - المرجع نفسه – ص ٦٨

[2] -المرجع السابق – ص ١٠٠

ذهب الرسول إلى بني النضير يستعينهم في دية هذين القتيلين بحكم ما كان بينه وبين اليهود من ميثاق.

تظاهر اليهود بتلبية رغبة الرسول قائلين: نعم يا أبا القاسم. نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه.

ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه– والرسول قاعد إلى جنب جدار من بيوتهم – فهل من رجل منكم يعلو هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه! فتقدم لهذه الجريمة منهم عمرو بن جحاش بن كعب قائلاً: أنا .. لذلك.

وصعد ليلقي الصخرة على الرسول، وهو في نفر من أصحابه، فيهم علي وأبو بكر. وفي اللحظة الحاسمة تزحزح الرسول من موضعه وقفل راجعاً.. وأمر أصحابه بالتهيؤ لحرب بني النضير.[١]

وكان الرسول عقب وصوله إلى يثرب قد أمن اليهود على أموالهم وأنفسهم وتعاهد معهم كما يذكر ابن هشام في صحائف كتب لهم فيها العهد بالوفاء لما اشترط لهم ما داموا موفين بالعهد .. وبذل لهم من آيات الود والطمأنة مما سبق الحديث إليه في مستهل هذا الكلام.

---

[١] – المرجع نفسه – ص ٨١

مع ذلك فهاهم أولاء يحاولون اغتياله أولاً، وهاهي ذي زينب بنت الحارث تعيد المحاولة الخطرة مرة ثانية. إن الغدر والخيانة خاصة جوهرية مبثوثة في نفس اليهودي في كل زمان ومكان:

أهدت زينب بنت الحارث، زوجة سلام بن مشكم إلى الرسول شاةً مسمومة بعد أن سألت المسلمين في دهاء: أي عضو من الشاة أحبُّ إلى الرسول؟ فقيل لها: الذراع. فأكثرت فيه السم، بعد أن سممت سائر الشاة. ثم جاءت بها فلما وضعتها بين يدي الرسول تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء قد اخذ منها كما أخذ الرسول فأما بشر فأساغها، وأما الرسول فقد لفظها، ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم. فدعا بها فاعترفت.. فقال لها النبي:

- ما حملك على ذلك؟

... تعال انظر هذا الخبث وذلك الثعلب الماكر في جوابها. فقد قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك فقلت: إن كان ملكاً استرحنا منه وإن كان نبياً فسيخبره الله.

وتجاوز عنها الرسول، أما بشر فإنه مات من أكلته التي أكل.[1]

---

[1] - المرجع السابق — ص ١٣٦-١٣٧

مــن أخــلاق اليـــهود

يقدم الإصحاحان الثالث والثلاثون والرابـــع والثلاثــون مــن ســفر "التكوين" حادثة جرت في نابلس، أيام نزل فيها يعقوب بـــن اسـحق بــن ابراهيم وزوجاته الأربع، وأبناؤه منهن، وكان اسمها يومذاك "شكيم" "التــي في أرض كنعان" كما جاء في التوراة.

وقد حدث أن واحداً من أهل المدينة الأصلاء ومن أصحـــاب الأرض التي نزل فيها يعقوب وبنوه، هو شكيم بن حمور الحوي الكنعـــاني أحــب "دينة" ابنة يعقوب من امرأته "ليئة" واضطجع معها.

ولنقرأ القصة كما يرويها الإصحاح الرابع والثلاثـــون، مــن ســفر التكوين:

وتعلقت نفسه بدينة، وأحب الفتاة، ولاطفها. فكلم شكيم حمـــور أبـــاه، قائلاً: خذ لي هذه الصبية زوجة.. فخرج حمور أبو شكيم إلى يعقوب، ليتكلـم معه، وأتى بنو يعقوب من الحقل حين سمعوا. وغضب الرجـــال واغتـــاظوا جداً، لأنه صنع قباحة في اسرائيل، بمضاجعة ابنة يعقوب..

وتكلم حمور معهم قائلاً: شكيم ابني قد تعلقتْ نفسه بـــابنتكم. اعطـــوه إياها زوجة، وصاهرونا. تعطوننا بناتكم، وتأخذون لكم بناتنا. وتسكنون معنا. **وتكون الأرض قدامكم.** اسكنوا، واتجروا فيها، وتملكوا بها. **ثم قـــال شـــكيم لأبيها واخوتها: دعوني أجد نعمة في أعينكم. فالذي تقولون لـــي أعطـــي. كثِّروا علي جداً مهراً وعطية. فأعطي كما تقولون لي. وأعطونــــي الفتـــاة زوجة.** فأجاب بنو يعقوب شكيم وحمور أباه بمكر.. فقالوا لهما: لا نســـتطيع أن نعطي أختنا لرجل أغلف[1].. إن صرتم مثلنا بِخَتْنِكم كلّ ذكـــر، نعطيكـــم بناتنا، ونأخذ لنا بناتكم، ونصير شعباً واحداً..

فحسن كلامهم في عيني حمور.. ولم يتأخر الغلام أن يفعـــل الأمـــر. لأنه كان مسروراً بابنة يعقوب.. فأتى حمـــور وشـــكيم ابنـــه إلـــى بـــاب مدينتهما،وكلّما أهل مدينتهما، قائلين: هؤلاء القوم مسالمون لنا. فليســـكنوا في الأرض ويتجروا فيها. وهوذا، الأرض واسعة الطرفين أمامهم، نأخذ لنا بناتهم زوجات. ونعطيهم بناتنا.. لنصير شعباً واحداً، بِخَتْنِنا كلّ ذَكَر كما هم مختونون..

[1] – الأغلف: هو الذكر غير المختون.

قتل أهل شكيم قاطبة

فاختتن كل ذكر.. وحدث في اليوم الثالث، إذ كانوا متوجعين ، أنَّ ابني يعقوب: شمعون ولاوي، أخوَيْ دينة، أخذ كل واحد سيفه ، وأتيا على المدينة بأمن، وقتلا كل ذكر. وقتلا حمور وشكيم.. ثم أتى بنو يعقوب على القتلى، ونهبوا المدينة.. غنمهم وبقرهم وحميرهم، وكل ما في المدينة، وما في الحقل أخذوه. وسبوا ونهبوا كل ثروتهم، وكل أطفالهم ونسائهم. وكل ما في البيوت. فقال يعقوب لشمعون ولاوي: كدَّرْتُماني بتكريهكما إيّاي عند سكان الأرض، الكنعانيين والفرزيين. وأنا نفر قليل. فيجتمعون علي ويضربونني. فأبيد أنا وبيتي..

إذاً فإن جذور الأيديولوجية الصهيونية، ترتد بعيداً جداً، نحو أعماق القرون التي سبقت ميلاد السيد المسيح. وعبثاً يبحث الإنسان عن مناقبية أخلاقية يستطيع أن يتلمس آثارها أو يحدد لها مبتدأ وخبراً. ما يتضح الآن أنه مفيد هو الصواب والصح، فإذا عاد غير مفيد في الغد بات خطأً. والعكس صحيح.

يروي لنا الإصحاح السادس من إنجيل مرقس قصة قتل يوحنا المعمدان[1] وخلالها نضع يدنا، على كثير من العناصر اللاأخلاقية في هذه المناقبية المفقودة. لقد حدث أن فيليبس قد توفي، فقرر شقيقه الملك هيرودس أن يتزوج من امرأته "هيروديا " فقال له يوحنا المعمدان: لا يحل أن تكون لك امرأة أخيك. فحنقت عليه هيروديا وأرادت أن تقتله ولم تقدر، لأن هيرودس كان يهاب يوحنا، عالماً أنه رجل بار وقديس[2].

صالومي تطلب رأس يوحنا

ثم جاء يوم أراد فيه هيرودس أن يحتفل فيه بمولده، فأقام عشاء حضره عظماؤه وقواده، ثم .. دخلت ابنة هيروديا "صالومي" ورقصت، فسرّتْ هيرودس والمتكئين معه، فقال الملك للصبية: مهما أردت اطلبي مني أعطك، وأقسم لها أن: " مهما طلبت لأعطينك، حتى نصف مملكتي " فخرجت وقالت لأمها: ماذا أطلب؟ فقالت: رأس يوحنا المعمدان. فدخلت للوقت بسرعة إلى الملك وطلبت قائلة: أريد أن تعطيني حالاً رأس يوحنا المعمدان على طبق..

---

[1] – النبي يحيى عند المسلمين.

[2] – إنجيل مرقس – الإصحاح السادس – ١٩/ ٢٠

وأرسل الملك سيافاً، وأمر أن يؤتى برأسه، فمضى وقطع رأسه في السجن، وأتى برأسه على طبق، وأعطاه للصبية، والصبية أعطته لأمها.[1]

إن هيروديا لم تتردد في قتل يوحنا المعمدان، وهو الذي عمَّد السيد المسيح بيديه في مياه الأردن، لأنه أوضح أنَّ في زواجها من شقيق زوجها، مخالفة لتعاليم الدين – اليهودي – **فهل كان يعقوب بن اسحق بن ابراهيم أكثر أخلاقية، عندما سمح بإبادة أهل شكيم الذين أرادوا مصاهرته؟ وهل كان ذلك غضباً منه، لأن شكيم الحوي صنع قَباحة في إسرائيل بمضاجعة دينة ابنة يعقوب؟**

متى يكون الزنا.. ولا يكون

نحن هنا، إذاً، أمام مسألة تدخل في باب (الزنا) وقد ورد في وصايا موسى العشر "لا تزن ".

لقد كان زواج هيروديا من شقيق زوجها نوعاً من الزنا، منعت الشريعة اليهودية وقوعه. إلا أن ما حدث بين شكيم بن حمور الحوي وبين دينة ابنة يعقوب، مختلف جداً، فقد ورد في سفر التثنية من التوراة ذاتها ما يلي: " **إذا وجد رجل فتاة عذراء غير مخطوبة فأمسكها واضطجع معها،**

[1] – انجيل مرقس – الإصحاح السادس/ ٢١ حتى ٢٨

يعطي الرجل لوالد الفتاة التي اضطجع معها خمسين من الفضة، وتكون هي زوجة له "

وهذا ما حدث بالضبط، ولقد جاء حمور وابنه شكيم لخطوبة دينة مع التسهيلات المذكورة، والمهر المغري.. فلماذا غضب يعقوب وبنوه، وليس ثمة أية مخالفة لتعليمات الديانة، ولماذا، حدثت تلك المجزرة الرهيبة، في اليوم الثالث، من اختتان أهل شكيم جميعاً.

إلى درجة الإباحية

يورد الدكتور جورجي كنعان في كتابه " أمجاد إسرائيل" مجموعة من الأخبار والوقائع استقاها من أسفار التوراة ذاته تؤكد أن اليهود لم يصغوا مطلقاً في يوم من الأيام لوصية " لا تزن " ولم يهتموا اهتماماً حقيقياً بتنفيذ هذه الوصية . فإن " رأوبين " بن يعقوب نفسه ذهب واضطجع مع "بلهة" زوجة أبيه.[1] وإن ابنه الآخر يهوذا، الذي طبع أحفاده باسمه "يهود" قد زنى بكنته، كما يروي سفر التكوين. و "يفتاح" كان، كما يذكر سفر القضاة، ابن امرأة زانية، وقد قضى لإسرائيل ست سنوات، والقاضي عند اليهود، بمثابة الملك عند بقية الأمم؟!

[1] – كما ورد في مكان آخر من هذا الكتاب

.. يقف الباحث مذهولاً، أمام هذه المواقف اللامتناهية في انتهازيتها ولا أخلاقيتها.. وبين ذلك الموقف المختلف، القاسي والبربري، إزاء المجزرة التي أقامها أبناء يعقوب، لأهل شكيم، بعد أن نفذوا شرط الزواج في أن يختتنوا جميعاً، على أن تزفّ " دينة " بعد ذلك إلى " شكيم " بن حمور. فلماذا غضبوا كل ذلك الغضب، مع أن أية مخالفة لتعاليم الدين اليهودي لم تقع؟!

لماذا اشتعلت نفوس بني يعقوب بكل تلك الغيرة؟ " وأين كانت هذه الغيرة في قصة سارة[1] مع فرعون[2] ثم مع أبي مالك.[3] وقصة رفقة... مع أبي مالك نفسه أيضاً؟ " يقول الدكتور جورجي كنعان: " هناك، كانت المنفعة

---

[1] - "وحدث جوع في الأرض، فانحدر ابرام" ابراهيم" إلى مصر ليتغرّب هناك، لأن الجوع في الأرض كان شديداً — المقصود أرض كنعان: فلسطين — وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي — سارة — امرأته: إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذا رأى المصريون أنهم يقولون: هذه امرأته، فيقتلونني ويستبقونك. قولي: إنك أختي، ليكون لي خير بسببك، وتحيى نفسي من أجلك" سفر التكوين "الإصحاح الثاني عشر ١٠ حتى ١٣

[2] - حدث ما توقعه ابراهيم "فأخذت المرأة إلى بيت فرعون ، فصنع إلى ابرام خيراً بسببها. وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال" وحين علم فرعون أن المرأة زوجة ابراهيم عاتبه: لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟ لماذا قلت: هي أختي، حتى أخذتها لي لتكون زوجتي. والآن هي ذي امرأتك، خذها واذهب" سفر التكوين / الإصحاح الثاني عشر ١٥ حتى ١٩

[3] - تكررت قصة مشابهة بين ابراهيم وسارة وبين أبي مالك جرار الفلسطيني في جنوب سورية/ سفر التكوين — الإصحاح ٢٠.

منوطة بكبت عوامل المروءة والغيرة. أما هنا، فإن المنفعة منوطة بتحريك هذه العوامل والتذرع بها "[1].

الأخلاق عندهم هي المنفعة

.. لقد أخذت سارة إلى بيت فرعون، وصنع فرعون إلى " أبرام " – إبراهيم – خيراً بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال فكان هذا جزاء كبت عوامل المروءة والغيرة.

.. أما أبناء يعقوب في شكيم، بعد قيامهم بالمجزرة، فإنهم نهبوا أهل المدينة، غنمهم، وبقرهم وحميرهم وكل ما في المدينة، وما في الحقل أخذوه، وكل أطفالهم ونسائهم.. وكل ما في البيت.. ومن أجل هذه المنفعة تحركت عوامل الغيرة.

.. إذاً، فلا مبدأ أخلاقياً ثابتاً عندهم. الأخلاق هي المنفعة المباشرة وحسب.. وماعدا ذلك، فكل شيء مباح، والزنا نفسه، ليس أمراً واضحاً محدد المعالم، وإنما هو كذلك، حين يصطدم مع المبدأ الرئيسي في الحياة عند اليهودي: المنفعة.

[1] – أمجاد إسرائيل – ص ٥٨

الباب الخامس

قراءة في بروتوكولات حكماء صهيون

قراءة في بروتوكولات حكماء صهيون

أ - القبالا نقطة بيكار اليهودية العالمية.

ب - القبالا ظاهرها التصوف وباطنها القتل والتدمير.

ج- خرافات من التلمود.

قراءة في بروتوكولات حكماء صهيون
"القبالا" نقطة بيكار اليهودية العالمية

- ١ -

سمعت باسم " القبالة " أو " القبالا " للمرة الأولى في رسالة جامعية، أعدها في قسم الجغرافيا بجامعة دمشق السيد محمود ساطع، تحت عنوان "اليهود في جزيرة العرب قبل الإسلام وبعده، واليهود المعاصرون في سورية " وقد أشرف عليها الأستاذ الراحل الدكتور عمر الحكيم سنة ١٩٦٨ – ١٩٦٩ وهو يدعوها " الكابالا " ويشير إليها في معرض حديثه عن مزاولة اليهود للسحر " فالسحر من اختصاص اليهود، وهو يؤدي إلى التسلط على النساء، وبالتالي إلى إفسادهن وسلبهن أموالهن واستباحة أعراضهن".

ثم يستطرد السيد ساطع قائلاً: " وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن مزاولة السحر ترجع إلى تعاليم " الكابالا " السرية في التعاليم العبرية، في

أمور الخفاء ومدارك الغيب، فقد أسس علامة اليهود اسحق لوريا المدرسة الكابالية الحديثة في أمور الخفاء ومدارك الغيب، فقد أسس علامة اليهود اسحق لوريا المدرسة الكابالية الحديثة في إيطاليا في منتصف القرن السادس عشر، وصيغت تعاليمه في منهج عملي للاتصال بعالم الغيب وكتابة الطلاسم وشعوذة الأرقام والحروف. يقول فولتير الكاتب الفرنسي: " كان اليهود هم الذين يُلْتجأ إليهم في تأدية الشؤون السحرية، وهذا الوهم القديم يرجع إلى أسرار الكابالا التي يزعم اليهود وحدهم أنهم يملكون أسرارها [1]".

إلا أن الأستاذ عجاج نويهض في كتابه الضافي " بروتوكولات حكماء صهيون[2] " يولي اهتماماً كبيراً يلفت النظر لهذه المسألة، ويلقي عليها مزيداً من الأضواء فيما هو يتحدث عن الطرق اليهودية المختلفة. وهو يريد أن يحلها في محلها الصحيح، وسط تسلسل الأحداث والتجمعات اليهودية منذ أن كان سبي نبوخذ نصر، يوم أن حاصر القدس وطوقها بخندق، طوال سنتين، ثم دخل " نبوز رادان" قائد الحرس البابلي – الكلداني إلى القدس في ٧ تموز ٥٨٧ ق.م فأحرق الهيكل –هيكل يهوه– والقصر والمنازل وهدم الأسوار، وسبى سكان المدينة ما عدا بعض الكرّامين والفلاحين[3].. إلخ.

---

[1] – رسالة جامعية محمود ساطع – ص ٢٦

[2] – بروتوكولات حكماء صهيون: عجاج نويهض – دار طلاس دمشق – ١٩٨٤

[3] – ملكوت أرام: شوقي خير الله. مكتب الدراسات العلمية سن الفيل – ١٩٦٩

.. حتى ذلك التاريخ لم يكن لدى اليهود سوى بعض كتابات منســـــوبة إلى "أنبيائهم " وما ذكر عن صحف "الزبور". ولكنْ... فـــي بـــابل جمعــت أسفار التوراة التي لم تكن مجموعة من قبل ، وجمعت أيضاً الأخبار والتقاليد الشفوية.

وبعد أن دبر اليهود أمورهم في القصر الإمبراطوري الفارسي، فـــي عهد "أحشويروش"، عادوا إلى "أورشليم" القدس على دفعتين.. وفي هـــذه الأثناء "سيطرت على الجماعة هيئة عليا أو مجلس أعلى اسمه السنهدرين. والسنهدرين مستودع أسرار[1] ". وقبل مجيء المسيح بنحو قرن " كان الجـو قد تهيأ لدفق جديد، فظهرت طلائع ما عرف بعدئذ بالتلمود، وهو كما زعموا الشريعة الشفوية التي تركها موسى إلى جانب التوراة. ومن التلمود "القبالــة"، ومن القبالة.. حكماء صهيون[2] " وإذا كان ظاهر القضية اليهودية هو التــوراة فإن باطنها القبالة والتلمود.

ويقدم الأستاذ نويهض القبالة على النحو التالي:

القبالة أو القَبَلة أو القبالا أو القبّالا. وفي المعجم الإنكليزي – العربـــي: Cabala و Cabal و Cabbala

---

[1] – بروتوكولات حكماء صهيون – المجلد الثاني– ص ٦٨

[2] – بروتوكولات حكماء صهيون – المجلد الثاني– ص٦٨

واسم الفاعل Cabbaler ومصدرها الصناعي Cabbalism والنسبة إليها Cabalis و Cabalistic و Cabalistical : العصابة السرية. عدة أشخاص يحيكون مؤامرة لغاية خفية، ويستعملون من هذه فعلاً لازماً: تآمر في الخفاء. وهي لفظة عبرية قديمة لها في الوجود عند اليهود بمعناها السري نحو /١٩/ قرناً، وليس لها وجود في الكتب العربية على اختلافها، إلا ما قد يكون عرضاً. وعلى الجملة لا يعرفها العرب إلا سماعاً نادراً. ودلالاتها اليوم كما يلي:

١- هي بظاهر معناها عند اليهود " التصوف " اليهودي.

٢- أما في الحقيقة والواقع فهي لا تتخذ من التصوف إلا الستر لتغطية حقيقتها الرهيبة السرية.

٣ - هي أوغل منظمة خفية قديمة سوداء الزوايا، مقنعة عند حكماء صهيون فهي عشهم الأكبر وهم أبناؤها الفانون في سبيلها، فنقطة بيكار "اليهودية العالمية" هنا... في القبالا.

٤- لا يعرف لها مكان وهي ماشية مع الزمان و "الماسونية اليهودية العالمية" أداة من أدواتها و "حكماء صهيون" هم منفذو خططها إذ هي منهم وهم منها.

٥- يعثر القارئ للروايات الأوروبية عادة على اسم "القبالا" و "الكهال" في معرض المؤامرات عميقة الحبك، فيبتدئ بالغموض وينتهي بالغموض.

٦- للقبالا عند "حكماء صهيون" السلطة التي ليس فوقها سلطة، تتناول الإيعاز بالقتل والاغتيال والتدمير. ومسرحها الأكبر كان في روسيا القيصرية، ثم نجم قرنها في فلسطين بعد ١٩١٨ على يد الصهيونيين أتباع عقيدة "التجمع والاقتحام".

٧- كتّاب العرب ومؤرخوهم في العصر الحديث، لم نلاحظ أن أحداً منهم خاض في موضوع "القبالا" حتى إن المؤرخ الشهير المنقب جورجي زيدان، لم نلاحظ أنه أتى على ذكر شيء يتعلق بـ "القبالا" في كتبه، ولا سيما روايته " فتح الأندلس " حيث تكلم بإسهاب عن أعمال اليهود الخفية وأساليبهم السرية في أسبانيا، وتظاهرهم بالنصرانية[1].

٨- ويمكن الاستنتاج دون صعوبة أن " القبالا " قامت طوال قرون عديدة بالمهمة نفسها التي باتت تؤديها " الموساد " والمنظمات الأخرى المشابهة.. من قيام بأعمال القتل والاغتيال والتجسس والإخبار. ومن القبالا اليوم في القرن العشرين " تتألف الهيئة الخفية التي بيدها الأوامر والنواهي السرية والمعبر عنها باليهودية العالمية. والأمر السري بالقتل يصدر عنها . " و " على كل يهودي أن يبلغ هيئة القبالا عن أي شيء يضر باليهودية، فإن لم يفعل يُجازَ ويحاسب حساباً عسيراً"، والحساب العسير

[1] - المرجع السابق - المجلد الأول- ص ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦

المقصود هو القتل، وإن لم تصرح به مادة البروتوكول بهذا اللفظ[1] "والمقصود طبعاً هو البروتوكول السابع عشر ".

وكان "مردخاي" الحاخام الأكبر يقول لأستير[2]:

ما أنت هنا في القصر ملكة إلا لخدمة قومك اليهود. فإن لم تفعلي فستقتلين. ولا يعصمك من القتل كونك الملكة زوجة أحشويروش الممتد ملكه على ١٢٧ ولاية من الهند إلى الحبشة[3] .

"القبالا" إذن هي هيئة عليا، أعلى حتى من " الموساد " في العصر الحديث، فكأنها هي دماغ المنظمة أو مكتبها السياسي.

.. في البروتوكول السابع عشر نقرأ هذه المقتطفات:

.. ينبغي أن تستمر صحافتنا المعاصرة في شن حملات النقد اللاذع على الدول في أعمالها، وعلى الأديان، وعلى ما يتردى فيه "الغوييم"[4] من عجز وضعف.

وينبغي أن تكون لهجة الحملات بالغة حد العنف، خارجة عن آداب الخطاب، حتى تتواطأ الوسائل كلها في إضعاف الهيبة وتهشيمها.

---

[1] – المرجع نفسه – المجلد الثاني ص ٥١، ٥٢

[2] – استير: الغادة اليهودية التي مكنت لليهود في القصر الإمبراطوري الفارسي، بعد أن غدت زوجة الإمبراطور "احشويروش" إثر تخلصه من زوجته الفارسية "وشتي" وكبير وزرائه هامان.. نتيجة مكائد اليهود ودسائسهم.

[3] – المرجع نفسه المجلد الثاني ص ٥١، ٥٢

[4] – من هو غير يهودي.

.. ستكون مملكتنا دفاعاً عن ألوهية " فيشنو "[1] الذي فيه قد تجسمت صورة الألوهية. وسنقبض بالمئة يد ويد.. من أيدينا على كل زمام من أزمّة الحياة الاجتماعية، وسننفذ بأبصارنا إلى أن نرى كل الخفايا، بلا استعانة بالبوليس الرسمي.

.. وتقضي برامجنا بأن يعمل ثلث الشعب في التجسس على الثلثين الآخرين، ويكون التجسس منبعثاً عن الشعور بالواجب ، وعلى قاعدة التطوع بالخدمة في سبيل الدولة. ووقتئذ لا يكون من العار أن تكون جاسوساً أو مخبراً، بل يكون مزية وفضلاً، فإذا انطلقت ألسنة بالتعيير والقذف نالت جزاءها وحفظت للتجسس كرامته. وجاء في هذا البروتوكول أيضاً:

.. سننتقي جواسيسنا من مختلف الطبقات العليا والسفلى، ومن رجال الإدارات العاكفين على اللهو والأطايب، ومن محرري الصحف والكتاب والناشرين، وباعة الكتب وموظفي الدوائر والدواوين، ومن الذين كثر اختلاطهم بالجمهور عن طريق الأخذ والعطاء، والبيع والشراء، ومن العمال والسواقين والخدم والأتباع، وقس على هذا. وهؤلاء الأشخاص، ليس لهم حق اتخاذ أي إجراء يتعلق بموضوعات تقاريرهم، ولا صلاحية لهم في هذا على الإطلاق، كأنهم بوليس بلا سلطة. فإن المطلوب منهم هو أن يشاهدوا

---

[1] – هو الإله الثاني من ثلاثة آلهة تعبد في الهند: براهما الخالق. فيشنو الحافظ. شيفا المدمر لكن لفيشنوا أيدياً كثيرة.

بعيونهم ويسمعوا بآذانهم، وينظموا التقارير بما شاهدوا وسمعوا. أما التـــأكد من صحة ذلك وإلقاء القبض ، فكل هذا معهود فيه إلى نفر مسؤول حاذق من ضباط البوليس.

.. كل شخص رأى أو سمع مساساً بقضايا الحكومة ولا يبلغ الحكومة ذلك، يتهم بإخفاء المعلومات التي يجب عليه نقلها إلى الحكومـــة، ويحكـم عليه بالجزاء إذا ثبتت التهمة.

ويستطرد البروتوكول قائلاً:

كما تجري الأمور من هذه الناحية الإخبارية في بيئتنا اليـــوم، كذلــك تجري في المستقبل وتبقى على صفتها هذه. فإخواننا اليوم مكلفـــون تحــت طائلة أخذهم بالمسؤولية والحساب العسير في حالة الإهمال والتقصير، بـــأن يبلغوا هيئة " القبالا " عما يقع لهم أن يطلعوا عليه من حوادث الارتداد عــن الدين اليهودي من أبناء أقربائهم، أو ما يرونه من شغب على هيئة القبـالا أو قذفها بتهمة.

.. علينا الآن أن نسأل: بأي وسيلة استطعنا أن نكثر من خلق الأسباب المؤدية إلى الاختلال والانتقاص في حكومات الغوييم؟ من تلــــك الرســائل واحدة كانت الفعالة، وهي اتخاذ العملاء والجواسيس، فنأتي بهم بدعـــوى أن مهمتهم العمل على إعادة النظام، والحق إلى نصابه، وبفضل ما اخترنا لـــهم من مناصب مناسبة، يغتنمون الفرصة في بث أسباب الانتقاض وقدح الزناد،

ويمارسون في هذا أسوأ ما ركز فيه من خلق مخـــرب، وعنـــاد وغــرور، واستعمال السلطة بغير مسؤولية، وأشنع من هذا كله: استقتالهم فـــي حـب المال[1].

إذاً فإن مبادئ التدمير والتخريب والقتل والاغتيال والتجسس والحـرب النفسية والتضليل ونشر الشـــائعات .. الـــخ، هـــي المبـــادئ العامـــة فـــي البروتوكولات[2] . في حين أن " القبالا " هي الهيئة التنفيذية العليا.

---

[1] – بروتوكولات حكماء صهيون – المجلد الأول – ص٢٦٣ حتى ٢٦٦

[2] – عثر على البروتوكولات حين داهمت الشرطة القيصرية المؤتمر الصهيوني الأول في بازل بسويسرا في ١٨٩٧ مكتوبة بالعبرية وهي تنسب إلى " آشرغنـــزبرغ " المعروف باسمه السري: أحد هاعام، أحد الناس بالعبرية، ولنا عودة لهذا الموضوع.

قراءة في بروتوكولات حكماء صهيون
القبالا .. ظاهرها التصوف وباطنها القتل والتدمير
- ٢ -

باتت واضحة للغاية تلك الصلة الوثيقة بين "القبالا" أو " القبالة" وبين "التلمود" فهي نابعة منه، فكراً وعاطفة، وتالية له تاريخاً. " ومنذ زمن السبي فما بعد، إلى قبيل العهد المسيحي، وضعت كتب دينية عديدة، غير أنها لم تكن لتنتهي لمجموعة أسفار العهد القديم، وإنما اتخذت طريقها فيما بعد إلى التلمود، حتى تكوَّن – أي: التلمود من كل ذلك الشيء العجيب الغريب. وقالوا إن هذا هو شريعة موسى الشفوية، لقنها أخاه هارون، وهارون لقنها الكهنة [1]". ولكن ماذا عن شريعة موسى نفسها، بعد أن ظهر "التلمود" وأمسى يُنظر إليه على أنه ممثل الشريعة الشفويّة؟

---

[1] – بروتوكولات حكماء صهيون، عجاج نويهض دار طلاس المجلد ٢ ص ١٩

يقول الأستاذ عجاج نويهض: أصبحت – أي: شريعة موسى – أثراً مقدساً لا أكثر، وسارت الغرائب والخيال " القبالي –" نسبة إلى " القبالا " – بالتلمود إلى أقصى الحدود، فإنهم إذا كانوا أيام مؤرخهم " يوسيفوس"[1] لا يجرؤون على تغيير التوراة التي كانت بأيديهم إلا ما نالوه بالتحريف ففي التلمود وجدوا أوسع مجال وأخصب تربة[2].

وفي الوقت الذي يرى فيه أن لفظي "حكماء صهيون" و "السنهدرين" إنما هما مترادفتان لمعنى واحد، فإنه يؤكد على أن مجمع السنهدرين أو السنحدرين، هو ينبوع التلمود، والذي هو أصل القبالا.

فما هو أصل السنهدرين، هذه الكلمة ذات الأصل اليوناني، والتي تعني المقعد أو المجلس؟ إن الأستاذ نويهض يعتقد أنه ظهر في أثناء الحروب "المكابيّة " أو قبيلها، حين وجد اليهود أنفسهم بين شقي رحى: البطالسة في مصر، والسلوقيّين في سورية. ومن عادة اليهود " عندما تشتد بهم النكبات والجوائح وتعمل على محوهم واستئصالهم أنهم يجنحون بكل قواهم إلى الاعتضاد بروح الملاحم لتقوية الروح المعنوية في سوادهم ورجالهم، فتنبع عندهم الأساطير والغرائب وتحشى بالأقاصيص، ويخلقون لها الصور

---

[1] – يوسيفوس: أشهر مؤرخ يهودي في العصور القديمة، عاصر تخريب الرومان أورشليم " القدس " والهيكل ٧٠ م وهو يقول: " أسفار التوراة لم تتجاوز اثنين وعشرين سفراً". وفي أيامه بدئ بوضع التلمود.

[2] – بروتوكولات حكماء صهيون – المجلد ٢ – ص ٦٩

والأشباح. وبعد رجوعهم من السبي اشتدت فيهم هذه النزعة دوراً بعد دور، ولا سيما في أثناء الحروب المكابية. كما اشتدت أمورهم بين أن تدور على ظاهر وباطن، وباد وخفي، ومعلن ومستور لكي يتقوا عدوهم المحيط بهم. وعدوهم لا ينتهي، إذ هم بشكاستهم لا ينتهون ".[1]

وهذا السنهدرين أو المجمع الديني الأكبر لليهود هو الذي حاكم السيد المسيح، على النحو المذكور في الإنجيل والسياسة في باطنه تدب في أوكارها وأعشاشها دبّاً خفياً، واليوم هو نفسه لم يتغير منه شيء.

فأما الناحية الدينية فليس يهمنا هنا أمرها سوى كونها آلة السياسة. وأما الناحية الخطيرة فيه فهي الحقيقة السياسية: هو معقد الرابطة اليهودية في العالم أجمع. هو الرابط الخفي الذي يسيطر على البروتوكولات وتنفيذها. "السنهدرين" معناه اليوم، امتداداً من القرون الماضية ولا سيما القرن السابع عشر، عند الكتّاب والمعلقين السياسيين الباحثين في شؤون اليهود، الهيئة اليهودية السرية العليا، لا يُعلم أين مكانها، ولا من هم رجالها[2].

لقد اختلف الكتاب اليهود حول بداية ظهور "السنهدرين" فمنهم من يعيده إلى ما بعد العودة من السبي، ومنهم من يقول إن ذلك كان خلال زمان السبي. إلا أن الثابت أن نظامين اثنين وجدا بعد السبي، هما: مجمع

---

[1] - المرجع السابق ص ١٣٩

[2] - المرجع السابق نفسه ص ١٤٠

السنهدرين، ونظام الكنيس، والكنيس ظاهر بارز. " أما السنهدرين فيظهر ويتوارى، ويضعف ثم يقوى. ومن السنهدرين خرجت بذور التلمود، ثم "القبالة".[1]

وينقل الأستاذ نويهض عن هنري هالي تعريفه التالي للسنهدرين:

"هو الهيئة العليا المسيطرة على الشعب، ولا من ينازع هذه الهيئة. والسنهدرين كان في عصر السيد المسيح، وهو الهيئة اليهودية التي حاكمته وسلمته إلى "بيلاطس النبطي" طالبة صلبه.

ويظن أن أول ظهوره كان في القرن الثالث ق.م. وكان مؤلفاً من ٧٠ عضواً معظمهم من الكهنة وأعيان الصدوقيين، ومن بعض الفريسيّين والكتبة وشيوخ يمثلون جهة الأسباط. وكان الكاهن الأكبر يرأس السنهدرين. ثم اضمحل بخراب القدس سنة /٧٠/ م على يد تيطس الروماني ".

أما الكنيس، فهو يرى ان مترجمي التوراة اصطلحوا على ترجمة معبد اليهود واسمه الكنيس أو الكنيست بلفظة: المجمع. والكلمة الانكليزية هي: سيناغوغ Synagogue وأصلها يوناني. والبرلمان الإسرائيلي أو مجلس النواب عند يهود إسرائيل، يطلقون عليه: الكنيست وهو ينقل عن "هالي" في هذا الصدد أيضاً قوله: [2]

---

[1] – التوراة المختصرة: الطبعة العشرون ١٩٥٦ Bible handbook . henry h. h.hally

[2] – التوراة المختصرة : الطبعة العشرون ١٩٥٦ Bible handbook henry h.h.hally

" نبتت نبتة الكنيس في أيام السبي في بابل، إذ بعد أن أمسى الهيكل خراباً، والشعب مشتتاً، مسَّت الحاجة إلى أمكنة للعبادة وتلقي إرشادات الكهنة في كل بقعة حلّ فيها اليهود. وبعد العودة من السبي، ظلت المجامع تسير سيرها في الرقعة اليهودية في فلسطين، وفي أي مركز آخر احتشد فيه اليهود في الخارج، حيث كانت منهم جماعات بقيت هناك فلم تشأ أن تعود إلى فلسطين. وفي كل مدينة من المدن الكبرى كان لليهود مجمع أو مجمعان أو أكثر. وأما في القدس، فمع أن فيها الهيكل فقد أقيمت فيها عدة مجامع وكان يشرف على كل مجمع هيئة من الربيين أو الحكماء. وكان في حيازة كل واحد من هؤلاء، نسخ من كتب التوراة، وكانت تقرأ في الصلوات قراءات منتظمة على مسمع من جمهور المصلين".

أما التلمود فإن " هالي "يقرر أنه" مجموعة تقاليد يهودية سماعية تتعلق بالعهد القديم، وقد جمع هذا كله في صيغة كتابية في القرن الثاني الميلادي، ثم أضيفت إليه شروح وزيادات".

ويذكر مؤلف "بروتوكولات حكماء صهيون" أن كلمة "تلمود" ومعناها: التعليم – لم تقرر إلا بعد أن سبقتها كلمتان، كانتا الأساس لكلمة "تلمود" وهاتان الكلمتان هما "المشنا" و "الجمّارا" والمشنا هي الشريعة الشفوية المتوارثة عن "موسى" و "الجمارا" شرح للمشنا. ثم دمجت الكلمتان معاً في

كلمة واحدة " تلمود توراة " أي تعليم التوراة. وبعدئذ اكتفي بكلمة واحدة: تلمود.

يقول عجاج نويهض: إنك لتدهش حقاً إذ تعلم أن أساس المباحث في التلمود كله قائم على ستة أبواب فطرية، بدائية، تدل على مجتمع في أبسط أطواره الأولى، وهذه الأبواب هي:

(١) الفلاحة.(٢) الأعياد والمواسم.(٣) النساء وما يتعلق بهن من زواج وطلاق وحضانة ونذور وإرث ووصية.(٤) النواهي والعقوبات.(٥) الذبائح وما يتعلق بالتقدمات والقرابين ومراسم الهيكل في ذلك.(٦) الطهارة. ثم أخذت الفروع تمتد من هذه الأبواب الستة، وتزداد الآراء والشروح جيلاً فجيلاً حتى رست مواد التلمود في اثني عشر مجلداً ضخماً وهذه الأبواب فرعت على ٦٧ مبحثاً في ٥٢٤ فصلاً أو حكماً [١]".

وكل هذا العمل من وضع " المشنا" و "الجمارا" مما تمّ في فلسطين والعراق، كان منه بالتالي تلمودان: الفلسطيني، واليهود يسمّونه "الأورشليمي"، والعراقي ويدعونه " البابلي "، والمعتمد اليوم عند اليهود بالأكثر هو العراقي، وذلك بسبب لغته في الدرجة الأولى.[٢]

---

[١] - بروتوكولات حكماء صهيون – المجلد ٢ ص ١٥٣، ١٥٤

[٢] - بروتوكولات حكماء صهيون – المجلد ٢ ص ١٥٤

ثم ماذا؟ لقد ظل السنهدرين " ينتقل من مكان إلى مكان، فبعد خراب القدس سنة ٧٠م انتقل إلى بلدة "يبنا " قرب يافا، ومن " يبنا " إلى طبريا، وفي طبريا بدأ الحكماء يضعون أساس التلمود، زاعمين أنه هو شريعة موسى الشفوية، والشريعة الشفوية هي في القوة كالشريعة المكتوبة.

ذكرنا قصة التلمود، فلما ظهرت القبالا، أعطتنا موجة جديدة رهيبة من موجات الروح اليهودية الخفية. وبقيت " القبالا " إلى اليوم، قائمة مستترة محجوبة، هي المنظمات التي يعيش في بيئاتها حكماء صهيون".[1]

ويلقي الأستاذ نويهض أضواء وهاجة على شخصية منافق يهودي، التبس بالتاريخ العربي في الأندلس والمغرب ومصر وفلسطين هو موسى بن ميمون، فيكشفه قبالياً تلمودياً أدى دوراً لا يستهان به في اختصار التلمود وشرح التلمود وشرح المشنا شرحاً تلمودياً. " وعدَّ اختصار موسى بن ميمون هذا آخر ما صنع في سبيل التلمود ".

وقد وضع ابن ميمون اختصاره وشروحه بالعربية لفظاً وتعبيراً وباللغة الدارجة في مصر، وجعل الكتابة بالحرف العبري. وعلى هذا جرى أيضاً في كتابه المشهور "دلالة الحائرين" فهو بالعربية أما الحروف فعبرية.

[1] - المرجع نفسه ١٩٢

وقد فعل ذلك "لكي يخفي عن المسلمين الذين يقيم في كنفهم وحمى سلطانهم، ما يريد أن يبثه في كتابه من عقائد " قبالية " لو كشف عنها الغطاء لطاحت بعنقه"[1].

وفي المجلد السابع من " الأعلام " لخير الدين الزركلي يتحدث عن موسى بن ميمون " ٥٢٩-٦٠١ هـ" ١١٣٥ – ١٢٠٤ م" قائلاً:

موسى بن ميمون بن يوسف بن اسحق، أبو عمران القرطبي: طبيب فيلسوف يهودي . ولد وتعلم في قرطبة. وتنقل مع أبيه في مدن الأندلس، وتظاهر بالإسلام، وقيل: أكره عليه (!) فحفظ القرآن، وتفقّه بالمالكية، ودخل مصر فعاد إلى يهوديّته. وأقام في القاهرة ٣٧ عاماً، كان فيها من سنة ٥٦٧ هـ رئيساً روحياً لليهود، كما كان في بعض تلك المدة طبيباً في البلاط الأيوبي – يقول الأستاذ نويهض: عطف السلطان صلاح الدين على ابن ميمون وقرّبه واتخذه طبيبه الخاص[2] – ومات بها – القاهرة – ودفن في طبرية بفلسطين . **له تصانيف كثيرة بالعربية والعبرية منها "دلالة الحائرين" ثلاثة أجزاء، بالعربية والحروف العبرية، وهو كتاب فلسفته. قال ابن العبري: سماه بالدلالة، وبعضهم يستجيده وبعضهم يذمه ويسميه: الضلالة.**

---

[1] – المرجع السابق ص ٢٠٢، ٢٠٣

[2] – المرجع السابق ص ٢٠٢، ٢٠٣

ترجم إلى اللاتينية، وطبع بها أيضاً، ونشر قسم منه بالحروف العربية بعنوان "المقدمات الخمس والعشرون".

وله " الفصول " بالعربية في الطب ويعرف بفصول القرطبي أو فصول موسى، ترجم إلى اللاتينية وطبع بها.

ويذكر الزركلي كتباً له في الطب وعلم الحيوان.

وقبل إنهاء الحديث عن ابن ميمون فثمة ملاحظة لابد من الإشارة إليها، فقد اشتهر عن العرب في الأندلس تسامحهم مع اليهود وعطفهم عليهم، حتى إنّ بعضهم، أطلق على طارق بن زياد اسم: محرر اليهود، كما أنهم تقلدوا مناصب رسمية هامة كالوزارة.. وصاحب الشرطة.. الخ. **وإذا كان من المستغرب القول إن موسى بن ميمون أكره على الإسلام، فمن الضروري الانتباه إلى ما يقوله صاحب "بروتوكولات حكماء صهيون " في هذه المسألة[1] :**

" كان عمر موسى بن ميمون ١٣ سنة لما استولى " الموحدون " على قرطبة. والموحّدون مفرطون في عصبيتهم الإسلامية، فتعين على موسى وقومه إما الإسلام وإما الجلاء، فاختاروا الجلاء. وبقي يعيش في حل وترحال في إسبانيا هائماً لا يستقر له قرار. وفي سنة ١١٦٠م جاء " فاس "وألقى عصاه فيها، وفي وهمه أنه يستطيع الاجتياز والمرور إذا تظاهر

[1] - المرجع السابق ص٢٠٢، ٢٠٣

بالإسلام تظاهراً، فعرضه هذا إلى مزيد من ملاقاة الأخطار . ولكن لما صار اسم "الميمونيَّة" يشيع انتبهت له السلطات الرسمية وما عسى أن تكون حقيقته. واتُّهم أنه ارتد عن الإسلام، ولولا شفاعة صديق له مسلم، شاعر متصوف، لكان مصير موسى الهلكة ". يجدر بالذكر أيضاً أن عجاج نويهض نقل ما سبق عن ابن ميمون عن " دائرة المعارف اليهودية ".

خرافـــات مـــن التلمـــود

- ٣ -

يصعب كثيراً العثور على نسخ كاملة من " التلمود " ذاك أن " المجمع اليهودي المنعقد في بولونيا سنة ١٦٣١ قرر بالإجماع أن العبارات التـــي تهين الأغيار يجب حذفها والاستعاضة عنها، إمّا بدوائـــر هندســـية، وإمّـــا بتركها بيضاء[١]".

وهذا ما جعل الأستاذ عجاج نويهض يعتمد في دراسته " التلمود " على كتاب الخوري بولس حنا مسعد (همجية التعاليم الصهيونية) وقد وضعه عام ١٩٣٨. واعتمد هذا بدوره على ما ترجمه من كتاب " أوغست رو هلنج ".

وبين المقتبسات التي يقتطفها الأستاذ نويهض ما يلي:

[١] - بروتوكولات حكماء صهيون - الجزء ٢ ص ١٧٣

إننا نجد ألوفاً من الأدلة التلمودية التي تناقض على طول الخط أحكام التوراة. فاليهودي الذي يسرق المسيحي، أو يفضح امرأة أجنبية لا يعاقبه المجمع، لأن التلمود يسمح له بذلك.

– رأى الرباني "راشي" كرمة متهدلة بالعناقيد الناضجة فقال لخادمه: إذا كانت هذه الكرمة لغريب فاقطف منها، وإذا كانت ليهودي فلا تمسها.

– يقول التلمود بشدة: كما أن ربة البيت تعيش من خيرات زوجها، هكذا أبناء إسرائيل يجب أن يعيشوا من خيرات أمم الأرض دون أن يحتملوا عناء العمل.

– في كل عصر عُدَّ اليهود عموماً، ما عدا بعض المشاقين (كالقرائين) التلمود إلهياً كالتوراة ولكنْ إذا فحصنا الحقائق بمنظار الروية وجدناهم يضعونه فوق التوراة نفسها.[1]

ويحفل التلمود بأساطير ساذجة مضحكة عن الخلق والكون و الملائكة. من ذلك مثلاً هذه الأسطورة عن آدم، فقد " كان آدم كبيراً جداً حتى لامس برأسه قبة السماء.ولما كان ينام كان رأسه يبلغ آخر العالم من الجهة الشرقية، ورجلاه تصلان إلى الغرب من الجهة الثانية. وصنع الله له كوة كان يرى من خلالها العالم بأسره، لكن .. لما أخطأ آدم صغّره الله ومسخه بالهيئة البشرية الحاضرة".

[1] – بروتوكولات حكماء صهيون – الجزء ٢ ص ١٧٣

أما إبراهيم فإنه "أكل أربعة وسبعين رجلاً وشرب دماءهم دفعة واحدة، ولذلك كانت له قوة أربعة وسبعين رجلاً ".[1]

ويبدو التعصب، في أجلى صوره في هذه العبارة الواردة في التلمود:

" إنّ نفوس اليهود منعم عليها بأن تكون جزءاً من الله، فهي تنبثق من جوهر الله، كما ينبثق الولد من جوهر أبيه ".

و " هذا السبب يجعل نفس اليهودي أكثر قبولاً وأعظم شأناً عند الله من نفوس سائر الشعوب، لأن هؤلاء تُشتق نفوسهم من الشيطان وهي مشابهة لنفوس الحيوان والجماد، ولهذا يقول التلمود إنّ زرع الرجل غير اليهودي هو زرع حيواني ".[2]

.. وهو بعد هذا، مؤمن بتناسخ الأرواح وانتقالها من جسد إلى آخر بعد الموت: " تنتقل نفس اليهودي بعد موته إلى جسد آخر. وعندما يلفظ المتقدم في السن أنفاسه، تسرع نفسه إلى جنين في بطن أمه.."[3]

وهاهو ذا تصوره عن جهنم، فهي " أرض موحلة لا فرح فيها ولا سرور، بل بكاء وظلام، وكل مسكن في الجحيم يشتمل على ستة آلاف برميل من الحنظل، والاسفنتين ".[4]

---

[1] - المصدر السابق – ص ١٧٦

[2] - المصدر نفسه – ص ١٧٦

[3] - المصدر السابق – ص ١٧٧

[4] - المصدر نفسه – ص ١٧٨

وجهنم التي هي " أكبر من السماء بستين مرة " -!!- هي سجن القُلْف - غير المختونين- وفي مقدمتهم أتباع المسيح بن مريم، لأن هؤلاء يحركون أيديهم كثيراً برسم إشارة الصليب على ذواتهم.. ويأتي بعد النصارى المسلمون لأنهم لا يغسلون سوى أيديهم وأرجلهم وأفخاذهم وعوراتهم. " كل هؤلاء يحشرون في جهنم ولا يغادرونها إلى الأبد ".[1]

ويرد ذكر العرب في التلمود ووصفهم كما يلي:[2]

- العرب الأمة المحتقرة.
- من العار الزواج بعربية.
- العرب يعبدون الأصنام.
- العرب هم مرتكبو تسعة أعشار الجرائم في العالم.
- العربي يعبد الغبار الذي يعلق بصندله.

في التقاليد اليهودية المتناقلة من القرون الأولى في المسيحية أن العرب هم كالرومان أعداء اليهود. ويذكر التلمود خلافاً بين وفدين من الاسماعيلية – أي العرب – وبين اليهود في مجلس الاسكندر، فقال العرب: إن أرض كنعان هي ميراثنا نحن.

---

[1] – المصدر نفسه – ص ١٧٨

[2] – المصدر السابق ص ١٦١

ويعلق "نيفيل باربر" على هذه العبارة في كتابه Nisi Dominus [1] قائلاً: إن هذه الرواية تدل، حتى في العصر التلمودي، أي قبل القرن الخامس والسادس الميلاديين على أن اليهود يغصّون بوجود العرب في فلسطين.

وفي سبيل تأجيج مشاعر الكراهية والحقد ضد العرب، يعود كتّاب التلمود القهقرى إلى أيام السبي الأول زمان نبوخذ نصر (٥٨٦ ق.م) لينثروا الأكاذيب. ومنها أن " التقاليد اليهودية تقول إن نبوخذ نصر لما استاق اليهود إلى بابل سبياً تعرض لهم الاسماعيليون العرب في الصحراء و البادية فقدم الاسماعيليون لقوافل المسبيين الطعام، لكنه مالح . فطلب الأسرى الماء، فأعطوهم ظروفاً من جلود الماعز منتفخة، تبدو وكأنها مملوءة ماء. فلما وضع الأسرى أفواهم عليها ليشربوا والعطش يحرقهم، فإذا بريح ساخن يخرج من الظروف، فدخل الهواء أمعاء الأسرى فقضوا مكانهم [2] ".

إن مثل هذا السلوك اللئيم لا يمكن أن يصدر عن العرب في كل تاريخهم. ولو نسب إلى اليهود، لتقبله العقل مباشرة. إن أبسط ناقد يستطيع أن يتساءل: لماذا كلف العرب أنفسهم مشقة تقديم الطعام إن كانوا سيقدمونه مالحاً! أغلب الظن أنهم قدموا طعاماً سائغاً لكن كتّاب التلمود إزاء الواقعة التاريخية لا يملكون إلا تشويه صورة العربي.

---

[1] - العبارة لاتينية ومعناها: لولا الربّ.

[2] - المصدر نفسه ص ١٦٢

ثم ما هو هذا الريح الساخن الذي يخرج من فم الظروف بقوة كبيرة كما لو كان هناك من ينفخه ويدفعه بقوة ، ليدخل مباشرة إلى أمعاء الأسرى؟ ومتى حدث، أن إنساناً مات بمثل هذا؟

وها هي ذي فقرة أخرى من التلمود تكشف عمق الكراهية في نفس اليهودي ضد العربي، وهي كراهية تصل إلى قلب الحقائق والوقائع والأفكار رأساً على عقب، في الأغلب، على الطريقة اليهودية:

- لما كان " تيطس " – القائد الروماني "تيتوس" – يهدم الهيكل الثاني الذي بناه هيرودوس "سنة ٧٠م " كان أحد قواده العسكريين الأربعة عربياً. وكان هذا القائد العربي مر العداوة لليهود، فراح يحض الجيش على الهدم حتى لا يبقى من الهيكل حجر على حجر. ولما رآه اليهود يفعل هذا نقموا عليه، فأجابهم بأنه يفعل ذلك من أجل خيرهم ومصلحتهم، إذ ما دام الهيكل قائماً فالإمبراطورية الرومانية لا تبرح عدواً لكم. لكن إذا زال الهيكل زالت تلك العداوة. فقال له اليهود: أنت عربي لا نؤمن بنصيحتك"![1]

ويلفت النظر بقوة، هذا التشديد على كراهية من هو "غير يهودي" ووجوب تجنبه. فإن "غير اليهود كلاب عند اليهود بحسب تعاليم التلمود المستندة إلى الآية السادسة عشرة من الفصل الثاني عشر من سفر الخروج . وقد جاء فيه "أن الأعياد وضعت لإسرائيل وليس للأغراب والكلاب".

---

[1] – المصدر نفسه ص ١٦٢

والكلب أفضل من غير اليهودي، ولذلك " لا يُسمح بإعطاء اللحم لغير اليهودي بل للكلب " وإن بيوت غير اليهود زرائب للحيوانات ".[1]

ويدرج التلمود المسيحيين والمسلمين بين عبدة الأوثان الذين لا يعتنقون الدين اليهودي، وهؤلاء جميعاً في نظر اليهود هم أعداء الله وأعداء اليهود. ويسمح التلمود لأصدقاء الله وأقربائه أن يُضِلّوا الأشرار. أمّا السلام – التحية – فممنوع على الكفار. أمّا الرياء فمسموح به.

وهناك في التلمود تعاليم كثيرة تحض اليهودي على الغش والربا الفاحش وتسمح له بالسرقة، وتعمُّد الغلط في الحساب.. شريطة أن يكون الطرف الآخر غير يهودي.. و " إذا رد أحد إلى غريب ما أضاعه فالرب لا يغفر له أبداً. ممنوع عليك رد ما فقده الغريب .. ولو وجدته .."

وهكذا فإن تعاليم التلمود، وهو محصلة "المشنا والجمارا" تشكل الإطار النظري لكل الممارسات اللاأخلاقية لليهودي الواقعي .. وليس عسيراً على الإطلاق استقراء منعكساتها العملية في فلسطين منذ مطلع هذا القرن.. وفي العالم منذ انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في بال عام ١٨٩٧ حتى الآن..

إن المرء ليصاب بذهول حقيقي، يكاد لا يصدقه، وهو يلاحظ هذه النظرة العنصرية التي تمور بها تعاليم التلمود، وذلك الحقد البالغ على كل من هو غير يهودي، مبدئياً.. دون سبب مباشر، ودون احتكاك ما ، يمكن أن

[1] – المصدر السابق – ص ١٨١

يُبْحث فيه عن مبرر ما لكل هذا الانفعال الفظيع، إلى درجة الحض على الإجهاز عليه، إذا زلت قدمه في أرض ما. وفي حال عدم التمكن منه في الدنيا، فإرجاء أمره إلى الآخرة.. حيث يُلْقى في جهنم..

إن معرفة هذه الأمور، ضرورية للغاية لفهم نفسية الأشخاص الذين أقدموا على المجازر التي اقترنت بأسمائهم في فلسطين، خاصة وما يحيط بها من أقطار عربية عامة..

عندئذ يبدو سهلاً تفسير مجازر دير ياسين وقبية، والسموع، وكفر قاسم وبحر البقر.. وصبرا وشاتيلا وقانا، والطريقة اللامتناهية في عنفها، في مواجهة الانتفاضة الملحمية عام ١٩٨٧ في فلسطين المحتلة، إلى درجة تكسير عظام الفتيان... والتمثيل بهم وهم أحياء.. ونسف البيوت والقرى.. وتدمير المخيمات في الضفة وجنوب لبنان..

إن هذا كله جزء لا يتجزأ من عقيدة اليهودي المؤمن، ورشح حقيقي من ذلك الماء الآسن الذي يدعى: التلمود.

الباب السادس

جريمة يهود دمشق سنة ١٨٤٠

جريمة يهود دمشق سنة ١٨٤٠

أ – دماء في عيد الفطير اليهودي.

ب– من وقائع التحقيق في الجريمة.

ج– وساطات للعفو عن القتلة.

<u>ملحق :</u>

أ – يهود دمشق.

ب – ينتقمون حتى من الأموات.

جريمة يهود دمشق سنة ١٨٤٠

دماء في عيد الفطير اليهودي

يجيء الكتاب الذي نشرته حديثاً دار المجد[١] في دمشق في الذكرى الـ ١٥٧ للجريمة البشعة التي ارتكبت عام ١٨٤٠، ولازالت أصداؤها تتردد في هذه المدينة حتى الآن.. وأذكر أنني في طفولتي سمعت كثيراً عن مثلها في حينا " مئذنة الشحم " وهو لا يبعد كثيراً عن حي اليهود، المكان الذي وقعت فيه الحادثة في القرن الماضي. ويصف المؤرخ الفرنسي " اشيل لوران" الحيّ اليهودي في تلك الأيام بقوله:

" بني الحي اليهودي في دمشق على شكل سراديب محاطة بعدد لا يحصى من الأقبية التي تلقى فيها الأوساخ. وفي الحي المذكور عدد من

١ - ما وراء جريمة ١٨٤٠ – جان دورلت – ترجمة: حسن حمدان – دار المجد- دمشق ١٩٨٩

الشوارع الصغيرة المتعرجة والضيقة بحيث لا يمكن أن يمر فيها أكثر من شخصين متقابلين. ولا يقتصر الأمر في هذا الحي على عدد من البيوت ذات الأقبية المبنيَّة فوق بعضها، ولكن هناك، إلى جانب هذا النموذج من البناء وفي جدران الطوابق السفلية منها، خزائن مصنوعة لا يظهر فيها أي أثر للحياة، وليست هي في الحقيقة سوى أبواب صغيرة مشتركة مع غرف السكن ومع مخابئ مظلمة غالباً "

جريمة.. عيد الفطير

ذبح الأب توما الكبوشي مساء ٥ شباط ١٨٤٠ في دار في الحي اليهودي في دمشق، واستنزف دمه في عيد الفطير. وكما يذكر مؤلف الكتاب فإن هذا الأب كان قد اختير بصورة خاصة ليكون الضحية في هذه المناسبة، ولم يوجد مصادفة في الحي اليهودي في ذلك التاريخ حيث كان يقوم بتلقيح طفل.. ولصق إعلان بيع.

الظروف الدولية:

.. عندما وقعت الجريمة كانت تسع سنوات قد مضت على وجود الجيش المصري بقيادة ابراهيم باشا بن محمد علي في بلاد الشام. وكان ابراهيم عام ١٨٣١، بعد أن فتح هذه البلاد قد تجاوزها إلى آسيا الصغرى

واستولى على أضنة وقونية وأصبح الطريق ممهداً أمامه إلـــى الآســـتانة أو استانبول.. بعد أن سحق كل الجيوش التركية التي تصدت له. وســـنة ١٨٣٣ تنادت الدول الكبرى، إلى مؤتمر أسفر عن معـــاهدة " كوتاهيـــة " وتنـــازل السلطان العثماني محمود الثاني بموجبها عن سورية لمحمد علي، علــــى أن يولي ابنه إبراهيم باشا على ولاية أضنة أيضاً..

غير أن السلطان العثماني استغل هذه الهدنة الموقعة لتقوية الجيـــش.. فلم تلبث أن قامت الحرب بين الجيشين المصري والعثماني.. إلا أن ابراهيـم باشا استطاع أن يلحق في "نزيب" هزيمة شنيعة بالجيش العثماني.. فكـــان أن تنادت الدول الأوروبية من جديد إلى اجتماع عقد في شباط ١٨٤٠ في لنـــدن لمنع محمد علي من جني ثمار هذا النصر الساحق. وكانت هذه الدول هــــي إنكلترا وروسيا والنمسا وبروسيا وفرنسا.

وكما يبدو فإنه الشهر نفسه الذي وقعت فيه الجريمة : شباط. ويمكن الاستنتاج، من ثم، بكل يسر أن القائد ابراهيم باشا والبلاد عامة، كانت فـــي شغل يبعدها عن الانتباه إلى الأبعاد الخطيرة التي انطوت عليها الجريمـــة.. وكان والي دمشق " شريف باشا" على الرغم من استنكاره الســـافر لـــها، منتبهاً.. إلى تلك "الظروف" العالمية مما منعه مـــن أن يتحمـــل مســـؤولية الحسم بمفرده.. في المرحلة الأخيرة .. من تطورات القضية..

قنينة دم:

يقول جان دورلت في كتابه "جريمة ١٨٤٠": كان يعقوب العنتابي كبير حاخامات دمشق يبحث منذ خمسة عشر يوماً قبل هذا التاريخ،[١] عن وسيلة يحصل فيها على قنينة دم مسيحي. وتحدث بهذا مع الإخوة "هراري" وهم التجار اليهود الأغنياء في دمشق. وقد حاول هؤلاء التهرب من هذا التكليف المفروض عليهم بأوامر كهنوتية صارمة. ولكن هذا الإرهاب التلمودي ، كما يلاحظ في البروتوكولات يلزمهم الطاعة بعنف كما يلزم اليهود الآخرين الخاضعين له ، وذلك بمقتضى السلطة الجهنمية الظالمة التي يتمتع بها رجال الدين والتي تنصب كلها دون رحمة على من لا يطيع يوماً هؤلاء الحاخامات.. ويستطرد الكاتب قائلاً:

لقد وعد الإخوة هراري كاهنهم بإعطاء مبلغ مئة كيس من الدراهم تقدر قيمتها بمبلغ ١١٢٥٠ فرنكاً فرنسياً، لمن ينفذ رغبته، وقد أبلغ كبير الحاخامات هذا اثنين من أتباعه هما الحاخام موسى أبو العافية والحاخام موسى سالونيكي بأنه "عثر على البضاعة" وعليهما أن يكونا مستعدين لذبح الضحية التي دلهما عليها .. وبناء على ذلك استدرج موسى أبو العافية الأب توما إليه.

---

[١] - يوم وقوع الجريمة في ٥ شباط ١٨٤٠

عيد الفطير:

يهتم اليهود عادة بهذا اليوم المقدس فيعدون له كل شيء ويستعدون له على نحو مسبق. وقد ورد في سفر " استير ": أن هذا الاحتفال يقام في ذكرى سقوط "هامان" الذي كان متعطشاً لإنقاذ وطنه من الطاعون اليهودي – على حد تعبير دورلت – **وكان هامان في الحقيقة.. ضد اليهود .. ولكن، من هو هامان هذا؟**

يقول الأستاذ عجاج نويهض في كتابه "بروتوكولات حكماء صهيون" إن هامان من أصل عربي عماليقي[1] وقد كان من رجالات القصر الفارسي وبلغ مرتبة تعادل اليوم رئييس الوزراء[2] لدى الإمبراطور أحشويروش بن داريوس – أو: دارا – وكان ذلك أواسط القرن الخامس قبل الميلاد .. وقد اشتهر بعدائه لليهود الذين تسربوا إلى القصر الإمبراطوري، وكانوا ممّن سباهمّ نبوخذ نصرّ.

[1] – العمالقة هم أول شعب عربي قديم ذي عصبية قوية الشكيمة، في شرق سيناء وجنوب فلسطين، وقف بالسيف في وجه بني إسرائيل، لما خرج هؤلاء من مصر: البروتوكولات – حاشية – المجلد ٢ – ص٢٨

[2] – البروتوكولات.. ع. نويهض – المجلد ٢– ص ٣١

الجريمة في أوروبا:

يذكر دورلت أن جريدة " نانت " في فرنسا عام ١٩٢١ تعرضت إلى الجريمة في هذه المناسبة الدينية، في صدد حديثها عن جثة طفل وجد يوماً تحت أكواز شجرة على أحد ضفاف نهر "اللوار" وكان الدم مسحوباً من شرايينه.

وفي روسيا حين يقترب عيد فصح اليهود تعمل الدولة منذ عام ١٤٢٠ على إجلاء الأطفال المسيحيين من مناطق الاحتفال خوفاً على حياتهم وقد أصبحت حوادث القتل المرتبطة بفصح اليهود متعددة ومعروفة.

توما الكبوشي:

ولد عام ١٧٨٠ في " كلانجيانو " في جزيرة سردينيا وكان يعرف أحياناً باسم الأب توماس الكلانجياني. وكان قبل دخوله في جماعة الرهبان يدعى " فرانشيسكو انطونيو " وقد دخل وهو في الثامنة عشرة دير الرهبان الكبوشيين في روما كطالب مبتدئ. وأوائل عام ١٨٠٧ رسم في دمشق مبعوثاً رسولياً. وكان في سنواته الأولى **قد درس الصيدلة ، مما جعله يعرف كثيراً من خصائص الأعشاب والتداوي بها. وكثيراً ما كان يستدعى في**

دمشق، من قبل جميع الطوائف بمن في ذلك اليهود أنفسهم لاستشارته في معالجة بعض الأمراض. وكان الناس يأتون إليه من أماكن مختلفة.. كي يلقحهم ضد بعض الأمراض.. ويوم الجريمة كان يلقح الأطفال.

في هذه الفترة كان قنصل فرنسا في دمشق هو الكونت دوراتي مانسون، وكان الأب توما مشمولاً برعايته وحمايته، على أنه واحد من الرعايا الذين تشملهم الحماية الفرنسية .. ويجدر بالذكر هنا أن علاقات سياسية ممتازة، كانت قائمة بين فرنسا وبين محمد علي.. الذي كانت بلاد الشام كلها تابعة له..

وثائق الجريمة:

يقول جان دورلت إن إضبارة هذه الحادثة – بعد اكتمال التحقيق ووقائع المحاكمة – حفظت في وزارة الخارجية الفرنسية. وقد حاول (البرت مونيوت) أن يطلع عليها عندما كان يعد كتابه "جريمة المناسبة الدينية " فلم يسمح له بحجة " أن وثائق هذه القضية لم يمض عليها الوقت المسموح به.. لنشرها ". ويضيف قائلاً: **"وأكد هنري ديسبورت في مؤلفه "سر الدم" أن هذه المستندات فقدت من وزارة الخارجية الفرنسية عام ١٨٧٠ في عهد الوزير اليهودي "كريميوكس" ولا يخفى أن هذا جرى في الوقت الذي بات ممكناً فيه الاطلاع على ملف القضية في الخارجية الفرنسية!!".**

وفي الفصل الثاني من كتابه " فرنسا اليهودية " يقول إدوارد درومونت:

" هناك وثيقة أخرى غريبة جداً تشير إلى هذا الموضوع، ولكن بكل أسف لا يمكنُ العثور عليها اليوم أبداً، وعنوانها " بحث تاريخي في الحوادث السورية منذ عام ١٨٤٣ " وهذه الوثيقة لم يكن ممكناً العثور عليها عام ١٨٨٦ " و " لحسن الحظ فإن البرت مونيوت كان يملك القسم الثاني من هذه الوثيقة وقد استخدمها مصدراً لكتابه ".

الوثيقة الدامغة:

يتابع دورلت قائلاً:

" **أما هنري ديسبورت في مؤلفه "سر الدم" فقد كرر ذكر هذا المصدر بكثرة، ولكن الأهم من هذا كله أن لدينا الآن هذه الوثيقة الكاملة والصحيحة والتي لا يستطيع اليهود أنفسهم إنكارها أو التقليل من قيمتها المُقْنعة.** وهي ليست كتاباً ضد اليهود، بل هي في الحقيقة نسخة من كتاب قديم أصفر نشره في مجلدين الإخوة "كوم" عام ١٨٤٦ وصدر عن دار نشرهم الكائنة في شارع "كاسيت" وعنوان الكتاب بالضبط: "بحث تاريخي في الحوادث السورية منذ عام ١٨٤٠ حتى ١٨٤٢" وقد تضمن إحصاء عاماً عن جبل لبنان مع

وقائع الدعوى التي أقيمت عام ١٨٤٠ ضد يهود دمشق إثر اختفاء الأب توما بموجب وثائق مستقاة من تركيا ومصر وسوريا بواسطة "اشيل لوران" عضو جمعية المستشرقين. ولا يستطيع أحد أن يجادل في صحة هذه الوثيقة، لأن المجلد الأول منها يروي سياسة الحماية الفرنسية في تلك البلاد، والمجلد الثاني مستقى من نشرات المحاكم الرسمية هناك..

.. أما االوثيقة الأخيرة فهي " النشرة العربية " التي حصل عليها المؤلف بعد دخول القوات الفرنسية لسوريا عام ١٩٢٠ وهي " ترجمة دقيقة لنشرة عربية تتضمن مجمل محاضر متعلقة باختفاء الأب توما وخادمه ابراهيم عمارة المفقودين في الحي اليهودي بدمشق مساء الأربعاء ٢ ذي الحجة ١٢٥٥ هـ الموافق ٥ شباط ١٨٤٠ ". **وقد ورد في هذه النشرة أنه يوم الجمعة في ٤ ذي الحجة ١٢٥٥ هـ حضر السيد "بودان" ترجمان المكتب القنصلي بدمشق إلى ديوان الحاكم التركي العام وأفاد " أن الأب توما خرج من ديره مساء الأربعاء الماضي حسب العادة بعد العصر قاصداً الحي اليهودي بدمشق ليلصق إعلان بيع دار المرحوم "تيرونوفا" على جدار الكنيس اليهودي وحين تأخر في العودة ذهب خادمه ليبحث عنه في الحي المذكور نحو المغرب.. فلم يعد .. أيضاً.. "**

جريمة يهود دمشق سنة ١٨٤٠

من وقائع التحقيق في الجريمة

-٢-

استدعى الباشا إليه المتهم اسحق هراري وأجرى مقابلة بينه وبين الشاهدين سليمان ومراد، واستجوبه، عن الظروف التي رافقت ذبح الأب توما، وسأله عن الهدف من ذبحه، فلم ير المتهم مناصاً من الاعتراف والإدلاء بما يلي:

- أصبح معروفاً أننا استدرجنا الأب توما إلى دار "داود" وذبحناه هناك، وجمعنا دمه في زجاجة أودعناها عند الحاخام موسى أبو العافية، ودافِعُنا إلى هذا هو منطلق ديني، لأن هذا الدم لازم وضروري لاستكمال واجباتنا الدينية.

س- هل كانت الزجاجة بيضاء أو سوداء؟

ج- لون الزجاجة كان أبيض وهي من النوع المسمى "كالابيس".

س- من الذي ناول الحاخام موسى أبو العافية.. الزجاجة؟

ج- الحاخام موسى سالونيكي.. هو الذي سلمه الزجاجة.

س- في أي شيء يستخدم الدمَ في عقيدتكم الدينية؟

ج- يستخدم الدم في خبز الازيم " الفطير ".

س- هل يوزع الدم على المؤمنين بالعقيدة؟

ج- بشكل علني لا. بل يعطى إلى الحاخام الأكبر.

س- كيف عملتم على استدراج الأب توما؟

ج- لقد تعهد ذلك كل من: موسى سالونيكي وموسى أبو العافية واتخذا التدابير اللازمة لهذه العملية.

الذبح والتمثيل:

س- أين ذبحتم الأب توما؟

ج- في الغرفة المفروشة على العتبة.

س- من هو الذي ذبحه؟

ج- ذبحه موسى أبو العافية وداود هراري.

س- حين ذبح بأي شيء جمعتم دمه؟

ج- جمعنا الدم.. في طست نحاس.

س- بعد ذبح الأب توما، هل بقيت جثته وقتاً طويلاً؟

ج- بقيت جثته زهاء نصف ساعة.

س- أين سلختموه وقطعتموه؟

ج- لقد قطع في الغرفة غير المفروشة.

س- من الذي قطع الجثة؟

ج- قطعها جميع المتهمين تقريباً مع الحلاق سليمان والمستخدم مراد الفتال.

أبو العافية يعلن إسلامه:

كانت المفارقة العجيبة في أثناء استجواب الحاخام موسى أبو العافية في مطلع آذار ١٨٤٠ م ذي الحجة ١٢٥٥ هـ يوم الاثنين أنه أعلن إسلامه، وبات يعرف باسم " محمد الأفندي "وخلال ذلك بعث برسالة إلى الوالي جاء فيها:

" .. أنا من جهتي لا أعاشر عادة ذوي النفوذ والجاه كآل هراري، وهم من ذاك الصنف الذي يكثر من إقامة السهرات ومجالس الطرب. وبطبيعتي أنا لا أتردد على مثل هذه المجالس. **أما فيما يتعلق باستخدام اليهود للدم، فإنهم يستعملونه في عيد الفطير "الازيم" وهذا ما أوضحته لكم سابقاً شفهياً. وكم من فرصة، مرت دون أن تقوم الحكومة بمفاجأة اليهود لتضع يدها على مثل هذه الأحداث.** والكتاب الديني المسمى "سادات إدرا كوت" الخاص باليهود يروي أحداثاً كثيرة من هذا النوع عن مسؤولية اليهود إذ أن هذا

الكتاب يصف اليهود ويقود إلى اتهامات لا تقبل الجدل ويشير إلى الأسلوب الواجب ممارسته في مثل هذه الحالات.."

.. ويوم الثلاثاء ١٤ محرم عام ١٢٥٦ هـ الموافق ١٧ آذار ١٨٤٠، جرى حدث هام في ديوان والي دمشق "شريف باشا" المشرف على التحقيق وكان مشهداً يستحق الإشارة إليه، كما يقول دورلت، إذ جرت مقابلة بين محمد الأفندي – موسى أبو العافية سابقاً.. والذي أصبح متمتعاً بالجنسية التركية في الآن ذاته، وبين كبير حاخامات دمشق يعقوب عنتابي. وقد حضر هذه المقابلة السيد بودان الترجمان بالقنصلية الفرنسية وكبار أعضاء السلك القنصلي، إذ أن الباشا استجوبه في شأن معلوماته حول "التلمود" وكان بعد كل إجابة يسأل كبير الحاخامات "هل هذا صحيح؟".

أحكام التلمود..

يتابع دورلت قائلاً: ومن المفيد في هذا المجال أن نعترف أن هذا الاستجواب أفاد منه كثيراً الراغبون في البحث بعمق في نصوص " التلمود " هذا التشريع الخاص بالطائفة اليهودية والذي يظهر أن أحكامه " لازالت تراعى بدقة رغم أنه تشريع مر عليه زمان طويل جداً.."

إن موسى أبو العافية – ولن أدعوه محمداً – يتحدث ههنا عما ورد في الصفحة ٥٨ من فصل من التلمود عنوانه "سنهدرين" ولكن المؤلف لا يوضح

معنى هذه الكلمة، إلا أن الأستاذ عجاج نويهض[1] **يوضح أن هذه الكلمة تلفظ أيضاً "سنحدرين" وهي ذات أصل يوناني بمعنى المقعد أو المجلس. وقد هوَّد اليهود التلفظ بهذا الاسم حتى بات يلوح كأن أصل الكلمة عبري.** ويذهب الأستاذ نويهض إلى ان السنحدرين هو " السينودس" أو المجمع الديني الأعلى عند اليهود، أو هو ما يشبه "السينودس" في المجامع المسيحية. والسنهدرين بالغ الخطورة الخفية ويصح أن يكون لفظا "حكماء صهيون" و "السنهدرين" مرادفين لمدلول واحد. وهو يؤكد أنه كان موجوداً في أثناء الحروب "المكابية "أو قبيلها" وقد حير أمره الرومان. وهذا السنهدرين هو الذي حاكم السيد المسيح المحاكمة المبسوطة في الإنجيل. والمعلوم أنه ألغي في بيت المقدس سنة ٥٧ ق.م كما ذكر هذا المؤرخ اليهودي يوسيفوس، إذ أراد الرومان تصفيته وإزالة آثاره. لكن هذا المجمع تمكن بعد ذلك من أن يستمر بكيانه ووجوده استمراراً خفياً" و "من السنهدرين انطلقت التيارات العجيبة وبذور المنظمات السرية التي تطلع على أوصافها في بروتوكولات حكماء صهيون" و "السنهدرين معناه اليوم امتداد من القرون الماضية ولاسيما القرن السابع عشر عند الكتاب والمعلقين السياسيين الباحثين في شؤون اليهود: الهيئة اليهودية السرية العليا، لا يُعلم أين مكانها، ولا من هم رجالها" [2].

---

[1] - بروتوكولات حكماء صهيون – المجلد ٢ – ص ١٣٩

[2] - المصدر نفسه – ص ١٤٠

من تعاليم السنهدرين

- يقول أبو العافية نقلاً عن هذا السنهدرين:

كل غريب يقدس يوم الأحد، ويقال بوجه آخر كل مسيحي ، يجب قتله دون استجوابه وقبل سماع أقواله.

- الكتاب المقدس خاص باليهود، في حين يجب ان تحرق كتب الشعوب الأخرى، حتى لو كانت تحمل اسم الله .. وإذا كتب "غير يهودي" اسم الله في كتاب مقدس فيجب إحراق هذا الكتاب لأن اسم الله لم يكتبه إسرائيلي.

.. وسأله الباشا عن رأي التلمود في غير اليهود .. فقال:

إن التلمود ينظر إلى "الغوييم" أي غير اليهود على أنهم حيوانات متوحشة لأن إبراهيم عندما همَّ بان يضحي بولده أخذ معه خادميه غير اليهوديين وقال لهما: امكثا أنتما والحمار لأني ذاهب وولدي إلى أبعد من هذا المكان. بذلك قرر التلمود أن الشعوب الأخرى هي مثل هذين الشخصين. أي أنها تشبه الحمير.

وعندما سئل كبير حاخامات دمشق عن رأيه في هذا قال:

إن هذا على العموم صحيح، فابراهيم حينما رأى وجه الله سأل خادميه إن كانا يريدان رؤيته فأجابا نفياً، واستناداً إلى هذا الجواب قال لهما: امكثا

أنتما والحمار. فاستنتج التلمود من هذه الواقعة أن الخادمين كانا من الحيوانات.

أبناء نوح والشعوب الأخرى

ومن مواد السنهدرين التي ذكرها أبو العافية أمام والي دمشق ما يلي من الصفحة ٥٨ نفسها:

- الوثني "غيراليهودي" الذي يضرب إسرائيلياً يستحق الموت. إذ حينما أقام موسى في مصر قتل مصرياً لأنه ضرب أمامه يهودياً، لأن من يصفع يهودياً، فكأنه بهذه الصفعة يصفع الله.

- الوثني الذي يقدس يوماً من أيام الأسبوع يستحق الموت، لأن الله قال للوثني أنت لا تستريح لا في الليل ولا في النهار.

- تنزل عقوبة الموت بالوثني حتى لو استراح يوماً آخر وكان هذا اليوم هو يوم السبت.

وجاء في السنهدرين ص ٦٣ ما يلي:

- محذور على اليهود الاشتراك مع الوثنيين لإيقاف انهيار مجتمع ما.

- حينما يطلب إلى الوثني أن يقسم اليمين فعليه أن يحلفها باسم الأوثان: "الصليب عند المسيحيين، والقرآن عند المسلمين ".

- باستثناء الإسرائيليين ينضوي تحت اسم " أبناء نوح " كل الشعوب الأخرى.

- أي فرد من أبناء نوح يمكن أن يقتل استناداً لقرار كاهن واحد وشهادة شاهد واحد فقط، حتى لو كان هذا الشاهد قريباً من المشكو منه. ويستحق الموت هذا الفرد كذلك إذا قتل امرأة يهودية حاملاً وأضاع لها الجنين.

جريمة يهود دمشق سنة ١٨٤٠

وساطات .. للعفو عن القتلة

- ٣ -

بعد أن ذاع نبأ مقتل توما الكبوشي، فإن حاخامات دمشق وأثرياءها من اليهود، اتبعوا أسلوباً يشبه إلى حد بعيد الأسلوب الذي تتبعه الحركة الصهيونية اليوم، إذ يقتلون الضحية، ثم يمشون في الجنازة مستنكرين هذه الفعلة النكراء، مطالبين بإنزال أشد العقاب بمرتكبها.

.. جاء وفد يضم اثني عشر "إسرائيلياً" من أثرياء الحي اليهودي كما يقول جان دورلت، إلى قنصلية فرنسا فالتقوا بالقنصل "دوراتي مانسون" وسألوه أن يتوسط لدى والي دمشق لتمديد المهلة المحددة لتسليم المسؤولين عن القتل. وكانت هذه المدة قاربت على الانتهاء، ولم يكن أي من القتلة قد أوقف بعد. فوعدهم القنصل بذلك، علماً أن بعض المجرمين كانوا في عداد هذا الوفد. وقبل أن يغادروا القنصلية رجوه أن يعلن عن مكافأة مقدارها

خمسون ألف قرش، بواسطة مناد تعطى لمن يكشف جثة الأب توما أو يـدل على قتلته، على أن يدفعها هؤلاء الأثرياء..

وفي الآن ذاته دفعوا إلى " التفكجي باشي " – وهـو يعـادل مديـر المباحث الجنائية في أيامنا – مائة ألف قرش.. وقد أدى ذلك إلى أنـه لـم يكتشف أي شخص من القتلة.. وفي الآن ذاته أوغروا الصدور ضده، فقـد نشروا إشاعة زعموا فيها أن كشف هذه الجريمة لا يحتاج إلى مدة تزيـد عن شهر واحد.. فكيف وقد مر زهاء ثلاثة أشهر.

مع القنصل الفرنسي

لم يتوقف أثرياء اليهود عند هذا الحد، فحاولوا أن يرشـوا القنصـل الفرنسي الكونت مانسون نفسه بتقديم خمسمئة ألف قرش.. علـى شـكل سلفة للمساعدة في التحقيق. فما كان منه وهو المحصّـن ضـد الدعـارة والرشوة، على حد تعبير مؤلف الكتاب إلا أن استجوب الراشين أنفسهم..

.. ثم ذهبوا بعدئذ إلى حد محاولة رشوة الشهود.. كما توضـح ذلـك رسالة القنصل الفرنسي إلى والي دمشق، وفيها يقـول إن المدعـو خليـل صيدناوي أعلمه أن يهوديين أحدهما "الياهو نحميد" عرضا عليه مالاً على أن يشهد شهادة تعاكس ما قيل عن القتلة مع وعد آخر بدعمه وحمايته بواسـطة قنصلية "..." – هي كما يقول المترجم في حاشية له قنصلية النمسا وقد كـان

اليهود يتمتعون بحمايتها يومئذ – وهناك رسالة أخرى، تذكر اسم شاهد آخـو حاولوا رشوته.

.. وفي المقابل قامت الصحف الفرنسية المتهودة ، بشن هجمات مقذعة ضد القنصل الفرنسي في دمشق، كجريدتي "الدستور" و "العصر" إلا أنه لـم يبال .. واستمر في إلحاحه على وجوب إجراء التحقيق حتى النهاية، باعتبار الأب توما.. مشمولاً برعاية القنصلية الفرنسية.

.. في فصل آخر ينقل "دورلت" ما جرى لابراهيم عمارة خـادم الأب توما، حين استدرج إلى إحدى الدور في الحي اليهودي، حيث ذُبـح ذبـح النعاج واستنزف دمه لاستخدامه في الفطير..

صدور الأحكام على القتلة

كان لابد في النهاية، بعد استكمال التحقيق في هذه الجريمة المزدوجة، من صدور الحكم القضائي. وقد جاء فيه أن المشتركين في القتل كانوا سـتة عشر "إسرائيلياً"، مات منهم اثنان في أثناء المحاكمة، ومنح أربعة منهم العفو بسبب إفشائهم معلومات ساعدت في التحقيق، بينهم الحاخام موسى أبو العافية الذي أعلن إسلامه بعد وقت قليل من توقيفه وحمل اسم: محمد الأفندي.

وحكم العشرة الآخرون بالإعدام، ومعظمهم من أثرياء اليهود وبينـهم الإخوة داود وهارون واسحق هراري.. وبعض الحاخامات.

" وفي حين كان باشا دمشق يستعد لتنفيذ هذه الأحكام القضائية بحق هؤلاء المحكومين، كان قنصل فرنسا الكونت " دوراتي مانسون " الذي قاد التحقيق بحماسة كبيرة ودقة متناهية انتقاماً لأحد رعايا دولته.. يتحدث بقلق مفرط عن محاولات لنقض هذه الأحكام وإعادة المحاكمة"

من جهة ثانية، وفي الوقت نفسه ، " كانت المطابع في أوروبا وفرنسا، وقد قبضت أموالاً من آل روتشيلد وشركائهم من كبار ممولي البنك الوطني، تصب أقذر الكلمات على رأس فرنسا، مع أن فرنسا كانت تقوم بواجبها المفروض لمعرفة مصير أحد رعاياها ".

وكان لابد أن يقوم والي دمشق بإرسال ملف القضية بكامله إلى ابراهيم باشا، قائد جيوش محمد علي في سورية، كي ينال موافقته على تنفيذ أحكام الإعدام، وكي يغطي نفسه بسلطة أعلى.

يقول "ج. دورلت" إن هذه الحركة بتأخير التنفيذ ساهمت في إنقاذ حياة هؤلاء القتلة. لماذا؟ "لأن الصهيوني كريميوكس المقيم في فرنسا، وزميله "موزيس مونتيفيور" أو موسى مونتفيوري المقيم في انكلترا، وبمساعدة زميلهما الثالث الجوال "مونيك" كان لديهم الوقت الكافي كي يصلوا إلى الشرق خلال هذه الفترة. وكان هؤلاء الثلاثة قد تزودوا بمال كثير من "روتشيلد" بصفتهم وكلاء "الأليانس اليهودي العام"، أو الرابطة العامة لليهود. وبوصول هؤلاء الصهاينة الثلاثة إلى الشرق، قدموا إلى محمد علي عريضة

التمسوا فيها إعادة النظر في هذه الأحكام، ودعموا هذا الطلب بتقديمهم إليه مبلغاً ضخماً .. من المال.

الضغوط على محمد علي

.. ويذهب هذا الكاتب الفرنسي إلى أن للإسرائيليين ذوقاً خاصاً وإمكانية هائلة في إعادة النظر في مثل هذه الدعاوى، لأن مقومات إعادة النظر متوفرة لديهم خاصة وأن روتشيلد قبض من أموال الفرنسيين ما يكفي لذلك منذ " واترلو ".

.. ويبدو أن الضغوط الدولية الهائلة التي مارسها يهود أوروبا على محمد علي، من أجل إبعاد حبل المشنقة عن رقاب القتلة، إضافة إلى أن الدول الأوروبية، تولت إلزام محمد علي بالتراجع بعد أن استطاع ابنه ابراهيم باشا إلحاق تلك الهزيمة النكراء بالجيش العثماني في " نزيب" للمرة الثانية، وفرضت عليه شروطاً مذلة.. لم يلبث أن قبل بها.. يبدو أن هذا كله كان غائباً عن ذهن السيد "دورلت" فإذا هو يكتب:

" كانت النتيجة الطبيعية لهذه الضغوط على محمد علي أنه رد على عريضة أولئك الصهاينة المقدمة إليه بما يلي: ولماذا طلب إعادة المحاكمة؟ بل.. إنني سأمنح هؤلاء الناس الأبطال، عفواً بكل طيبة خاطر. فأجابه

كريميوكس: لا .. لأن منح العفو يفترض وجود الخطأ، ونحن لا نريد لهم أن يبقوا مجرمين. حينئذ ألغى محمد علي كلمة "عفو" من فرمانه"

وفيما يلي نص هذه الوثيقة:

استناداً إلى المعروض والطلب المقدمين من السيدين "موزيس مونتفيور وكريميوكس" المعتمدين لدينا ممثلين لكل الأوروبيين الذين يعتنقون الديانة الموسويّة، وحيث تبين أنهما يرغبان في إخلاء سبيل اليهود الموقوفين ومنح الأمان لأولئك الفارين من الأبحاث الجارية في موضوع الأب توما الراهب المختفي مع خادمه ابراهيم في دمشق..

وحيث أنه من غير المناسب أن نرفض هذا الطلب، نظراً لهذا العدد الهائل من السكان الذين يمثلونهم لدينا، لذلك فإننا نأمر بإخلاء سبيل السجناء اليهود فوراً وإعطاء الأمان للهاربين بالعودة إلى أماكنهم. ويمارس أصحاب المهن منهم أعمالهم، فالتاجر في متجره وكل واحد في عمله ووظيفته المعتادة..

وعليكم اتخاذ كل الوسائل الممكنة ، بحيث لا يكون أي واحد منهم هدفاً لمعاملة سيئة من أية جهة كانت . وبالنتيجة فإن لكل منهم ملء الحق والأمان الكامل، ويترك كالسابق مطمئناً من كل الجهات. تلك هي إرادتنا.

خاتم وتوقيع: محمد علي

مهزلة العفو عن القتلة

.. وكما هو مطلوب، فلم ترد في نص الفرمان كلمة "عفو" ولم يذكر أن عشرة "قتلة" أخلي سبيلهم، ولكن ذكر " العدد الهائل من الأوروبيين الذين يعتنقون الديانة السماوية". وهو غير صحيح. حقاً إنها لمهزلة.. أو كما يقول دورلت: "وهكذا خرج القتلة في هذه الدعوى من السجن وكأنهم فرّوا فراراً أو .. هُرِّبوا ".

وفي كنيسة بدمشق تطل على الشارع المستقيم قبيل باب شرقي، يقرأ زائر القبر الذي أودعت فيه رفات الأب توما، باللغتين العربية والإيطالية العبارة التالية:

" ترقد هنا عظام الأب توما السرديني، المرسل الرسولي الكبوشي المقتول من قبل اليهود في ٥ شباط ١٨٤٠ م ".

.. وبعد، فإن موسى مونتفيور أو مونتفيوري – لعب الدور الأول في إخراج القتلة من الجريمة،مثلما تخرج الشعرة من العجين. وكان هو صاحب الكلمة الأولى النافذة في بلاط محمد علي بالقاهرة. وفي الآن ذاته كان يحمل معه كتاب توصية خاصة من ملكة بريطانيا فيكتوريا، إضافة إلى كثير من ذهب "حكماء صهيون".

ولقد أولى الأستاذ عجاج نويهض في الجزء الثاني من كتابه "بروتوكولات حكماء صهيون" اهتماماً خاصاً لهذا الصهيوني الذي كانت تربطه علاقات متينة بالملكة البريطانية وأسرتها.. الخ، وخاصة والدها "دوق كنت" تتعلق بوراثة العرش البريطاني، وهي قصة مكر يهودي عظيم على حد تعبيره.

مونتفيوري صياد ملوك

أقتطف من المعلومات حول موسى مونتفيوري، بعض ما ذكره الأستاذ نويهض في ما يلي:

- عاش هذا الرجل من حكماء صهيون مئة سنة.
- كان غنياً. وبعد الأربعين من عمره انقطع عن جمع المال، وعكف على إحياء اليهودية في فلسطين.
- كان مشروع مونتفيوري أن يستأجر من محمد علي ١٠٠- ٢٠٠ قرية في شمال فلسطين: صفد وطبريا وما إليهما ٩٠ سنة، على أن يدفع الأعشار المقررة كل سنة سلفاً دفعة واحدة، بزيادة ١٠- ٢٠ بالمائة على معدل تخمين الأعشار وقتئذ. فوافق محمد علي. ولم يمنع تنفيذ المشروع سوى حادث اليهود في الشام – خطف الأب توما وخادمه ابراهيم وانسحاب ابراهيم باشا.. من الشام..

- لما حكم على اليهود الجناة في قضية الأب توما، وهم نحو عشرة، استغل مونتفيوري الصلة التي كانت له مع القصر الملكي البريطاني، وحصل سنة ١٨٤٠ على رسالة شفاعة من الملكة فكتوريا إلى محمد علي. "هذه الرسالة مع المال أطلقا سراح الجناة ".

- عندما شب عن الطوق نقله عمه إلى لندن ووضعه في أعمال مصرفية، وجعل عليه رقابته الدقيقة وكان يمده بالإرشاد والملاحظات. وتولى مناصب مالية دقيقة في خزانة البلاط البريطاني.

- كانت مهنة الصيرفة عالية المستوى في لندن محصورة في عدد قليل قد لا يزيد عن اثني عشر صرافاً كبيراً، وهذه المهنة تحتاج إلى رخصة عالية، وهذه الرخصة تمهد الطريق للاتصال بالقصر فحصل مونتفيوري على هذا كله. وعندما بلغ حدود الأربعين كان قد استطاع أن يجمع ثروة.

ملحق

يـــهود دمشـــق

يلفت النظر الدكتور يوسف نعيسة في كتابه "يـــهود دمشـــق"[1] منـــذ البداية إلى أنهم اعتُبروا " في الديار الإسلامية مـــن أهـــل الذمـــة، شـــأن النصارى والصابئة" وكان عليهم دفع مال الجزية مقابل حماية الإسلام لهم، وكانوا يُعفَون من الخدمة العسكرية. وكان هؤلاء مثل اليهود فـــي البلـــدان العربية قاطبة مندمجين في حياة العرب، متمتعين بجميع الحقوق التي يتمتع بها المواطنون العرب. وفي الوقت الذي " عاشوا فيه فـــي أوروبـــا داخـــل الغيتو، وتعرضوا للاضطهاد الديني، كانوا في البلدان العربية يشعرون بأنهم جزء من المجتمع المحلي، مع احتفاظهم بحريتهم الدينية وتراثهم وانتمائهم الطائفي " .

---

[1] – منشورات دار المعرفة – دمشق – الطبعة الأولى ١٩٨٨

ويرجع الدكتور نعيسة الوجود اليهودي في الوطن العربي إلى موجات متتالية من الهجرة كان أقدمها في القرن السادس قبل الميلاد. وقد ذاب اليهود في كتلة أهل البلاد وتكلموا العربية إلى جانب استخدامهم بعض العبارات العبرية في سلامهم خاصة يوم السبت، " ولم يختلف يهود بلاد الشام عن الشاميين من حيث الأخلاق والعادات إلا فيما يتعلق بالعقيدة الدينية الخاصة بهم، وكان لأسمائهم دخل قوي في الألفة مع مسلمي الشام، فكانوا يسمون أبناءهم أسماء عربية.. كصبحي وصبري وعارف ومراد.. الخ " ثم " ظهرت تسميات أجنبية بفعل هجرات السفارديم والأشكنازيين مثل بوليتزا واليوكا واستير"[1].

.. وبعد زوال الدولة العربية في الأندلس، كان العثمانيون قد حكموا بلاد الشام، وفي الآن ذاته، فإن الحكام الإسبان الجدد في اسبانيا أخضعوا اليهود إلى محاكم التفتيش، مما أدى إلى موجة الهجرة اليهودية الأولى.. وفي بداية القرن التاسع عشر أتت موجة أخرى من أوروبا الشرقية ضمت اليهود الأشكنازيين الذين كانوا يتكلمون لغة "اليديش".

وأخذت الهجرات تتوالى، وإن تكن قد تزايدت في النصف الثاني من القرن الماضي إثر ظهور الحركة الصهيونية.. مما أدى إلى تناقص عددهم.

---

[1] - يهود دمشق - ص ٨

يذكر الدكتور نعيسة أرقاماً لتعداد اليهود في دمشق حسب تقديرات الرحالين، يبدو أن أقربها إلى الواقع هو تقدير " بورتر PORTER" في منتصف القرن الماضي "٤٦٣٠ نسمة". وقد رأى أن هجرة بعض يهود دمشق ولا سيما القراؤون إلى تركيا أواسط القرن التاسع عشر أدت إلى تناقص عددهم. في حين كان عدد سكان دمشق مئة وخمسين ألفا تقريباً[١]. وقد توزع اليهود في أحياء سكنية خاصة بهم داخل أسوار دمشق..

ولا بأس من الإشارة إلى أنه " كان لكل حارة من حارات اليهود شأن حارات دمشق الأخرى، طالع ماء خاص بها لتوزيع المياه على مساكنها، ولها باب كبير يقفل عند الحاجة، وعليه حراس من أبنائها[٢] " وكانت كنسهم مقامة ضمن أحيائهم السكنية، وكانت لهم أيضاً أوقاف خيرية سجلت في سجلات محاكم دمشق المختلفة[٣]..

ويرصد هذا الباحث الكريم أسماء الأسر اليهودية من خلال سجلات المحاكم وشواهد القبور، فيلاحظ أن معظم هذه الأسر في دمشق هي من أصول عربية، والقليل منها من أصول سفاردية أو اشنكازية[٤]. ولم يبرز من

---

[١] -يهود دمشق – ص ٩

[٢] - المصدر السابق – ص ١٢

[٣] - المصدر السابق – ص ١٣

[٤] - يهود دمشق – ص ١٦

هذه الأسر في مجتمع دمشق إلا النفر القليل منها خاصة في المجالات الصيرفية والاقتصادية كأسرة فارحي وشناعة وأبو العافية وشحادة وخضر وغيرها. وأبرز الأسر اليهودية على الإطلاق كانت أسرة " فارحي " أندلسية الأصل وقد اشتهرت هذه الأسرة في بلاد الشام " لتعاقب أفرادها على أمور الصيرفة والشؤون المالية وإدارة الخزينة في ولايتي دمشق وصيدا." .. ويُفصّل المؤلف في الحديث عما مر بهذه الأسرة في تاريخها من مد وجزر منذ أواسط القرن الثامن عشر، خلال قيامها بالجباية وإدارة شؤون المال في الدولة.. حتى أن حاييم فارحي أسهم في تعيين سليمان باشا ، والياً على صيدا بعد عزل أحمد باشا الجزار" وكان بإمكانه عزل وتولية مَنْ يريد من المسلمين دون أن يُعارَض .. وبلغ نفوذه درجة جعلته يتدخل في شؤون الدولة عامة، ويبعد عن إدارة المالية كل منافس لأبناء أسرته[1]".

ولكي نأخذ فكرة أكثر وضوحاً عن سيطرة بعض الأسر اليهودية في دمشق على شؤون المال، **فلنسمع ما قاله شاعر يهودي في هذا المجال:**

---

[1] – المصدر نفسه – ص ١٨

يهود هذا الزمـــان قــد بلغوا
غاية آمــالهم وقــد ملكوا
المــال منهم والجــاه عندهم
ومنهم المستشـــار والملك
يا أهل ذا العصر قد نصحتكم
تـــهوّدوا، قــد تهوّد الفلك[1]

.. فقد كان هؤلاء يسيطرون على التزام الجمارك إضافة إلى أعمـــال الدفتردارية العائدة لولاية الشام. والدفتردار كان السلطان يعيّنه أيام العثمانيين وكان منصبه يعادل منصب وزير أو مدير المال. أضف إلى ذلك أن اليـــهود أحكموا قبضتهم على كل ما يتعلق بالأمور المالية كالصيرفة والربا.

على أن الدكتور نعيسة لا ينسى أن يذكر "أن معظم صيارفة اليـــهود الذين تحكموا بمالية دمشق وابتزوا الأموال بطرق ملتوية أبدعوهـا دون أن يوقفهم أحد عند حدهم، هم من أصول سفاردية او اشـــكنازية، ممـــا دفـــع بالدماشقة لرفع الشكوى إلى استانبول فاستجاب الســـلطان محمـــود الثـــاني

[1] - المصدر السابق – ص ٢٠

وأصدر أوامره بعزل صيارفة اليهود من ديوان السراية والاستعاضة عنهم بغيرهم." وباشر والي دمشق بالتنفيذ .

ولكن ماذا كانت النتيجة؟

لقد كان أولئك الصيارفة اليهود حاسبين لكل شيء حساباً، ولذلك جعلوا حساباتهم وسجلاتهم جميعاً باللغة العبرية، ولم يكن في دمشق، من يتقن هذه اللغة سوى اليهود أنفسهم، حتى قيل " كأن دفاتر الديوان قد كتبت بالقلم القلفطيري[1]".

فما هو هذا القلفطيري؟ يقول المؤلف في الحاشية: "أطلقت هذه التسمية في دمشق على خط اليهود الذين يكتبون به تعاويذهم وآيات توراتهم ".. وهكذا، لم يكن أمام الوالي سوى أن يعيد المصروفين إلى مناصبهم.

من جانب آخر فإن هؤلاء الصيارفة تفننوا في ابتزاز فلاحي غوطة دمشق عن طريق التلاعب بالسندات وقيمة النقد "فأصبح بعضهم أغنى سكان دمشق . وما إن أزف القرن التاسع عشر حتى تملكوا جزءاً كبيراً من أراضي الغوطة [2]".

.. وبلغ بهم الأمر أنهم سيطروا على تمويل جردة قافلة الحج عندما كان يقع عبؤها على ولاية دمشق، وكانوا يجنون من خلالها مرابح كبيرة..

---

[1] – يهود دمشق – ص ٢٠

[2] – المصدر السابق – ص ٢٢

.. ولا يفوت مؤلف " يهود دمشق " أن ينبه إلى أن أسراً قليلة من اليهود في دمشق، كانت هي التي حازت الغنى والجاه الاجتماعي، أما معظم الأسر فإنها "عملت في حرف متواضعة.. لا بل محتقرة كحرفة البويجية أو حرف الغناء في المقاهي، أو حرفة تعزيل حفر فضلات الإنسان في المراحيض . وعمل بعضهم في **جمع الخرق البالية من المزابل وأقنية الماء والحارات، فكانوا يأخذونها ويغسلونها ويصنعون منها أكياساً يبيعونها للعطارين، لصر الرز والسكر والموالح ونحوها، أو يبيعونها للصرماياتية ليجعلوها حشواً للصرامي**[1]".. ثم يستعرض صناعات أخرى عملوا فيها: النسيج، النقش على النحاس، الصناعات الخشبية، الصباغة، العقادة.. الخ "ولكنهم لم يرتقوا في التنظيم الحرفي إلى مراتب قيادية.

.. في الآن ذاته فإن بعض اليهود عملوا في التجارة الداخلية ولا سيما تجارة الرقيق. وكان سوق الرقيق قرب خان الجمرك جنوب غرب الجامع الأموي.. وأما التجارة الخارجية فإنهم برعوا فيها وفي نهاية القرن الثامن عشر سيَّر تجار اليهود في دمشق مع غيرهم من التجار قوافل منتظمة إلى الساحل والداخل"[2] وارتبط بعض اليهود في تجارتهم مع استانبول والدول الأوروبية، وجعلوا مقراتهم في خانات دمشق التجارية. ولقد نما رأس المال

---

[1] – يهود دمشق – ص ٢٤

[2] – المصدر السابق – ص ٢٦

لدى هؤلاء نمواً هائلاً، وكان ذلك نتيجة طبيعية لقيام الثورة الصناعية في أوروبا، ودخول التجار اليهود في علاقات تجارية مع الدول الصناعية، مشكّلين أدواتها في تصريف منتجاتها في بلاد الشام. كان ذلك بالطبع في النصف الأول من القرن التاسع عشر، بعد أن فتح حكم ابراهيم باشا أبواب الشام على مصاريعها للقناصل والتجار الأوروبيين مما أدى إلى منافسة المنتجات الحرفية في دمشق وبلاد الشام بل .. إلى شلها تماماً. ونتج عن ذلك "ضرب الحرفيين وتغيير التركيبة الاجتماعية الدمشقية نفسها [1]".. وبالطبع فإن التجار اليهود كانوا هم المستفيد الأول.. من هذا التغيير.

.. " وليحافظ التجار اليهود على ما وصلوا إليه من الثراء " لجؤوا إلى الأجانب، فحصلوا على البراءات السلطانية التي تمكنهم من وضع أنفسهم تحت حمايتهم مثل : "الياهو نحماد واسحق زلطة تحت حماية قنصل النمسا في دمشق" وقدموا بيوتهم مقرات لأولئك القناصل فسكن القنصل الانكليزي المستر فارن في حيهم قريباً من بيت هارون هراري في زقاق القميم.. والقميلة[2]..

---

[1] – المصدر نفسه – ص ٢٧

[2] – المصدر نفسه – ص ٢٨

أسماء الأسر اليهودية في دمشق:

أورد د. يوسف نعيسة أسماء الأسر اليهودية في دمشق، في أواسط القرن التاسع عشر اعتماداً على "سجل المحكمة الكبرى" رقم ٢٥٠، وسجل "القسمة البلدية بدمشق ط رقم ٣٢٧ لعام ١٢٤٧ - ١٢٤٩ هـ والسجل رقم ٣٤٦ " محاكم دمشق" ١٢٥٢ - ١٢٥٣ هـ ومراجع أخرى:

هراري، أبو العافية، شناعة، اللاطي، لنداوا، الفتال، سلانيكي، لزبونا، فارحي، اسلامبولي، بيجوتو أو بتشوتو، نحماد، شمعة، الشلاح، كومان، شحادة، قوشة، كوراع، الأزمرلي ، أوديك، خطوب، دويك، زقزوق، ميرو، مراد، اللاوي، الترك، الرمانة، الحلبي، سروكو، ساعاتي، قواص، كمخة جي، بغدادي، سلمون، خليفة، حمرة، شديد، حصوة، دكاش، عطار، آرازي، صايغ، شالوح، بقاعي، أرليل، منة، داية، خالع، جرادة، سرور، شعليا، حاصباني، شما، دانيال، طوطح، قطش، كدع، سلامة، السكروج، خمري، مبزبز، سعد، شامة، السمكة، داود، يوسف، خضر، صبان، ميني، جرار، النجار، القبة، أوظن، حكيم، ندافيت، بخور، بازينة، اشكنازي[1].

[1] - يهود دمشق – ص ١٦

ملحق

ينتقمون حتى من الأموات

لست وحدي من يعلم أن كتاب " التوراة " المتداول بالأيدي بالعربية أو سواها من اللغات، لا علاقة له على الإطلاق بالكتاب الكريم الذي تنزل على سيدنا موسى عليه السلام قبل ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة تقريباً. وسبقت الإشارة إلى ذلك.

وهناك إجماع بين المؤرخين غير اليهود أن الأسفار الخمسة الأولى من هذا الكتاب: " التكوين، الخروج، اللاويين، العدد، التثنية " وضعها أحبار اليهود في القرن الخامس قبل الميلاد، على وجه التقريب أيضاً.. ثم توالى الأحبار الذين أتوا من بعد، في كتابة الأسفار الأخرى.

.. ومن هنا أذهب مع كثيرين إلى أن هذه الأسفار جميعاً، وقد فقدت صفتها القدسية، بعد أن امتدت إليها أيدي أولئك الناس، أمست أشبه بفصول في كتاب، تعكس أفكار واضعيها وعواطفهم.. ومواقفهم من جماعتهم ومن الآخرين.

.. ورأى أن أياً من الكتب الدينية السماوية أو الوضعية، لم يحفل بمثل ما زخرت به صفحات هذا الكتاب من مشاعر الحقد والكراهية. فإذا قلنا إن هذا يصور انفعالات وتصورات وأفكاراً تنتمي إلى زمن مضى، قبل قرون عديدة، فوجئنا، بمن يوري وينفخ في هذه الروح في زمننا الراهن، حتى لتتناسخ في صور ومواقف أعتى وأكثر تعصباً.. وكراهية.. وحقداً.

.. وعلى سبيل المثال نروي ما جرى لمومياء الفرعون رمسيس الثاني عام ١٩٧٥، مما حدثنا به أخيراً الأستاذ سعيد أبو العينين في كتابه "الفرعون الذي يطارده اليهود".[1]

إنهم يزعمون أنه هو الفرعون الذي اضطهد اليهود في مصر، قبل ثلاثة آلاف سنة، وسخّرهم في بناء مدينتين: "بيتوم" و "رمسيس"، وهو الذي أبغضهم إلى درجة أنه أراد منعهم من التناسل لئلا يكثروا[2]..

ماذا فعل هؤلاء الناس بعد ثلاثة آلاف سنة؟

إن ثلاثين قرناً لم تكن كافية لتهدئة خواطرهم، أو تبريد مشاعر الكراهية في نفوسهم. فهم يريدون أن يثأروا من رمسيس الثاني ميتا، وينفّسوا ما في القلوب – رغم مر التاريخ – من كراهية وأحقاد.

---

[1] – الفرعون الذي يطارده اليهود بين التوراة والقرآن – تأليف: سعيد أبو العينين –منشورات دار " أخبار اليوم" – القاهرة – ١٩٩٧

[2] – المصدر السابق – ص ٢٦

لقد قام الرئيس الفرنسي السابق فاليري جيسكار ديستان بزيارة مصر عام ١٩٧٥ وكانت الاستعدادات تجري في ذلك الوقت، لإقامة معرض في باريس لبعض آثار الفرعون رمسيس الثاني، ثم جاء من يهمس في أذن الرئيس الفرنسي: ماذا لو أضيفت مومياؤه إلى المعروضات[1]؟

رفضت هيئة الآثار في مصر، فكرة عرض المومياء في فرنسا رفضاً قاطعاً، إلا أن تدخل الرئيس السادات آنذاك إكراماً لعيني ضيفه، جعله يعطي موافقته المبدئية.

وفي تواقت مدهش ومدروس، ارتفعت أصوات، سُجّلت على صفحات الجرائد الفرنسية، وتدعو العالم إلى التدخل لإنقاذ مومياء رمسيس الثاني المريضة. وإن علاجها وإنقاذها عمل حضاري ينبغي أن تقوم به فرنسا.. بسرعة[2].

فمن الذي أخبرهم بان هذه المومياء مريضة.. ورجال الآثار المصريون أنفسهم يعلمون علم اليقين أن الخبر عارٍ عن الصحة.

كان وراء هذه الأكذوبة طبيب يهودي فرنسي، مغربي الأصل يدعى "بوكاي" – ولعله بكاي – وقد عرف بولعه بالآثار من جهة، وولائه التام للصهيونية من جهة ثانية. ليست المسألة بالطبع، إن كانت الدوائر الرسمية

---

[1] – المصدر نفسه – ص ١٤

[2] – المصدر نفسه – ص ٢٢

الفرنسية، قد استقبلت مومياء رمسيس الثاني استقبالاً يليق بملك عظيم عمّر حتى التسعين وحكم مصر سبعاً وستين سنة، أم لم تفعل. ذاك أن هذا الفرعون الذي وصفه الرئيس ديستان نفسه بأن الناس كانوا لا يمثلون أمامه إلا سُجَّداً، واضعين جباههم في التراب، غدا مريضاً خاضعاً للعلاج في متحف الإنسان في باريس، وأزيلت عنه لفائفه التاريخية ، وأخضع إلى أنواع من الأشعة لتعقيم جسده من الفطريات والبكتريات. وخلال ذلك، صُوِّر فيلم عنه – خلافاً لما اتفق عليه – وهو عار تماماً، بذلك الجسد، المتبقي بعد مرور ثلاثة آلاف سنة، عرضته إحدى قنوات التلفزيون الفرنسي في عشرين دقيقة[1].

لم تكن في جثمان رمسيس الثاني تلك الإشكالات المَرضية التي تدعو إلى العلاج، ذاك أن من هو في حاجة إلى العلاج حقاً، إنما هو ابنه الفرعون "مرنبتاح".

صحيفة "هيرالد تريبيون" كشفت الخدعة – الأكذوبة، قائلة : إنها مجرد حيلة يهودية، رتبت لإخراج رمسيس الثاني من مصر، ووضعه تحت الدراسة "لمعرفة أسرار شخصيته من خلال هذا الجسد الذي مازال يحتفظ بعد ثلاثة آلاف سنة بكل خصائصه وملامحه[2]".

---

[1] – الفرعون الذي يطارده اليهود – ص ٥٤

[2] – المصدر السابق – ص ٥١

وقالت صحيفة "أورور" الفرنسية اليمينية – الصهيونية حرفياً:

" إن فرعون الذي أخرج اليهود من مصر، أخرجه اليهود من مصر "[1].

.. وحين ظهر في التلفزيون هذا الملك الكبير، ردد المذيع الكاره المبغض الحامل أحقاداً وثاراتٍ عمرها ثلاثون قرناً، هذه الكلمات:

إليكم الفرعون الذي طارد اليهود قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام، الفرعون الذي اضطهد بني إسرائيل وسخّرهم في أعمال البناء والتشييد، وسامهم سوء العذاب. ها هو ذا الآن أمامكم. انظروا وشاهدوا[2].

إن جثمان رمسيس الثاني ظل صامداً طوال الألوف الماضية من السنين. وذهب إلى باريس مكشوفاً في تابوته الذي بقي فيه تلك الدهور. لكنه عندما عاد إلى مصر ، كان حبيساً في صندوق هو بمثابة غرفة إنعاش دائمة. بل إنه أمسى مهدداً بالتحلل والتحول إلى تراب إذا خرج من هذا الصندوق، وواجه الجو الطبيعي، مثلما كان طوال الأزمنة الغابرة..

بلى.. إنهم لا يتورعون عن الثأر والانتقام، حتى من الأموات، ولو بعد ألوف السنين..

يا لهذه النفوس ما أضعفها وما أصغرها..

---

[1] – المصدر نفسه – ص ٥٢

[2] – المصدر نفسه – ص ٥٤

الباب السابع

اليـــهود .. وفلسطيـــن

اليهود.. وفلسطين

ا- من بال ١٨٩٧ إلى فلسطين ١٩٤٧.

ب- لماذا قتل اليهود برنادوت.

ج- المفكر الفرنسي روجيه غارودي يفند الأكاذيب اليهودية عبر التاريخ.

د- إسرائيل لن تعيش خمسين سنة أخرى.

من (بال) ١٨٩٧ إلى فلسطين ١٩٤٧

مرّ سنة ١٩٩٧ قرن كامل على عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة (بازل) السويسرية في شهر آب / أغسطس ١٨٩٧ . مرّ أيضاً ثمانون سنة على صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ وهو الذي اعتدنا نحن العرب منذ عقود كثيرة على وصفه بالمشؤوم وكان ذلك قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى بسنة واحدة تقريباً.

يقترن هذان التاريخان بشخصيتين، لعلهما من أهم الشخصيات في تاريخ الحركة الصهيونية الحديثة – وهناك حركات صهيونية قديمة – إن لم تكونا أهمَّها على الإطلاق. وفي الإمكان وصف الشخصية الأولى بأنها نظرية، وهي تتمثل في "تيودور هرتزل ١٨٦٠ – ١٩٠٤" أما الشخصية الثانية فإن ممثلها هو حاييم وايزمن، عالم الكيمياء روسي الأصل الذي استوطن بريطانيا قبيل الحرب العالمية الأولى، ويمكن أن يوصف بأنه عملي براغماتي .. فعَّال.

ثمة مؤشران في شخصية هرتزل، هذا الصحفي ، أو الكاتب النمساوي المولود في المجر في ظل الإمبراطورية النمساوية المجرية، والذي تلقى

دراسته في "فيينا" فتخرج من كلية الحقوق فيها، وعمل مراسلاً لإحدى صحفها في باريس.

كان هرتزل في الرابعة والثلاثين من عمره، حين أثيرت قضية الضابط الفرنسي اليهودي "دريفوس" الذي اتهم بالتجسس لحساب ألمانيا.. وأحدثت محاكمته ضجة واسعة في الرأي العام الفرنسي. ذاك أن الأوساط الكارهة لليهود في باريس صبت نقمتها على ذلك " الجاسوس اليهودي " في حين استقطب اليهود بما لديهم من إمكانات مالية وإعلامية في العاصمة الفرنسية، مشاعر العطف وخاصة في الأوساط الثقافية، حتى إن بعض الكتاب الكبار مثل (اميل زولا) في مقالته المشهورة: "إني أتهم" والموجهة إلى رئيس جمهورية فرنسا يومذاك، انحاز إلى جانب "دريفوس" وليس.. اليهود – لأن محاكمته كانت تنطوي على شيء من التحامل ضده. ولسنا ندري، ما إذا كان مصطلح "ضد السامية" "Anti – Semitic" مستعملاً قبل هذه المناسبة. لكنه استخدم بوفرة في أثناء المحاكمة وبعدها.. وحتى بعد إعادة المحاكمة لردّ الاعتبار لدريفوس.

بعد قضية دريفوس

يقول " آلن تايلر" صاحب كتاب "مدخل إلى إسرائيل[1]" إن هرتزل وصل بعد قضية دريفوس "إلى نتيجة هي أنه إذا كانت فرنسا بلد الحريات، يمكن أن تهب عليها عاصفة من هذا النوع، فمعنى ذلك أن في الإمكان أن تتخذ معاداة السامية أشكالاً أشد عنفاً وقسوة، من سائر بلاد أوروبا التي ليس لها أي حظ من التحرر الفرنسي ".

لقد أصدر هرتزل كتابه "الدولة اليهودية" في السنة نفسها التي حوكم فيها دريفوس، واقترح فيه إقامة "مستعمرة يهودية" تحت وصاية بريطانية في فلسطين أو الأرجنتين، على أن تنمو رويداً رويداً، إلى درجة تصبح معها دولة يهودية قومية مستقلة ذات سيادة.. ومادام الأمر سواء، إن أقيمت تلك المستعمرة في الأرجنتين أو في فلسطين، فذلك يبرر ما انتبه إليه النقاد باستمرار، من أن "الحركة الصهيونية هي حركة عملية واقعية لا مذهبية. حركة سياسية للرد على مشكلة سياسة معينة لا لتحقيق نبوءة دينية".

وقد أكد ألن تايلر، هذا المعنى في كتابه المذكور.. وكان الكاتب الراحل أحمد بهاء الدين قد عرضه في كتابه الهام: "إسرائيليات".

---

[1] – اسرائيليات وما بعد العدوان – تأليف: أحمد بهاء الدين – الطبعة الرابعة – دار الهلال ١٩٦٩ – ص ٧ وما بعد.

ردود أفعال اليهود على كتاب هرتزل:

كانت ردود الأفعال التي صدرت عن الأوساط اليهودية في أوروبا والولايات المتحدة إزاء صدور كتاب "الدولة اليهودية" إيجابية إلى حد أنها شجعت مؤلفه على الدعوة لعقد أول مؤتمر صهيوني عالمي. وهي الفكرة نفسها التي اقترحها "ناتان برنباوم" موجد مصطلح "الصهيونية".

برنامج هرتزل في المؤتمر

وطرح هرتزل على هذا المؤتمر برنامجاً يتلخص في ثلاثة بنود:

أولاً: أن يقوم اليهود بهجرة منظمة واسعة إلى فلسطين.

ثانياً: الحصول على اعتراف دولي بشرعية الهجرة.

ثالثاً: إنشاء منظمة دائمة تلم شمل اليهود في أنحاء العالم، في نطاق الحركة الصهيونية.

لقد وردت مسألة الاعتماد على دعم الدولة الأجنبية، من أجل الهجرة والاستيطان في فلسطين، في البند الثاني، الأمر الذي يوضح الأهمية القصوى التي أولاها إياها هرتزل. وهو الموضوع نفسه الذي مازال قائماً حتى

اللحظة.. فمهما تُوْتَ إسرائيل من أسباب القوة، على اختلاف مجالاتها فإنها ستنهار من الداخل والخارج، عندما يتأكد زوال الدعم الأجنبي لها.

حساب الدول الكبرى عند الصهاينة

من كان الأجانب الأقوياء يومئذ؟ أو من هي الدولة القومية أواخر القرن التاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين؟

إنها إحدى هذه الدول: ألمانيا. بريطانيا. الولايات المتحدة. ولم يكن يحسب حساب كبير لروسيا القيصرية في ذلك العهد. أما الإمبراطورية العثمانية التي كانت تدعى في أوروبا " الرجل المريض " فقد كانت لها أهميتها الخاصة في مشروع هرتزل وذلك مرهون بوقته.

كانت العلاقات طيبة في تلك السنة ١٨٩٨: بين الإمبراطور العثماني عبد الحميد والقيصر الألماني غليوم الثاني، فدعاه السلطان لزيارة إمبراطوريته. فما إن علم هرتزل بهذا الخبر، حتى شد الرحال إلى استانبول، لمقابلة غليوم الثاني، ولم يكن صعباً على اليهود واسعي النفوذ في العاصمة العثمانية، أن يوفروا ويسهلوا مثل هذا اللقاء.

هرتزل وقيصر ألمانيا

اقترح هرتزل إنشاء شركة لاستثمار الأراضي في فلسطين، يقوم بها الصهيونيون تحت حماية ألمانيا وإشرافها. لم يعط القيصر الألماني جواباً بل وعد بدراسة الفكرة. وعندما التقى هرتزل به ثانية في فلسطين – القدس – بعد زمن غير طويل: ٢ تشرين الثاني /نوفمبر ١٨٩٨ – ووواضح أنه كان يلاحقه ويتابعه – كان القيصر قد قرر رفض الفكرة " لأن الإمبراطورية العثمانية الصديقة ستعد هذا العمل تدخلاً غير مباشر في شؤونها " مع السلطان العثماني.

.. ودار هرتزل حول نفسه، وقرر مقابلة السلطان عبد الحميد في استانبول، فكان له ذلك في شهر أيار /مايو ١٩٠١ وقدم أمامه عرضاً مذهلاً: أن يوافق عبد الحميد على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، مقابل تعهد بتسديد ديون الدولة كلها، وتقديم مبلغ ضخم للسلطان قدره مئة وخمسون مليون ليرة انكليزية ذهباً. وقد رفض عبد الحميد العرض، رفضاً قاطعاً.[1]

[1] – يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته انه خاطب وسطاء هرتزل بقوله: "انصحوا الدكتور هرتزل بألا يتخذ خطوات جديدة في هذا الموضوع. إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض، فهي ليست ملك يميني، بل.. ملك شعبي. لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض، ورواها بدمه. فليحتفظ اليهود بملايينهم. إذا مزقت امبرطوريتي، فلعلهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن. ولكن يجب أن يبدأ ذلك التمزيق أولاً بجثتنا، فإني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا، ونحن على قيد الحياة." صراع على أرض الميعاد – محمد عطا – دار القلم – المكتبة الثقافية – القاهرة ١٩٦١ – ص٢٦-٢٧

وهناك من يرى أن ذلك كان بين الأسباب التي دفعت الاتحاديين إلى الإطاحة بالسلطان عبد الحميد. وقد ذكر هذا الأمر السلطان نفسه في رسالة بخط يده[1] تاريخها ١٣٢٩هـ، وهي محفوظة حتى الآن لدى آل أبو الشامات في دمشق.[2]

[1] - مجلة العربي – العدد ١٦٩ – سنة ١٩٧٢ وقد نشرت صورة عنها بالتركية، إضافة إلى ترجمتها إلى العربية.

[2] -ورد في الرسالة المذكورة مايلي: "إنني لم أتخلَّ عن الخلافة الإسلامية لسبب ما، سوى أنني، بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم "جون تورك" وتهديدهم، اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة."

ويستطرد قائلاً: "إن هؤلاء الاتحاديين قد أصرّوا وأصرّوا عليَّ بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين) ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف. وأخيراً وعدوا بتقديم مئة وخمسين مليون ليرة انكليزية ذهباً، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي:

"إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً، فضلاً عن مئة وخمسين مليون ليرة انكليزية ذهباً فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي. لقد خدمت الملّة الإسلامية والأمة المحمدية مايزيد على ثلاثين سنة، فلم أسوِّدْ صحائف المسلمين، أبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين. لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضاً."

وينتهي السلطان عبد الحميد إلى القول أخيراً: "وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى سلانيك".

لابد من العودة إلى بريطانيا

لقد عبر الكاتب الأمريكي تايلر عن الفكرة السابقة، بأسلوب أكثر دبلوماسية، مؤداه "أن يقوم اليهود بمساعدة السلطان على تنظيم المالية التركية المرتبكة، واستثمار الأراضي المهملة في الإمبراطورية مقابل السماح بالهجرة إلى فلسطين".

.. وهكذا لم يبق أمام هرتزل، إزاء الإخفاقات المتكررة، سوى أن يعود إلى اقتراحه الأول: اللجوء إلى بريطانيا كداعمة للحركة الصهيونية.

وشهد عام ١٩٠٢ مباحثات جدية أجرتها المنظمة الصهيونية مع الحكومة الإنكليزية لمنح اليهود جزءاً من شبه جزيرة سيناء، يقيمون فيه وطنهم القومي أو "مستعمراتهم".. كجزء من الإمبراطورية البريطانية.

يقول آلن تايلر إن هذه المباحثات توقفت، لأن بريطانيا وجدت معارضة مصرية "لسنا نعرف قصتها بالضبط" إلا أنها كما يرى " أول إشارة إلى معارضة العرب إقامة وطن قومي يهودي على أراضيهم".

في المؤتمر الصهيوني السادس

.. وبعد سنة أي عام ١٩٠٣ قدم هرتزل إلى المؤتمر الصهيوني السادس مشروع الاتفاق الذي توصل إلى عقده مع الحكومة البريطانية، ومؤداه "فتح أوغندة للمنظمة الصهيونية، من أجل تعميرها والاستيطان فيها".

ولكن المؤتمرين الصهاينة لم يتحمسوا كثيراً للمشروع، واكتفوا بأن أرسلوا بعثة إلى أوغندة لدراسة الأوضاع فيها، وإمكان تحقيق مثل هذا المشروع.. وكان ثمة من يشجع الاستيطان في فلسطين.. ويحرّض على العمل في سبيله..

.. وتوفي هرتزل.. دون أن تتمخض الحركة الصهيونية عن نتيجة تذكر في هذا الموضوع. إلا أن المؤتمر الصهيوني السابع الذي عقد بعد موت هرتزل، اتخذ قراراً أعلن أن الحركة الصهيونية يجب أن تسعى من أجل إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.. تحديداً.

الهجرة إلى فلسطين

وهكذا بدأت مساع حثيثة للهجرة إلى فلسطين. وخلال تسع سنوات بين عامي ١٩٠٥ – ١٩١٤ وهي سنة اندلاع الحرب العالمية الثانية وصل إلى فلسطين إثنا عشر ألف مستوطن يهودي أقاموا في تسع وخمسين مستعمرة كما يذكر آلن تايلر. في هذه الأثناء كانت الحركة الصهيونية قد انتقلت لتضع كل ثقلها إلى جانب الحكومة البريطانية، خاصة بعد ذهاب رئيس الوزراء "اسكويث" الميال إلى العرب، على الرغم من أن الحكومة البريطانية، اتخذت للمرة الأولى، خطوات جدية ورسمية لصالح الصهيونية، لكنها "مشوبة

بالحذر" فقد كان من رأي "اسكويث" استمالة العرب ليكونوا حلفاء بريطانيا في الشرق الأوسط.[1]

وكانت كتلة كبرى بين يهود أوروبا ما تزال تؤمن بأن حل مشكلة اليهود ستؤدي إلى زيادة النزعة المعادية لليهود:" ضد السامية " في أوروبا.. بدلاً من إطفائها.

من لويد جورج إلى وايزمن

ههنا، مع مجيء "لويد جورج" الذي أفلح الصهاينة في استمالته إلى جانبهم، رئيساً للوزراء، وانتقال الكيميائي اليهودي "حاييم وايزمن" للعمل في لندن.. بدأت صفحة جديدة في تاريخ الحركة الصهيونية.

"كانت بريطانيا تبحث عن طريقة علمية لإنتاج مادة الأسيتون واستخدامها في إنتاج المتفجرات بكميات كبيرة" في أثناء العمليات الحربية، خلال الحرب العالمية الأولى. وعكف وايزمن يعمل سنة كاملة في أبحاث متصلة لهذا الغرض، حتى نجح أخيراً في إنتاج المادة المطلوبة.[2]

[1] – اسرائيليات وما بعد العدوان – أحمد بهاء الدين – ص ١٨

[2] – المصدر نفسه – ص ١٨

برناردشو.. يتحدث عن وايزمن

وقد تخيل الكاتب الانكليزي – إيرلندي الأصل، الكاره للاستعمار والصهيونية جورج برناردشو، ما حدث بعد ذلك بين وايزمن واللورد بلفور وزير الخارجية البريطاني، في مسرحية من فصل واحد. **فقد عرض بلفور على وايزمن مالاً مقابل الإنجاز العلمي الذي حققه لدعم المجهود الحربي البريطاني، فرفض المال. وعرض عليه الألقاب العليا فرفضها أيضاً.** وعندئذ سأله بلفور: عهدي أنك يهودي، واليهودي يعبد المال وقد رفضت المال والألقاب، التي تعوض اليهودي عن المذلات التي يواجهها في مجتمع يكره اليهود، فما الذي تريد؟

قال وايزمن: وعداً من حكومة صاحب الجلالة، بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

وكانت الحكومة البريطانية تعرف قبل ذلك منذ بدء الحرب أن فلسطين هي الثمن الذي كان يمكن بواسطته كسب تأييد اليهودية العالمية كلها، وقد أصبح لها وزن آخر، بعد قيام حركة صهيونية منظمة، إلى جانب الحلفاء.

روتشيلد ينضم إلى الجوقة

خلال ذلك كان المتمول اليهودي الكبير البارون إدموند روتشيلد قد تصهين على يد وايزمن، وانضم بكل ثقله المالي، إلى الحركة الصهيونية[1]. وعُيِّن وايزمن في مركز مرموق في وزارة الحربية البريطانية.. وعندما صدر وعد بلفور ١٩١٧، كانت الحركة الصهيونية قد ضمنت موافقة فرنسا، وكانت روسيا موافقة، والبابا نفسه موافق، والرئيس الأمريكي ويلسون موافق..

وانطوى وعد بلفور على البنود الثلاثة التالية:

١- تأييد بريطانيا إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

٢- تعاون بريطانيا مع اليهود لهذا الهدف.

٣- أن لا يؤثر هذا على حقوق المجتمعات غير اليهودية الموجودة في فلسطين، ولا على حقوق اليهود الموجودين في مختلف أنحاء العالم.

نقطة تحول حاسمة

ومع أن الحركة الصهيونية كانت تريد من حكومة صاحبة الجلالة، أكثر من هذا الوعد، إلا أنه كان بمثابة نقطة تحول حاسمة في التاريخ

[1] - اسرائيليات وما بعد العدوان – ص ٢٣

اليهودي كله، وأضفى على جهودهم في الهجرة والاستيطان، صبغة شــرعية دولية. **وفي المقابل ، كانت الأمة العربية، في حالة اختفاء شبه كامل، عــن المشهد العالمي، وعن أي شكل من أشكال القوة أو النفــوذ حتــى حالــة " الكمون – كمون القوة" لم يكن وارداً الحديــــث عنــها.** علــى حيـن راح الاتحاديون المتصهينون يتلاعبون بمقدراتها، على نحو مخيف إبــان وقــائع الحرب الأولى، فيما شبكات الجاسوسية الصهيونية – البريطانيــة برئاســة الجاسوسة المشهورة "سارة أرونسون" ورفيقها المعتمد إلى أقصـــى حـدود الاعتماد عند العرب الهاشميين " لورانس" تفتك بالجنرال جمال باشا وضباطه وتستنطق أسرارهم في المواخير اليهودية في بلاد الشام، وترسلها مباشـــرة إلى قوات الحلفاء في مصر وسواها[1].

حتى.. في سايكس بيكو

.. كان للصهيونية واليهود دور كبير حتى في المعـــاهدة المشــؤومة المسماة " سايكس – بيكو " فما إن عين " مارك ســايكس " معاونــاً لوزيــر الحرب البريطاني عام ١٩١٥ وغدا الشرق الأوسط ضمن اختصاصاته، حتى التفّت حوله أذرع الأخطبوط الصهيوني، فوقع في شباك " موسى جاســتر "

[1] – سارة المرأة التي هدمت الإمبراطورية العثمانية– لطفي اكدوغان – دار طلاس– دمشق ١٩٩٥ – تقديم ومراجعة : د. محمد محفل

واعترف كما يقول ألن تايلر، بأن هذا هو الرجل الذي جعله نصيراً للصهيونية. وخلال محادثاته مع وزير الخارجية الفرنسي "جورج بيكو"[1] قال:

" إن إعطاء الصهيونية حق إقامة وطن قومي في فلسطين هو الورقة الوحيدة التي يمكن بها كسب يهود العالم، بمن فيهم يهود أمريكا".

وفيما كانت تجري هذه المحادثات لتقاسم النفوذ بين بريطانيا وبين فرنسا في الوطن العربي – مع مباركة روسية – وكانت هاتان الدولتان تبذلان أقصى الجهد لكسب تأييد اليهود الأمريكيين، كان العرب بقيادة الهاشميين، يقاتلون القوات التركية، في عماء سياسي – فكري شبه مطبق، ولمصلحة الدولتين الحليفتين اللتين لم تلبثا، كما هو معروف أن أدارتا لهذه الأمة ظهر المجن مع انتهاء الحرب..

الصهيوني ونستون تشرشل

لقد استمر التواطؤ البريطاني مع الحركة الصهيونية، حتى وقعت الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩. وحين شكل ونستون تشرشل الوزارة عام ١٩٤٠ " لم يكتسب الصهيونيون رئيس الوزراء الجديد ذا الميول الصهيونية فحسب، بل كسبوا أيضاً وجود وزراء آخرين في هذا الاتجاه".[2]

---

[1] – اسرائيليات وما بعد العدوان – ص ١٩–٢٠

[2] – اسرائيليات وما بعد العدوان – ص ٢٥

"ونجح وايزمن في إقناع الحكومة البريطانية بتكوين فرقة يهودية تقاتل إلى جانب الحلفاء، وإلغاء الاتجاه المضاد الرامي إلى تكوين فرقة فلسطينية – عربية ويهودية.

وكانت هذه الفرقة اليهودية، هي نواة جيش إسرائيل الذي حارب خلال الساعات الحرجة التي تلت إعلان قيام دولة إسرائيل[1]".

وفي أثناء هذه الحرب، كانت القوات البريطانية بين عامي ١٩٤٧-١٩٤٨، كلما انسحبت من مدينة أو منطقة أو بلدة فلسطينية، سلمتها إلى القوات اليهودية مع أكبر مقدار ممكن من العتاد الحربي والذخيرة.

وعلى الرغم من أن جامعة الدول العربية لم تكن قد بذلت جهوداً كبيرة وهي تتمطى وتتثاءب في ربيع ١٩٤٨، إلا أن لجنتها السياسية اجتمعت في ١٣ نيسان /إبريل سنة ١٩٤٨ وأصدرت قرارا بتحريك الجيوش العربية ودخول فلسطين، إثر انسحاب القوات البريطانية " لئلا يحدث صدام بينها وبين هذه القوات[2]".!!

---

[1] - المصدر نفسه – ص ٢٥

[2] - صراع على أرض الميعاد – محمد عطا – ص ٩٤

أوضاع لا يحسد عليها العرب

لقد دخلت الجيوش العربية فلسطين في ليل ١٥ أيـــار /مـــايو ١٩٤٨ فكيف كانِ وضع هذه الجيوش؟.

إن قصة "الأسلحة الفاسدة" التي انكشفت بعد ثورة ٢٣تمـــوز ١٩٥٢، كانت بين الأسباب التي أدت إلى تصميم عدد من ضباط الجيـش المصــري الذين شعروا بالخيانة خلال أحداث الحرب، على الإطاحـــة بحكـم الملـك فاروق..

كانت قيادة الجيش الأردني في يد الإنكلـيز مباشـرة. أمـا الجيـش العراقي فقد كان الضالعون مع الإنكليز والصهاينة هم الذين يقودونه. وكان الجيش اللبناني أقرب إلى أن يكون قوات لحفظ الأمن منه إلى جيش مقـاتل بمعنى الكلمة. والجيش السوري كان جيشاً صغـيراً،[1] ولـم يكـن مـزوداً بالأسلحة التي زود الحلفاء بها الدولة الجديدة إسرائيل.

والطائرات المعدودة الصغيرة ذات المحرك الواحد، وهي غير مقاتلــة أصلاً، استخدمت في المعارك، وكان طياروها يلقون بما يحملون من قنـابل، بأيديهم من نوافذها على العدو. في حين كانت لدى الصهاينة أحدث الطائرات الحربية التي عرفت حينذاك باسم القلاع الطائرة، ذات الأربع محركات.

---

[1] - المصدر السابق – ص ٩٦

خاضوا غمار الحرب.. منة وفضلاً

أضف إلى ذلك أن "الحكومات العربية آنذاك لم تكن مؤمنة إيماناً عميقاً بالقومية العربية، ولم تكن مدركة الخطر الصهيوني الذي يتهدد كيان الأمة العربية، فخاضت غمار الحرب كمنة منها.. وفضل"[1].

يقول محمد عطا في كتابه "صراع على أرض الميعاد":

"أمّا عصابات إسرائيل، فكانت تحارب عن عقيدة راسخة استطاع زعماء الحركة الصهيونية أن يغرسوها في نفوس أفرادها، عن طريق توراتهم وتلمودهم اللذّين يمجّدان الشعب الإسرائيلي، ويجعلانه شعب الله المختار، ويقولان إن سيادة العالم ستكون له أخيراً.

واستطاعت الحركة الصهيونية في بريطانيا والولايات المتحدة، أن تبعث إلى إسرائيل ، " ثلاثين سفينة محمّلة بالمواد الغذائية والأسلحة الحديثة، وصلت إليها ليلة ١٤ – ١٥ أيار مايو ١٩٤٨، فكانت عاملاً هاماً في رفع معنويات المحاربين، وأمدتهم بعون رائع في أقسى لحظات مرت بهم"[2].

---

[1] – المصدر نفسه – ص ٩٦

[2] – المصدر نفسه – ص ٩٧

ويستقدمون الطيارين من أنحاء العالم

ويضيف محمد عطا أن العصابات الصهيونية استطاعت أن تستقدم طيارين متطوعين من بريطانيا والولايات المتحدة وجنوب إفريقيا. ويستطرد هذا الكاتب الغاضب قائلاً في كتابه الذي صدر في أيلول ١٩٦١، في الأيام الأخيرة من عهد الوحدة بين سورية ومصر:

" ومع أولئك، فقد استطاعت الجيوش العربية المتحركة أن تسجل انتصارات سريعة باهرة، حتى كانت قاب قوسين أو أدنىمن تل أبيب. ولكن الدول الكبرى، عندما رأت أن إسرائيلَ قد أحدق بها الخطر، وأنها في طريق الموت المحقق نهضت لمساعدتها وكلفت برنادوت أن يبذل ما في وسعه لوقف إطلاق النار تمهيداً لعقد الصلح بين الطرفين. وأخذت تضغط على الدول العربية وتهددها حتى أرغمتها في "حزيران/ يونيو على قبول وقف إطلاق النار لمدة أربعة أسابيع".

إسرائيل تستفيد منَ هذه الهدنة

خلال هذه الهدنة المفروضة لصالح إسرائيل استطاعت عصاباتها الإرهابية أن تحصل على طائرات ودبابات ومدافع ثقيلة، في حين أن الدول العربية لم تستطع أن تظفر بشيء، لأن الدول الكبرى كانت تلاحقها في كل مكان حتى لا تتزود بالسلاح.

وهنا انقلب ميزان القوى، وأصبحت كفة العصابات الإسرائيلية هي الراجحة. وعلى الرغم من ذلك، فقد رفض العرب مد أجل الهدنة أربعة أسابيع أخرى.

وتجدد القتال في التاسع من تموز/ يوليو ١٩٤٨، واستطاعت الجيوش العربية أن تواجه الموت وتقهره، فمضت في انتصاراتها إلى أن كان الانسحاب المفاجئ للجيش العراقي والأردني من اللد والرملة ورأس العين ومرج ابن عامر والجليل الغربي[1].

إن محمد عطا، يدخل بعد ذلك في التفاصيل القتالية فيذكر أن انسحاب **القوات العراقية والأردنية أدى إلى انكشاف ميسرة الجيش السوري، وميمنة الجيش المصري مما جعلهما في وضع غاية في الحرج،** ومكّن العصابات الصهيونية من الاستيلاء على بئر السبع والمجدل ونصف صحراء النقب من الجيش المصري وأضحت قواته محاصرة في الفالوجة.

وتحت ضغط الدول الكبرى وتهديدها فرضت الهدنة الثانية في ١٥ تموز/يوليو عن طريق مجلس الأمن واستجاب لها العرب وإسرائيل في ١٩ تموز ١٩٤٨.

وتوالت الهدنات والنكسات والخيبات لدى الجانب العربي، مقابل الدعم الذي لا حدود له من يهود العالم والدول الكبرى للحركة الصهيونية ممثلة

---

[1] - صراع على أرض الميعاد – ص ٩٨

بدولتها الجديدة: إسرائيل.. إلى أن وقعت الهدنة النهائية في جزيـرة رودوس في ٢٤ شباط/فبراير عام ١٩٤٩[١]..

ثم ماذا بعد، وبعد..؟

في بيت هشام شرابي بيافا

تحدث الدكتور هشام شرابي، المفكر الفلسطيني المعروف الذي يعيش في الولايات المتحدة منذ سنة النكبة، وهـو الآن مـدرس تـاريخ الفكـر الأوروبي الحديث في جامعة جورج تاون في واشنطن، في محاضرة ألقاهـا في ميونيخ في ٦ كانون الأول ١٩٩٦، فقال إنه زار مدينة يافا برفقة كاميرا هيئة الإذاعة البريطانية: " لم تتغير أبداً "ساحة الحناتير" إلا في بناية بلديتـها التي فجرتها بعد مغادرتي يافا مجموعة إرهابية يهودية في نهايـة ١٩٤٧".. وتابع يقول في المحاضرة التي ألقاها بالإنكليزية:[٢]

"زرنا منزلنا في حي العجمي، وهو الآن حي "الغيتو" العربـي حيـث يسكن أهل يافا الباقون هناك. كانت حديقة المنزل الأمامية علـى حالـها، وشجرة الياسمين التي كان والدي ينتقي منها زهرة كلما غادر البيت، كانت مزدهرة تستلقي على الحائط القديم ذاته. أعلمت أن عائلـة يهوديـة مـن

[١] - المصدر السابق – ص ١٠٠

[٢] - جريدة "الحياة" العدد ١٢٤٠٥ – تاريخ ١٤/ ٢/ ١٩٩٧

رومانيا تقيم في المنزل. وعندما اقترح المخرج أن أدخل البيت رفضت ذلك. لم أقو على رؤية القاعة التي أذكرها تماماً وغرفة الطعام.. والغرف الأخرى".

من ٦% إلى أكثر من ٧٣%

ومثل رسام معلم، يختزل ببضعة خطوط قوية صورة كاملة، يقدم الدكتور شرابي اللوحة التالية:

" ما إن بدأ الانتداب البريطاني على فلسطين، وكان عدد السكان اليهود لا يزيد على ٧٠ ألفاً (ولا يمتلكون أكثر من ٦% من إجمالي مساحة البلاد) حتى تزايد حجم الهجرة اليهودية. إلا أنها بقيت محدودة خلال العشرينات. وتفاقمت إثر وصول النازية إلى السلطة عام ١٩٣٣. لم يدرك الفلسطينيون آنذاك أنه سيأتي يوم يدفعون فيه ثمن المأساة التي لحقت باليهود في أوروبا.

وفي ١٩٤٧ حين صدور قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بين اليهود والعرب، كان عدد اليهود قد ارتفع إلى ثلث إجمالي السكان آنذاك. وأصبحت الجماعات اليهودية في فلسطين منظمة عسكرياً استعداداً للقيام بعمل عسكري ضد الفلسطينيين عند إعلان نهاية الانتداب البريطاني.

وخلال بضعة شهور تمكنت الهاغاناه (الجيش اليهودي السري) والجماعات اليهودية المسلحة الأخرى من إحكام قبضتها على معظم فلسطين:

٧٣% من أراضيها تقريباً، في عملية عسكرية منظمة ومدروسة. ونجحت في طرد معظم الفلسطينيين من المدن والبلدات الكبرى. وأفرغت مئات القرى التي احتُلّت في السهل الساحلي والجليل من سكانها ودمرتها، واستوطنها المهاجرون اليهود القادمون من أوروبا.

دول "حقوق الإنسان".. لم تتحرك

ولم تحرك أي دولة غربية ساكناً لإيقاف اقتلاع السكان المدنيين العزل من بيوتهم وأراضيهم وطردهم عبر الحدود الفلسطينية، أو لتنفيذ قرارات الأمم المتحدة الداعية إلى عودتهم إلى بلادهم وأراضيهم إثر توقف القتال.

.. والآن وبعد أكثر من ٥٠ عاماً لا يزال الفلسطينيون يقيمون في المخيمات "المؤقتة" في البلدان المجاورة، وفي الضفة الغربية ، وفي قطاع غزة، أو هم منتشرون في أنحاء من العالم سمح لهم باللجوء إليها ".

.. بلى.. إنه درس بليغ وقاس معاً، وهو طويل في الآن ذاته. يمتد من أيام الإمبراطور الفارسي الخَرِع "أحشويرش" وزوجته اليهودية الطاغية "أستير" .. مروراً بالمؤتمر الصهيوني الأول ، ووعد بلفور.. حتى الآن .. فهل ترانا نحن العرب، في ظل المتغيرات المذهلة التي يعيشها العالم في الشهور القليلة الأخيرة من القرن العشرين، قادرين على قراءة ذلك الدرس،

القراءة الضرورية الواجبة؟ وهل في استطاعتنا أن نستنتج المغزى الهام.. وأن نعرف حق المعرفة، كيف نتكاتف ونتضامن حقاً وصدقاً.. وكيف نعيد النظر جوهرياً، في علاقاتنا مع دول العالم المختلفة.. **فقد آن الأوان لنبدل خطابنا الإعلامي العالمي، ولنستخلص أكبر مساحات الود والتأييد بين دول العالم جميعاً لقضيتنا العادلة: فلسطين والأراضي العربية المحتلة؟**

ملحق

لماذا قتل اليهود برنادوت ؟

في احتفال حضره ملك السويد وامين عام الأمــــم المتحــدة ونجــلا برنادوت، أزيح الستار عن تمثال نصفي للوسيط الدولي فولـــك برنـــادوت الذي اغتاله الصهاينة في فلسطين في ١٧ أيلول ١٩٤٨م. كان ذلك في ١٤ تشرين الأول ١٩٩٨ م بعد مرور نصف قرن على الحادثة.

عندما وصل الوسيط الدولي فولك برنادوت Folk Bernadotte إلى مطـار اللد الدولي في ٢٤ أيار عام ١٩٤٨ م. لم يكن زمن طويل قد مضى علـــى صدور قرار التقسيم عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٩٤٧/١١/٢٩ م. لم يقبل به حينئذ طرفا الصراع في فلسطين: العرب واليهود . وفي الآن ذاته زادت حدة الصدامات والاشتباكات المسلحة بينهما. ذاك أن هـــذه الشـــهور تزامنت مع استعداد قوات الاحتلال البريطاني للانســـحاب مـــن فلســطين،

وتواطئها على تسليم مواقعها، وما يمكن من العتاد والسلاح العسكريين إلى القوات اليهودية المسلحة.

وفي الوقت نفسه أعلن بن غوريون رئيس الوزراء الإسرائيلي ان مشروع التقسيم مات. وأن الوضع في فلسطين ستقرره القوة العسكرية.

لقد نص قرار التقسيم على تخصيص الدولة اليهودية بما يساوي ٥٦% من ارض فلسطين، وعدد اليهود فيها ٤٩٨ ألفا مقابل ٤٩٧ ألف عربي أي إن العرب يتساوون عدداً مع اليهود.

أمّا االمناطق التي خصصها مشروع التقسيم للدولة العربية فتساوي ٤٣% وعدد السكان العرب فيها ٧٢٥ ألفاً أما اليهود فقد كانوا عشرة آلاف في هذه المناطق العربية.

ونص المشروع على أن تكون المنطقة الصغيرة المحيطة بالقدس منطقة دولية.

وعندما وصل برنادوت إلى فلسطين كان الإسرائيليون قد احتلوا ٧٧% من مساحة فلسطين بدل ٥٦% منها حسب منطوق قرار التقسيم. وفي الأراضي الجديدة لم يكن عدد السكان اليهود ليزيد على ٧% من عدد السكان[1].

---

[1] - فلسطين أوّلاً - تأليف: لوكاس غرولنبرغ - ترجمة: محمود فلاحة - وزارة الثقافة - دمشق ١٩٨٢ - ص ٩٥-٩٦.

الدول الخمس تختار برنادوت بالإجماع

لقد دعا الوضع المتفجر في فلسطين وتوالي الاشتباكات المسلحة بين العرب وبين اليهود، الجمعية العامة للأمم المتحدة أن تنعقد في دورة استثنائية ثانية، وأن تتخذ القرار رقم ١٨٦ بتاريخ ١٩٤٨/٥/١٤ م وقد نص على أن الجمعية العامة تفوض وسيطاً دولياً تختاره لجنة من ممثلي الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن، لممارسة المهمة التالية: " استعمال مساعيه الحميدة لدى السلطات المحلية والطائفية في فلسطين في سبيل إيجاد تسوية سلمية للوضع المستقبلي في فلسطين" على أن يرفع هذا الوسيط تقريراً شهرياً عن عمله أو "كلما رأى ذلك ضرورياً". إلى مجلس الأمن والأمين العام لرفع هذه التقارير إلى أعضاء الأمم المتحدة.

واختير فولك برنادوت بإجماع اللجنة التي عينتها الأمم المتحدة في ١٩٤٨/٥/٢٠م ليكون الوسيط الدولي المطلوب[1].

---

[1] – الموسوعة الفلسطينية – الطبعة الأولى ١٩٨٤ – المجلد (أ-ث) – دمشق – ص ٣٧٩

من هو برنادوت

كان في الأصل ضابطاً في الجيش السويدي، من أصل أرستقراطي، يشير إلى ذلك لقبه "كونت". وقبل ان يقع عليه اختيار الأم المتحدة كان يرأس لجنة الصليب الأحمر في بلاده منذ أيام الحرب العالمية الثانية. يقول الكاتب الهولندي لوكاس غرولنبرغ .[1]

" استطاع برنادوت في أثناء الحرب العالمية الثانية أن يفعل الشيء الكثير من أجل أسرى حرب كلا الجانبين، الألمان والحلفاء، بوصفه ممثلاً للصليب الأحمر، وان ينقذ آلاف اليهود من معسكرات الإبادة الهتلرية، وحين وصلت دعوة "تريغفي لي"- أمين عام الأمم المتحدة وقتئذ- كان برنادوت قد عاد لتوه من رحلة إلى اليونان، حيث قدم المعونة لأطفال لاجئي الثوار، وعمل على توزيع أعداد كبيرة من رزم الطعام السويدية على السكان الجائعين".

ولم يكن برنادوت جاهلاً بصعوبة المهمة التي أوكلت إليه وينتظره تنفيذها في فلسطين، فقد كان " على معرفة كافية بالنزاع في فلسطين تجعله يشعر أن فرص المصالحة والتوفيق ضئيلة جداً، وأن المهمة يمكن أن تزج به في مخاطر شخصية كبيرة، ولكنه قبل بها لمدة ستة أشهر شريطة ان

[1] - لوكاس غرولنبرغ – فلسطين أوّلاً – ترجمة : محمود فلاحة – وزارة الثقافة السورية – ١٩٨٢ – ص٩٨

ينال إجازة لحضور مؤتمر الصليب الأحمر في ستوكهولم، الذي نظمه هـو شخصياً، وكان سيتولى رئاسته ."[1]

برنادوت يحقق الهدنة الأولى

وما إن وصل برنادوت إلى فلسطين، حتى بدأ من فـوره محاولاته لترتيب إيقاف إطلاق النار بين الطرفين، فكان ذلك في ٩ حزيران ١٩٤٨م واستطاع أن يحقق الهدنة الأولى في ١٩٤٨/٦/١١م لكن ذلك لم يكن ليعني إيقاف إطلاق النار نهائياً، ومنع اندلاع القتال مرة بعد أخرى.

ولم يحاول أن يبعث بتقرير خطي إلى الأمين العام للأمم المتحدة هذه المرة، بل آثر أن يسافر جواً، كي يقدم تقريراً إلى مجلس الأمن في ١٣ تموز ١٩٤٨م يوضح فيه الإجراءات التي يرى ضرورة اتخاذها، بحزم ودون تأخير "وفيها فرض عقوبات على الجهة التي تخرق وقف إطلاق النار، وتجريد القدس من السلاح بإشراف الأمم المتحدة، والتدخل نيابة عن اللاجئين وباسمهم."[2]

وكان قبل أيام، قد توصل إلى عدد من المقترحات حول مستقبل الوضع في فلسطين، قدمها في ١٩٤٨/٦/٢٧م ثم أعد صيغة معدلة لهذه

---

[1] - المصدر السابق – ص ٩٨

[2] - المصدر نفسه – ص ٩٩

المقترحات عرفت باسم "مشروع برنادوت" وقد بعث به قبل اغتياله بقليـــل إلى الأمين العام للأمم المتحدة، لكنه نشر كوثيقة من وثائق الأمم المتحـــدة في ٢٠/٩/١٩٤٨م أي بعد ثلاثة أيام من اغتياله[1].

لم يكن معادياً لليهود

على الرغم من أن هذا المشروع تضمن في بنده الثاني نصـــاً يدعـــو العرب إلى الاعتراف بإسرائيل، فإن الإسرائيليين واجهوه بالرفض و الغضـب إلى درجة اغتيال صاحبه. وقد نصت المادة المذكورة على ما يلي:

" يجب أن يعترف العالم العربي أنه قد أصبح في فلسطين دولة يهودية ذات سيادة تدعى "دولة إسرائيل "وهي تمارس سلطاتها كاملـــة فـــي جميـــع الأراضي التي تحتلها"[2].

لهذا قتلوا برنادوت

ما الذي لم يعجبهم في هذا المشروع؟

١- لقد دعا في مادته الأولى إلى وجوب "عودة السلام العـــام الشامل إلى ربوع الأراضي المقدســـة" لكنـــه حمّـل الأمـــم المتحـــدة

---

[1] - الموسوعة الفلسطينية – ص ٣٨٠

[2] - المصدر السابق.

مسؤوليتها كي تتخذ "كل ما من شأنه إيقاف الأعمال العدوانية في فلسطين".

٢- أولى مسألة الحدود - حسب خريطة التقسيم اهتماماً كبيراً - واقترح إجراء تعديلات على قرار التقسيم، تضمنت "ضم منطقة النقب بما فيها مدينتا المجدل والفالوجة إلى الأراضي العربية" ومد خط " من الفالوجة إلى الشمال ثم إلى الشمال الشرقي من "اللد" اللتين ينبغي أن تخرجا من أراضي الدولة اليهودية". في المقابل فإنه رأى أن تضم "منطقة الجليل برمتها إلى الدولة اليهودية".

٣- قدم اجتهاداً في مسألة الحدود يستند إلى المنطق السليم ذاك أنه اقترح تعيين الحدود بين العرب وبين اليهود "على أساس الوحدة الجغرافية والجنسية على أن تطبق بين الطرفين بالتساوي دون التقيد بالحدود التي عينها قرار التقسيم".

٤- أعلن حيفا بما في ذلك منشآت البترول مرفأ حراً على أن تعطى الدول العربية المعينة منفذاً إلى البحر.

٥- اقترح وضع مدينة القدس تحت إشراف الأمم المتحدة نظراً لما لها من أهمية دينية ودولية.

٦- أكد على حق المهجرين الذين طردوا من بيوتهم وأراضيهم في العودة قائلاً: "يجب ان تؤكد الأمم المتحدة حق الناس الأبرياء الذين

شردوا من بيوتهم بسبب الإرهاب الحالي في العودة إلى ديارهم. كما ينبغي أن تدفع تعويضات لمن لا يرغب منهم في العودة"[1].

أما الدولة العربية الفلسطينية..؟

من جانب آخر، فإن أي إشارة لم تبدر داخل فلسطين أو خارجها، لإنشاء دولة عربية في الأراضي التي خصصها لها قرار التقسيم(؟) ولذلك فإن برنادوت ترك للدول العربية "أن تقرر مصير الأراضي العربية في فلسطين بالتشاور مع سكانها".[2]

يقول لوكاس غرولنبرغ إن الإسرائيليين أخبروا برنادوت في أكثر من مناسبة أن مقترحاته من أجل السلام لا ترضيهم أبداً.[3]

إذاً كان لابد أن يصنعوا شيئاً حسب منطق العصابات الذي كان سائداً في فلسطين المحتلة ونحن نعني هنا عصابة "شترن" تحديداً التي نفذت عملية اغتيال الوسيط الدولي. ولندع السيد غرولنبرغ يعرض لنا هذا السيناريو الفظيع:[4]

---

[1] – الموسوعة الفلسطينية – الطبعة الأولى – دمشق ١٩٨٤ – المجلد الأول – ص ٣٨٠ – ٣٨١

[2] – المصدر السابق

[3] – فلسطين أولاً – ص ٩٩

[4] – المصدر السابق – ص ٩٩

كيف قتلوا برنادوت؟

" في ١٧ أيلول، وحين كان (برنادوت) في الجو بطائرتـــه الخاصـــة بالأمم المتحدة، ذات اللون الأبيض، في طريقه من دمشق إلى مطار صغــير على مقربة من القدس، تلقى رسالة لاسلكية تقول إن النار ستطلق عليه إذا هبط هناك. ولكنه كان معتاداً على هذا النوع من التهديد، فتابع طيرانه وهبط بسلام. وكانت السيارة التي تنقله إلى القدس تتقدمها سيارتان أخريان. رفـــع على كل منهما علم الصليب الأحمر، بينما رفع على ســـيارته علـــم الأمـــم المتحدة. وفي إحدى الضواحي أوقف جنود إسرائيليون علــــى حيـــن غـــرة السيارات الثلاث. وأطلق أحدهم النار من رشاش "ستن" عبر نافذة الســـيارة الثالثة على المقعد الخلفي فقتل برنادوت وزميله العقيد الفرنسي ســـيرو Serot على الفور".

يقول الكاتب الهولاندي إن العالم ذهل لهذه الجريمة البشعة التي هـــي في جوهرها اعتداء على المنظمة الدولية ذاتها من جانب آخر. "وحدث ضغط عالمي خارجي فألقت الحكومة الإسرائيلية القبض على المجرمين الرئيســـيين وقامت باتخاذ إجراءات لتقديمهما إلى المحاكمة"[1].

---

[1] - المصدر نفسه – ص ١٠٠

القتلة.. يُرفَّعون في دولة العصابات

ويوضح الكاتب الفرنسي "عمانويل راتيـــي" فـــي كتابـــه "محـــاربو إسرائيل"[1] أن المجرمين كانوا ثلاثة ينتمون إلى منظمة "شترن" التي اتخذت قرار الاغتيال. الأول، هو المخطط والمحرض لهذه الجريمة: "اسحق شامير" وقد ظل بعيداً عن الأضواء. أما الاثنان الآخران اللذان توليا التنفيذ فهما "يا لين مور " و "يهوشوا كوهين" وقد حكم الأول بالسجن عدة سنوات.. لكـــن سبيله أخلي بعد أسبوعين. وبسرعة صدر عفو عن الثاني، وأمسى مسؤولاً عن الأمن لدى رئيس الوزراء السابق بن غوريون.

وعلى سبيل الاستطراد، على هامش هذه الجريمة التي مضى عليـــها أكثر منتصف قرن نورد ما ذكره "راتيي" عن أهمية الإرهابيين التاريخية في الدولة العبرية. " وهذه بعض الأمثلة: منـــاحيم بيغـــن رئيـــس الأرغـــون – العصابة المعروفة – أصبح وزيراً بلا حقيبة في حكومة الائتلاف – ثم رئيساً للوزراء وقع مع الرئيس السادات معاهدة كامب ديفيد. موردخاي بن بـــورات قائد الهاغانا دخل إلى الكنيست وأصبح عضواً في سكرتارية "ماباي". آريـــي بن اليزار عضو الأرغون أصبح نائباً لرئيس الكنيست ورئيساً للجنة التنفيذية لحيروت. يعقوب بن يهودا عضو البالماخ أصبح رئيـــس قســـم فـــي وزارة

---

[1] – محاربو إسرائيل – تأليف : عمانويل راتيي ترجمة: فوزي عبد الهادي – دار طلاس – دمشق – الطبعة الأولى – ١٩٩٦

الدفاع. دوف شيلانسكي من قدماء الأرغون أصبح رئيساً للكنيست عام ١٩٨٨م واستمر كذلك في عام ١٩٩٥م الخ.. الخ.."

غارودي يفند الأكاذيب اليهودية عبر التاريخ

أتساءل كيف يمكن أن يمر مثل هذا الكتاب " فلسطين أرض الرسالات السماوية [1]" دون دراسة أو تقديم أو تعليق على الأقل.. ليس لأهميته وخطورة محتواه التاريخي والفكري فحسب.. بل للمكانة الكبيرة التي يحتلها مؤلفه روجيه غارودي، ككاتب يساري حرّ صديق للعرب، وضع عشرات الكتب عن التاريخ والحضارة العربية، وكرس الكثير من وقته وجهده للدفاع عن قضية العرب الأولى: فلسطين. وروجيه غارودي هذا هو الذي لا يمل من الاستشهاد بكلمة "اناتول فرانس" صديق العرب الآخر الوفي فقد قالها، يوم زار القاهرة في السبعينات، فألقى سلسلة محاضرات عن الحضارة العربية، وعاد فكررها في كتابه "ما يعد به الإسلام":

"يشير اناتول فرانس في كتابه "الحياة المشرقة" بدعابة ساخرة إلى مغزى معركة بواتييه "بلاط الشهداء" هذه المعركة التي يريد تاريخ الغرب أن

[1] – فلسطين أرض الرسالات السماوية – تأليف: روجيه غارودي ترجمة: قصي أتاسي – ميشيل واكيم – دار طلاس – دمشق – الطبعة الأولى – ١٩٨٨

يجعل منها رمزاً للمواجهة بين الشرق والغرب، شأنها شأن معركة ماراتون بين الفرس وبين اليونان: "سأل السيد ديبوا ذات مرة السيدة نوزيير قائلاً: ترى ما أشأم يوم في التاريخ؟ ولما كانت تجهل الجواب، فإنه أجاب قائلاً: **إنه يوم معركة بواتييه عام ٧٣٢م إذا تقهقر علم العرب وفنهم وحضارتهم أمام بربرية الفرنجة**".[1].

ومنذ السطور الأولى في الكتاب يكشف غارودي عن هويته وموقفه الذي لا هوادة فيه في تعاطفه معه الأمة العربية.. ومسألتها التاريخية: فلسطين. بل إن هذا الكتاب لم يكتب أصلاً .. إلا من أجل هذا الغرض.

إنه يهزأ بتعريف الموسوعة البريطانية: فلسطين – شأنها في ذلك شأن الموسوعة الفرنسية الجامعة: أونيفرسالس – أنها المنطقة التي خضعت للانتداب البريطاني منذ عام ١٩٢٣ حتى عام ١٩٤٨. ويعلق قائلاً: وهكذا اختُصِرتْ واحدة من أعرق الحضارات في التاريخ في فترة زمنية لا تتعدى ربع قرن، كما اقتصر في النظر إلى حدودها الجغرافية على وجهة النظر النابعة من علاقات الصراع بين القوى الاستعمارية.

ويستطرد المفكر الفرنسي: فالاستعماريون وقد مزقوا الأمة العربية – الإسلامية تبعاً لمنطق علاقات القوة فيما بينهم، هم الذين ربطوا مصير

---

[1] – ما يعد به الإسلام (أو: وعود الإسلام) تأليف: روجيه غارودي – ترجمة : قصي أتاسي – ميشيل واكيم – دار الوثبة – دمشق (دون تاريخ) ص ٧١

فلسطين بالحل الذي كان منوياً إجراؤه للمسألة الشرقية، أي: تلك القضايا التي نجمت عن تدهور الإمبراطورية العثمانية.[1]

.. وبعد أن يعرج على الموقف البريطاني المتواطئ مع الصهاينة، ينقل ما قاله هوبرت يونغ أحد المسؤولين في " مكتب الاستعمار " عام ١٩٢١:

" إن القضية التي يجب حلها الآن تهدف إلى البحث عن "تكتيك" لا عن "استراتيجية". إن المبدأ الاستراتيجي العام – كما أراه – هو في هجرة متزايدة لليهود إلى فلسطين بغية تأمين أكثرية ساحقة لهم في هذا البلد، ولكني أشك في قدرتنا على مصارحة العرب بحقيقة سياستنا وماهيتها[2] ".

وتأسيساً على التعريف العجيب إياه لفلسطين، يستنتج غارودي تعريفاً مغايراً لكنه سياسي أيضاً ، ينطوي على كثير من الغيظ والحنق على السياسة الاستعمارية فهو يقول:

" إذاً يمكن أن نعرف فلسطين على امتداد القرن الأخير من تاريخها منذ مؤتمر بال عام ١٨٩٧ وحتى ١٩٨٥ بأنها ذلك الجزء من العالم العربي الذي حنث الاستعمار جهراً وعلانية بوعوده له بالاستقلال ".

---

[1] – فلسطين أرض الرسالات السماوية – ص ٩

[2] – المصدر السابق – ص ١٠

.. وعبر محاولة تعريف فلسطين يتسلل غارودي رويداً رويــداً إلــى موضوعه التاريخي. فإذا نحَّينا جانباً التعريف الاستعماري، فهل نقول "هــي أرض التوراة" أو "أرض الميعاد"، ولكن .. كيف ننسى أن هذه الأرض مــن النيل إلى الفرات قد حددت بنوع من التحريف والتضليل بتلك الأرض التــي جرى احتلالها في عهد مملكة داود؟

" فالوعد " المحدد في التوراة في الألف الثاني قبل الميــلاد لــم يــرد مكتوباً على أبعد حدّ إلا في عهد مملكة سليمان أي بعد أكثر من ألف عام من تاريخ الوعد؟ ".

ويتابع غارودي تساؤله: أم تراها إقليم بلاد الشام فــي الإمبراطوريــة العثمانية؟ أم إنها "أرض إسرائيل" ذلك الاسم الذي قلّ أن يرد فــي التــوراة ولكنه ذاع وانتشر على يد أحبار اليهود واستغلته الدولة الصهيونية؟ ولكن هل ننسى أن المنطقة الساحلية ولا سيما عكا وحيفا في الشــمال، وغــزة فــي الجنوب لم تكن خاضعة للدولة اليهودية ولا لمملكــة داود نفســها.. وهكــذا أصبح تعبير أرض إسرائيل الأسطورة التي تقوم عليها الدولة الصهيونية ".

وينتهي غارودي أخيراً إلى فكرة الهلال الخصيب، وهو يحاول تعريف فلسطين فيرى أنه الذي يمتد من الخليج العربي وحوض الفرات ومجــرى العاصي مروراً بشاطئ البحر المتوسط، وحتى دلتا النيل. أما فلسطين فتقــع في الزاوية الغربية من هذا الهلال الخصيب. إن موقعها وبنيتــها وحدودهــا

الجغرافية، وما عبر بها من شعوب عبر التاريخ لم يعيِّن لفلســـطين دورهـــا فحسب، بل.. وهبها ما أهلّها لذلك الدور المتميز في عملية التطور الروحـــي للإنسان في منطقة الهلال الخصيب ".

لقد عرفت فلسطين الدول – المدن قبل اليونان بألوف السنين" ولكنها خلافاً للممالك الكبيرة ذات المركزية، لم تشهد في حياة مجتمعاتها تلك الهوة فيما بين المواطنين وبين الحكام ". ولئن دلت أبحاث علم الآثار الخاصة بما قبل التاريخ على أن الهلال الخصيب وحده قد كان مهدا لتطور الإنسان إلـــى جانب أبكر الحضارات في العالم، فإن " إنســـان – الكرمـــل – وكـــهوف – طابون – وقفزى – .. هذا الإنسان حُدِّدَ تاريخه بإشعاع الكربون ١٤، بزمن ينحصر فيما بين ٥٢٠٠٠ و ٣٥٠٠٠ عام، أي أن الإنسان "الموســـتيري" في فلسطين بمدافنه كان في مستوى أرقى الحضارات في العالم".

ويقفز هذا المؤرخ العالم الفرنسي قفزة تاريخية فيتحدث عن " مرحلـــة استقرار البدو الرحّل والانتقال من مرحلة قطف الثمار والصيد إلى مرحلـــة الزراعة وتربية المواشي التي أطلق عليها "دوروتي غارو "اســـم المرحلـــة النطوفية بعد تنقيباته في " وادي النطوف" فقد جرى تحديدها بسبعة آلاف عام ق.م وفي هذه الحقبة وجدت في أريحا – حيث عرف القمح والشعير والماعز – آثار ما يمكن أن يسمى أقدم مدينة في العالم.

.. ثم ماذا بعد؟ إنه يؤكد أن تاريخ فلسطين كان دائماً عرضة للتشويه والتزوير من جرَّاء التعليلات الدينية والسياسية من قبل الباحثين". وهكـــذا، فمنذ البدايات الأولى للأبحاث الأثرية المبرمجة في فلســـطين فـــي القـــرن التاسع عشر شُوِّه المنظور التاريخي بفعل وهم دينـــي، إذ كـــانت الوثيقـــة الأساسية هي التوراة."

.. ثم ينطلق د.غارودي نحو تكذيب الأساطير التوراتية. من ذلك مثلاً ما نشره سيلين عام ١٩١٣ – وهو المختص بالتوراة – عن تنقيباته فـــي أريحا " إذ سجل في تقريره أنه وجد أسواراً مهدمة. وراح يوحي بما يفيد أنه كان يرى تلك الأسوار تنهار بفعل أصوات الأبواق التي نفخ فيها يشوع بـــن نون. وواقع الأمر أن التواريخ اللاحقة قد أثبتت – كما يُذكرنا الأب ديفـــو – أن الإسرائيليين لدى وصولهم في نهاية القرن الثالث عشر ق.م لم يســـتولوا على أريحا لأن هذه المدينة كانت قد هُجِرت. وقل الشيء نفسه فيما يتعلـــق بالاستيلاء على مدينة "عاي" على يد يشوع."

ومن البحوث الهامة التي تصدّى غارودي لتفنيدها أكذوبـــة "الشـــعب المختار" و "الأرض الموعودة".

إن القادة الصهاينة سواء منهم المؤمنون أوالملحدون يزعمـــون أن الله وهبهم فلسطين، دون أن يسألوا أنفسهم: ما ماهية هذا "العهد" وإلى من أعطي "الوعد" وما التزامات "الشعب المختار" أمام الله؟

إن غارودي يستند إلى إحصاءات الحكومة الإسرائيلية نفسها ليقـول إن ١٥% من الإسرائيليين متدينون. ولكن ذلك لا يمنع أن ٩٠% منهم " يلح على أن هذه الأرض قد وهبهم إياها الله الذي لا يؤمنون بـه ". والغالبية العظمى من الإسرائيليين لا تمارس الإيمان والعبادة، أما مختلف الأحـزاب الدينية التي تلعب دوراً حاسماً في الدولة الإسرائيلية فلا تضم في صفوفها إلا أقلية من المواطنين.

.. ثم ينتقل إلى شرح العلاقة الجدلية بين الصهيونية وبيـن الدعـاوى اليهودية المزعومة حول "الشعب المختار" و " الأرض الموعودة" ، ويتنـاول من كتاب ناثان فايستوك " الصهيونية ضد إسـرائيل" تعبـيراً فـي منتـهى الوضوح والصراحة عن هذه الفكرة، فهو يقول:

" إذا قدر للتعصب الأسود لدى أحبار اليهود ان ينتصر في إسـرائيل فذلك لأن الإيمان الصهيوني لا يعرف التماسك والترابط إلا بـالرجوع إلـى الديانة الموسوية.جرب أن تحذف مفاهيم" الشعب المختار " فسـرعان مـا ينهار أساس الصهيونية. ولهذا تستمد الأحزاب الدينية على نحو متنـاقض قوتها من الصهاينة المتدينين المتواطئين مع هـذه الأحـزاب. إن التماسـك الداخلي للبنية الصهيونية في إسرائيل قد فرض على الحكام دعم سلطة رجال الدين، فالحزب الديمقراطي الاجتماعي "ماباي" بتحريض من "بن غوريـون"

هو الذي قرر تدريس مادة الديانة إلزامياً في المدارس وليست الأحزاب الدينية"..

وإذاً فإن " الأحزاب كلها من حزب العمل إلى حزب ليكود تعتمد التوراة مرجعاً لتأسيس سياسة تقول: إن فلسطين ملك الصهاينة بموجب صك موقع من الله... وهذا جانب آخر فاقع من الذرائعية Praqmatisme الصهيونية.

.. على هذا النحو يقرؤون أيضاً توراتهم تلك القراءة الاصطفائية التي "تخلع طابعاً من الامتياز والأفضلية على أكثر نصوص التوراة شراسة كي تبرر المظالم وألوان الاغتصاب الراهنة".

وينقل غارودي ما جاء في سفر العدد:

" وكلم الرب موسى قائلاً: قل لبني إسرائيل إنكم عابرون الأردن إلى ارض كنعان، فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم. وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكاً في أعينكم ومناخس في جنوبكم، ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها، فيكون أني أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم ".

ويعلق هذا الكاتب الفرنسي: وهكذا نقرأ في سفر العدد تصوراً سابقاً بل تبشير بما يمارسه الصهاينة تجاه الفلسطينيين من شارون إلى الحاخام المقبور مائير كاهانا.

.. أما تتمة التصور الإجرامي الكامل فإنه يبدو في سفر الاشتراع، وهو لا ينص على اغتصاب الأرض وطرد السكان الأصليين وحسب، وإنما يطالب بذبحهم: "**عندما يوصلك الرب الهك إلى أرض كنعان، ويطرد من أمامك كافة الأمم، ستوقع عليهم الحرمان.. وستبيدهم**".

وهذا السفر، سفر المذابح، كما يصفه غارودي " من النصوص الكلاسيكية المقررة في مدارس إسرائيل، أضف إلى ذلك أنه يستخدم للإعداد النفسي للجنود الأغرار في الجيش. وحينما وقع اجتياح لبنان ١٩٨٢ أعلنت هيئة التبشير الدينية العسكرية الحرب المقدسة. وكان الموضوع الرئيسي الذي طرحه الحاخام العسكري برتبة النقيب يقول: يجب ألا ننسى الأصول التاريخية التوراتية التي تبرر هذه الحرب ووجودنا هنا بسببها. إننا ونحن هنا نؤدي واجبنا الديني كيهود. إن الواجب الديني كما في تقاليدنا المقدسة هو احتلال الأرض".

وليس هذا السفر نصاً أساسياً يُدرَّس في المدرسة والجيش معاً فحسب بل إنه صار منذ أن أقره حزب العمل بزعامة بن غوريون عنصراً أساسياً أيضاً في وسائل الإعلام "لتضليل الجماهير".

إنه مقرر في المناهج المدرسية الإسرائيلية من الصف الرابع حتى الثامن " وقد قام تاماران أستاذ الجامعة في تل أبيب بتوزيع استمارات على ألف طالب. تقول الاستمارة: أنت تعرف المقاطع التالية الواردة في سفر

يشوع: "توجه الشعب إلى مدينة أريحا واستولى عليها وقتل كل سكانها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ دون أي تمييز".

أجب على السؤالين التاليين:

أ – ماذا ترى في سلوك يشوع والإسرائيليين؟ أحسن هو أم سيئ؟

ب– لنفترض أن الجيش الإسرائيلي قد احتل قرية عربية في الحرب، فهل من الواجب ان يفعل هذا الجيش بسكان القرية ما فعل يشوع بأهل أريحا؟

وبعد قيام هذا الأستاذ الجامعي بنشر النتائج المخيفة لدراسته الميدانية حول إعداد أطفال المدارس وتهيئتهم نفسياً للاغتصاب والذبح والتدمير.. طرد من جامعة تل أبيب.

وعقب الاجتياح اللبناني في حزيران ١٩٨٢ اصدرت إسرائيل ١٩٨٣ ثلاثة طوابع إحياء لذكرى يشوع، خصص الأول لعبور الأردن. وقد علق عليه " سيغموند غورين " كما ينقل الدكتور غارودي قائلاً: " إن ذلك يذكرنا بالأسلوب الذي اتبعته القوات الإسرائيلية المعاصرة في سيناء عام ١٩٥٦، وفي ثلاث جبهات عم ١٩٦٧. وهو تجديد لأسلوب الأجداد منذ ٣٣٠٠ عام حينما أحاط العبريون بالمدن الكنعانية ليهاجموها من الشرق ". وخصص الطابع الثاني لاحتلال "أريحا" المزعوم.. ومعهُ يذكّر "غورين" بما يسميه

"الإبادة المقدسة" لسكانها ماعدا العاهرة. "راحاب" لأنها استقبلت جواسيس العبريين وآوتهم. وأما الطابع الثالث فيمثل يشوع، وهو يوقف الشمس ليتمكن من إنجاز المعركة والقضاء على خمسة ملوك كنعانيين قتلوا وعلقت جثثهم على خمس شجرات. وها هو ذا غورين يقول: على إسرائيل أن تجابه اليوم عدواً لا يقل خطورة عن ملوك كنعان في الماضي ".

.. إنهم لم يكتفوا بتجديد الأكاذيب التي تضمنها السفران المذكوران – وبينها أكذوبة أريحا – على صعيد تسخير وسائل الإعلام لتضليل الجماهير، بل أضافوا إليها موضوعاً آخر، يلفت النظر إليه مؤلف هذا الكتاب حين يتحدث عن " **الخداع التاريخي الذي يؤدي إلى تعريض المسجد الأقصى وقبة الصخرة للخطر** " وهي تحف فنية عالمية تعد من أثمن مظاهر التراث الحضاري الفلسطيني. فهناك حفريات قائمة تحت أساس هذه التحفة بحجة البحث عن بقايا معبد سليمان ". ها نحن أولاء أمام أكذوبة مزدوجة . **فإن "حائط المبكى " الذي يدعم البناء ليس هو من بقايا هيكل سليمان، بل إنه من بقايا معبد هوميروس ". والواضح من بنائه ومظهره أنه بناء روماني نموذجي".**

ويدحض غارودي الأكذوبة الأخرى حول هيكل سليمان " على أنه عنصر من عناصر التراث الثقافي اليهودي" **فيقول إن التوراة وهي الشاهد الوحيد على هذا البناء تقول إنه بني على يد مهندسين وبنائين وصناع**

أرسلهم **حيرام ملك صور**، وإن المخططات والتزيينات والأثاث، على ما ورد من وصفها في سفر الملوك تطابق النماذج المعمارية الكنعانية. هذا ولم يسبق أن عرف الإسرائيليون معبداً سابقاً له، فتابوت العهد كان يُحْمل في خيمة. ثم إن تصوير الأشخاص على المعابد لم يكن مقبولاً لدى العبريين".

من جانب آخر.. فإن الدكتور غارودي يرسم وهو يبحث عن جذور الصهيونية المسيحية خطاً بيانياً، لعلاقة أوروبا المسيحية باليهود، من خلال كونهم "ساميين" وانطلاقاً من الاتجاه المعادي للسامية الذي تفجر ذلك التفجر الوحشي منذ الحروب الصليبية، حتى إن "غود فروي دي بويون" حين استولى على القدس لم يكتف بأن أمر بذبح المسلمين وطردهم فحسب، بل إنه حاصر الطائفة اليهودية أيضاً داخل الكنيس وقضى عليها بإحراقها.

ويُتْبع ذلك بتسلسل تاريخي لاضطهاد ملوك أوروبا لليهود في القرن الميلادي الثالث عشر.. وما بعد، فإن إدوارد الأول ملك بريطانيا طردهم عام ١٢٩٠، وحذا حذوه الملك الفرنسي "فيليب دي بل " عام ١٣٠٦، وبعد أن قضت إسبانيا المسيحية الكاثوليكية المتعصبة على "غرناطة" العربية آخر الممالك الإسلامية سنة ١٤٩٢م، توجهت نحو اليهود فطردتهم أو ذبحتهم، وكانت "روسيا المقدسة" مسرحاً لمذابح كبرى لليهود عام ١٦٤٨ على يد القوزاق.

إلا أن هذه الصورة بدأت تتغير رويداً رويداً بعد ظهور البروتستانتية التي دعا إليها مارتن لوثر " ١٤٨٣ – ١٥٤٦ ".

في البداية ترجمت " التوراة " إلى الألمانية على يد لوثر نفسه، فأصبحت في متناول الناس من غير الرهبان الذين كانوا وحدهم حتى ذلك الحين قراء التوراة ومفسريها. ويلفت غارودي النظر إلى مسألة غاية في الأهمية، فإن ترجمة التوراة، لم تطرح المسألة اليهودية، من حيث بعدها الإنساني ، بمعنى وضع حد للتفرقة العنصرية ولكل ألوان النبذ والتشريد، **بل طُرِحت طرحاً لاهوتياً، يقول: ما موقع اليهود في المشروع الإلهي؟**

وهكذا قفز اليهود عند البروتستانت إلى مكان الصدارة في علوم الآخرة واللاهوت اعتماداً على "الوعود التوراتية" المزعومة وما تضمنته من إشارة إلى "العهد" و "الوعد بالأرض" و "الشعب المختار" و "العودة".

بل إن التوراة باتت موضع الإلهام والاستيحاء في أعمال أدبية كثيرة مثل "الفردوس المفقود" لجون ملتون و "أورشليم" لبليك.. و "استير" و "اتالي" لراسين وها هو ذا الأسقف بوسويه في كتابه" مقالة في التاريخ العالمي " يجعل من إسرائيل حجر الزاوية في التاريخ العالمي، ولا يرى الناقد والمسرحي الألماني " ليسينغ" والفيلسوف الألماني أيضاً " فيختة " من حل للمشكلة اليهودية "إلا استرجاع الأرض المقدسة وإرسال اليهود.. إليها".

وأخذ الأمر بعداً آخر مختلفاً لدى الحقوقي والبرلماني البريطاني هنري فينش، فإنه نشر عام ١٦٢١ كتاباً بعنوان " البعث العظيم للعالم " أو " نداء إلى اليهود وإلى جميع الأمم وممالك الأرض للإيمان بالمسيح " رفض فيه كل التفسيرات الرمزية التأويلية للتوراة، وأوصى بقراءتها حرفياً، وهو يقول:

"حينما تُذكر إسرائيل ويهودا وصهيون وأورشليم في التوراة، فإن الله لا يعني بذلك إسرائيل روحية، ولا يعني كنيسة لله تجمع في صفوفها الأمم – أي جميع الشعوب من غير اليهود – واليهود المتنصّرين.. ولكنه يعني بإسرائيل تلك التي تحدرت من نسل يعقوب. وقل الأمر نفسه فيما يخص العودة إلى أرضهم وانتصارهم على أعدائهم. فاليهود هم المعنيون حقاً وصدقاً بالتحرير، وليس المسيح هو الذي يحرر البشر ".

.. وعرفت هذه الحركة نهوضاً خاصاً في بريطانيا في القرن التاسع عشر على يد الطهوريين[١] فقد أحل هؤلاء أبطال التوراة محل القديسين في الكنيسة الكاثوليكية، فصاروا يسمون أبناءهم أسماء توراتية: إبراهيم واسحق ويعقوب. ووصلوا إلى حد المطالبة بجعل التوراة مصدر التشريع الإنكليزي. وصار لهؤلاء شأن يذكر بعد أن حل "كرومويل" البرلمان عام ١٦٥٣.

---

[١] – البيوريتان Puritan جماعة بروتستانتية ظهرت في انكلترا ونيوانغلاند في القرنين ١٦ و ١٧ وطالبت بتبسيط طقوس العبادة والتمسك الشديد بأهداب الفضيلة.

" وتجلت هذه الأيديولوجية والعقيدة الأسطورية قوية واضحة لدى الطُهوريين المهاجرين إلى أميركا الذين اندمجوا وتوحدوا بالعبريين التوراتيين في المنفى: لقد تحرروا من عبودية فرعون " جاك الأول " وهربوا من أرض مصر "انكلترا". ليصلوا إلى أرض كنعان الموعودة – أميركا ".

وأخذ هؤلاء المستوطنون يستوحون " الإبادات المقدسة " التي قام بها يشوع بن نون في التوراة، لدى مطاردتهم الهنود الحمر بغية الاستيلاء على أراضي القارة الجديدة.

صار لهم إذاً منطق لاهوتي عجيب بعيد تماماً عن المسيحية، وبموجبه صاروا يؤمنون أن الوعد الحق.. لا يتحقق بمجيء المسيح.

.. وهكذا فإن الرئيس الأميركي ويلسون الذي نشأ على هذه التعاليم بعث برسالة إلى الحاخام "ستيفن وايز " تاريخها ٣١ آب عام ١٩١٨ أكد له فيها، معتمداً على العقيدة الأسطورية الصهيونية قبوله وعد بلفور.

وها هو ذا الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر يتحدث في الكنيست الإسرائيلي في آذار ١٩٧٩ قائلاً:

إن إسرائيل والولايات المتحدة، كلتيهما تشكلت على أيدي جماعة من الرواد. إن بلدي هو أمة من المهاجرين، وفدوا من شعوب مختلفة لبلدان عديدة. إننا نتقاسم وإياكم الإرث المشترك للتوراة ". وكما يضيف ملاحظاً

فإن كارتر سبق أن قال: إن إنشاء أمة إسرائيلية هو إنجاز للتنبؤات التوراتية.

إن هذا المفكر الفرنسي الكبير يرفض نهائياً إعادة فاعلية "اللوبي الصهيوني" على المستوى العالمي إلى قوة تنظيمه وقوة الوسائل السياسية والمالية الجبارة التي يمتلكها مدعوماً دعماً غير مشروط ولا محدود من قبل الدولة الأميركية، ويرى أن العقيدة الأسطورية الصهيونية، قد ساعدت بأن لعبت ذلك الدور الكبير في مخيلة الشعوب.

يقول د. غارودي: إن قوة "اللوبي" تلعب دون شك دوراً أساسياً، لكن القبول الساذج على الأغلب لهذه العقيدة الأسطورية الوقحة بنتائجها السياسية الدامية الفاجعة لا يمكن فهمه إلا حينما نتذكر تلك المناورات الإيديولوجية التي استمرت قروناً عديدة، والتي استطاعت بها الكنائس المسيحية أن تخلق هذه " الصهيونية المسيحية " التي تشكل أرضاً خصبة تستغلها الدعاية الصهيونية ودولة إسرائيل.

وهو يوضح أن هذه الرؤية الأسطورية لفلسطين في منظور الصهيونية المسيحية قد استغلت سياسياً منذ البداية، لتحقيق عدد من الأهداف:

١- **أهداف لا سامية:** وذلك للتخلص من اليهود بإرسالهم إلى فلسطين على أنها معزل عالمي لهم.

٢- **أهداف إمبريالية**: ليقوم اليهود الغربيون في فلسطين بدور شرطة للاستعمار في الشرق الأوسط لحماية المعابر المؤدية إلى آسيا.

٣- **أهداف صهيونية سياسية**: وهذه الأهداف يدعمها في آن واحد معاً الاستعمار الروسي والألماني والفرنسي والإنكليزي.. ثم الأمريكي بغية الحفاظ على مشاريعه.

ويضيف إلى ذلك أن نزعة معاداة السامية تدعم " أهداف الصهيونية" بغية إقناع يهود "الشتات" برفض كل انصهار واندماج كي يفدوا إلى فلسطين. وهو مؤمن بأن البروتستانتية التي قطعت علاقتها بتعاليم الكنيسة الكاثوليكية وكانت في الوقت نفسه أصل " الصهيونية المسيحية " كان لها موقف ذو دلالة خاصة على هذا الصعيد، **إذ أن ترجمة لوثر للتوراة التي أبرزت ملحمة العبريين لم تكن عملاً بريئاً، فإن هذا كان " يعبر بوضوح عن خلفية فكرية معادية للسامية ".**

إن مارتن لوثر نفسه عاد فكتب عام ١٥٤٤ - أي قبل وفاته بسنتين - قائلاً: "من يمنع اليهود من العودة إلى أرض يهودا؟ لا أحد. سوف نزودهم بكل ما يحتاجون إليه في سفرهم. لا لشيء.. **إلا لنتخلص منهم. إنهم عبء ثقيل علينا، إنهم مصيبة كبيرة على وجودنا".**

ويعتمد غارودي اعتماداً كبيراً على هذه الفكرة، فيرى أن هذه " الخلفية الفكرية " التي كانت لدى لوثر: أصل "الصهيونية المسيحية" هي نفسها التي كانت لدى بلفور الذي وفر للصهيونية السياسية انتصارها الأول. فحينما **كان أرثر بلفور رئيساً لوزراء إنكلترا ناصر قضية الحد من هجرة اليهود من إنكلترا، حتى إن المؤتمر الصهيوني السابع اتهمه بمعاداته السافرة للشعب اليهودي.**" وهذه اللاسامية المتأصلة لدى بلفور كانت تتفق تمام الاتفاق طوال حياته قبل عام ١٩٠٥ وبعده مع الفكرة الصهيونية المطالبة بتخصيص أرض لليهود بغية تحقيق هدف واحد هو إبعادهم عن إنكلترا.

وكان بلفور قد وعد اليهود منذ عام ١٩٠٣ بإعطائهم أرض أوغندة. وفي عام ١٩١٧ وانسجاماً مع أهدافه في حربه مع ألمانيا كتب إلى اللورد روتشيلد تصريحه المتضمن إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.

.. ومع ذلك وبعد كل الذي كان، فإن المجمع المسكوني الثاني للفاتيكان اعترف عام ١٩٦٥ قائلاً:

" إن قيام السلطة اليهودية مع من يناصرها بالتحريض على صلب المسيح لا يمكن ان يعزى عشوائياً إلى جميع اليهود المعاصرين للمسيح.. ولا إلى يهود اليوم. وإذا كان صحيحاً أن الكنيسة هي الشعب الجديد لله فاليهود لا يجوز أن يُعْتبروا منبوذين أو ملعونين من الله، وكأن إدانتهم مستمدة من الكتاب المقدس. إن الكنيسة تأسف لألوان الحقد والاضطهاد ولكل

مظاهر العداء للسامية التي مورست على اليهود في عصور شتى ومن قبل أطراف شتى .."

إن هذا الموقف لا يحوز على إعجاب غارودي مطلقاً فهو يرى أنه جاء متأخراً ألفي عام " من الجرائم التي كانت الكنيسة في الأغلب هي الدافع إليها أو.. المُنفِّذ ".

ثم يمضي في هذا الاتجاه إلى حد القول إن المجتمع المسكوني في الفاتيكان دان في قراراته هذه التفرقة العنصرية، ولكنه لم يمسّ بذرة تلك الفكرة اللعينة، فكرة " الشعب المختار " التي تستنكرها رسالة الأناجيل على نحو قاطع، إذا نُظِر إلى الأناجيل نظرة كلية ولم يُكْتَف منها باقتطاع صيغة معزولة عن سياقها.

وهو يثير مشكلة، ربما انتبه إليها بعضهم، إلا أن غارودي يوثقها حين يتحدث عن تزوير اليهود إنجيل " متى " فهو يقول:

" كان مارسيون دي سينوب – ١٤٤ م – في روما يلوم المسيحيين الذين كانوا يهوداً على أنهم زوّروا النص الأصلي لإنجيل متى. جاء في هذا الإنجيل:

" لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل " ويرى مارسيون دي سنوب أن نص " متى " كان في الأصل يقول:

"لم آت لأكمل العهد بل لأنقضه" ويعتمد مارسيون في اتهامه على إنجيل لوقا ورسائل القديس بولس.. ليستخلص أن الإنجيل حل محل شريعة موسى.

ثم إنه يضع يده على نقطة حاسمة في الأمر كله، فإن " الوعد المسيحي عند آخر تحليل ليس وعداً بأرض " فقد بشر يسوع كما بشر "الغيــورون" – وهم جماعة كانت موجودة أيام المسيح وتسعى إلى إصلاح العبادة بتخليصـها من فساد رجال الكهنوت – بملكوت الله. ولكن تبشـيره لـم يكـن مقترنـاً بالمطالبة بأرض لوطن قومي. فيسوع لا يقر بأي حق إلــهي للإمـبراطور الروماني ولا لهيرودوس حاكمه ونائبه.. **في فلسـطين. ورفـض يسـوع المسيح في ثلاثة مواقف من الإنجيل رفضاً قاطعاً أن يربط رسالته بموضوع امتلاك أرض أو سلطة.** وحينما جاء إليه الشيطان في أعلـى الجبـل وأراه جميع الممالك المسكونة وقدمها إليه أجابه يسوع بقوله: أبعـد عنـي أيـها الشيطان.

ويضيف الكاتب الكبيران المسيح رفض حتى أن يُنادَى بـ "المخلـص" لأن هذه الصفة في التقاليد اليهودية ذات مدلول سياسي، وهي مرتبطة عندهم بالسلطة.

وعندما سأل بيلاطس المسيح : هل أنت ملك اليهود؟ فإنه تولى النفي على طريقته، فقد قال: مملكتي ليست من هذا العالم.

.. وعند حديثه عن الثورة الفرنسية وموقفها من اليهود، يطـــرح د. روجيه غارودي فكرة اندماج اليهود في مجتمعاتهم. لقـــد أعلنـــت الثـــورة الفرنسية منذ البداية إلغاء كل تمييز عنصري يمارس على اليهود " وفـــي عام ١٧٩١ أعلن الكونت دي كليرمون في الجمعيـــة الوطنيـــة الفرنســية ملخص ما شرعته الثورة في هذا الصدد حينما وضعت حـــداً لقـــرون مـــن التفرقة العنصرية، فقال: يجب أن نمنع كل شيء عن اليهود – على أنـــهم أمة – ونسمح لهم بكل شيء على أنهم أفراد".

... قبل هذا كان يهود أوروبا المعزولين في الغيتـــو يحلمـــون حلمـــاً صعباً، أن تعاملهم المجتمعات التي يعيشون فيها، لا.. معاملة المساواة، بـــل معاملة تحترم فيها عقيدتهم وطراز معيشتهم.. ولقـــد مـــهد إعـــلان الثـــورة الفرنسية الطريق أمام يهود أوروبا كي يستعيدوا الكثير من اعتبارهم، وكـــي يتقبلهم الآخرون، من خلال فكرة اندماجهم في مجتمعاتهم.

وأعلن يهود فرنسا بكل وضوح " أنهم لا يشكلون أمة " حينما دعـــا نابليون بونابرت عام ١٨٠٧ المجلس اليهودي الأعلى إلى الاجتماع به.

وينقل غارودي ما كتبه المؤرخ الألماني " ترايشكة " في نهاية القـــرن التاسع عشر، قائلاً: " لا مكان على الأرض الألمانية لجنسية مزدوجـــة. وإذا طالب اليهود الاعتراف بقوميتهم، فإن الأساس الشرعي لممارستهم حريتـــهم يسقط وينهار ".وهكذا وجدت الطوائف اليهودية نفسها أمام موقف من اثنين لا

ثالث لهما، فإما أن يكون أفرادها مواطنين حقيقيين في دولة ما، وحينذاك يحق لهم أن يطالبوا باحترام عقيدتهم، مثلهم مثل أي جماعة دينية أخرى. وإما أن يكونوا منتمين إلى "أمة" أخرى، وعندئذ يُعُدون "أجانب" وينبغي عليهم أن يقبلوا ما يترتب على هذا الوضع.

بدأ يهود أوروبا الغربية يُعاملون على أنهم مواطنون حقيقيون، واندمجوا على اختلاف أصولهم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لأوطانهم وأسهموا في تطوير الثقافة الغربية في شتى المجالات.

.. وعلى نحو مباشر، فيما هو يعلق على ظهور أعلام من اليهود في أوروبا، فإن غارودي ينفي، ما حاولت الصهيونية زرعه في أفكار العالم وروجت له إعلامياً بتركيز وقوة مدهشين، حول "خصوصية يهودية" في رفد الثقافة الغربية المعاصرة، فهو يقول:

" إن كل هذه الروائع هي جزء لا يتجزأ من مجمل الثقافة الغربية السائدة. وأنت لا ترى في هذه الروائع أي أثر لخصوصية يهودية، مثلما لا ترى أي أثر من كاثوليكية "باستور" في أبحاثه البيولوجية، ولا أي أثر من بروتستانتية "نيوتن في فيزيائه".

.. وعلى الرغم من أن اليهود في أوروبا ظلوا حتى مطلع القرن العشرين، أوفياء إلى حد غير قليل، لقناعتهم بالاندماج في مجتمعاتهم، فإن تياراً آخر، كان يسري في عروق الكثيرين منهم، منذ سنوات.. وهذا ناجم

عن تأثرهم، على الأخص، بالروح القومية التي انتشرت في أوروبا كلها في القرن التاسع عشر.

يقول غارودي إن غالبية اليهود الألمان عارضت عام ١٩١٩ استفزازات الصهاينة فأعلنت تقول: "**نحن ألمان، ديننا اليهودية. إن الجرمانية تعني لدينا انتماء إلى أمة وشعب أما اليهودية فتعني لدينا دينا وملة. نحن لسنا أمة يهودية، وإنما طائفة تدين باليهودية.** " **بل إن مؤتمر الحاخامات الذي عقد قبل هذا التاريخ في "بتسبرغ " عام ١٨٨٥ أعلن قائلاً: نحن لا نعد أنفسنا أمة، وإنما نحن طائفة دينية. نحن لا ننتظر العودة إلى فلسطين ولا نمارس شعائر التضحية التقليدية، ولا نعمل على إحياء أي تشريع يخص إقامة دولة يهودية".**

* * *

.. يمكن القول إن النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهو الذي انعقد في آخره المؤتمر الصهيوني الأول، هو الذي عاش ظهور التيار المعاكس ونموه، **فاليهودية لم تعد ديناً، بل انتماء قومي، والصهيونية السياسية الصاعدة قطعت صلتها بتقاليد الدين اليهودي " لتقتبس تقاليد كثيرة أخرى. إنها تقاليد النزعة القومية الغربية في القرن التاسع عشر.. قرن القوميات.** وراحت الصهيونية السياسية تتجه إلى إنشاء نموذج للمجتمع يختلف جذرياً عن الملة اليهودية مقلدة المفهوم الغربي للأمة والدولة".

ويستطرد الدكتور غارودي قائلاً: " إن واقع الدولة اليهودية هو نسخة عن "الدول" الأوروبية. وهي تعتمد في نشاطها العسكري مثلاً على نزعة قومية مقتبسة من الشوفينية Chauvinisme الأوروبية في القرن التاسع عشر. وكان هذا التقليد عن وعي تام واختيار مدروس مقصود".

.. إن الحاخام يهودا الكالاي " ١٧٨٩ - ١٨٧٨ " المولود في سيراجيفو - في يوغسلافيا الآن- والذي شغل منصباً دينياً رفيعاً في صربيا " استوحى صراع القوميات لدى دول البلقان في مواجهة الاحتلال التركي، فرأى في استعمار فلسطين مفتاح "الخلاص" لليهود. أما الحاخام "كاليشبا"، فإنه دعا اليهود إلى تقليد القوميات الأوروبية بقوله: فلنجعل قدوة لنا ما قام به الإيطاليون والبولونيون والهنغاريون".

ولم يتوقف الصهاينة عند هذا الحد، بل أن بعضهم ذهب مذهباً مدهشاً في عرقيته وعنصريته حتى إن " آحاد هاعام"[١] في دراسته التي عنوانها "اليهودية ونيتشه"، فيما يرفض العرقية الآرية لدى نيتشه، يعود من جانب آخر إلى الحديث عن الإنسان المتفوق: السوبرمان Superman ويرى مثل نيتشه نفسه أن "الهدف الأخلاقي الأسمى ليس في تقدُّم البشرية كلها، بل في خلق نوع بشري أكمل، من بين النخبة". وما دام الهدف من الوجود هو

[١] - آحاد هاعام اسم مستعار لآشربن عنزبرغ (١٨٦٥ - ١٩٢٧) وهو أحد واضعي الأيديولوجية الصهيونية.

ظهور إنسان متفوق، فهناك هدف فرعي ينجم بالضرورة هو ظهور أمة متفوقة.

وكما يلاحظ د. غارودي فإن آحاد هاعام يُطبِّق على الصعيد الاجتماعي المذهب الدارويني الذي تحدث عن النشوء والارتقاء بين الكائنات الحية، بقوله: "نحن نعلم أن هناك درجات متفاوتة في سلم الخلق: المادة غير العضوية أولاً، ويليها النبات، ثم المملكة الحيوانية، ثم الكائنات الناطقة، وعلى رأس كل ذلك يأتي اليهود".

.. ويعلن "ماكس نوردو" وهو الرفيق الحميم المقرب من هرتزل " أن اليهود يتصفون بروح المبادرة، وبمواهب وقدرات أكبر مما لدى الإنسان الأوروبي المتوسط، فما بالك، بأولئك الآسيويين والأفارقة؟"

.. ولكن . ماذا بعد؟

لقد أراد روجيه غارودي أن يستعرض تاريخ أرض الرسالات فلسطين، منذ عهود ما قبل التاريخ، مروراً بالحضارة الكنعانية، وظهور العبريين وتفسخ دولتهم الطارئة وسقوطها.. ثم يعرج على فلسطين المسيحية، ثم فلسطين المسلمة العربية منذ القرن الميلادي السابع حتى الآن..

وإذا كان قد توقف هنا أو هناك، ليتحدث عن اليهود في فلسطين أو أوروبا.. أو عن الصهيونية المسيحية، والقومية الصهيونية، فإنه كان التوقف الذي يقتضيه التأريخ لأرض الرسالات..

على أنه لا يعد ما حدث في النصف الأول من هذا القرن في فلسطين أكثر من غزو لابد من أن ينتهي.. مثلما ينتهي أي غزو في التاريخ، فهو يقول:

" كانت تجربة الحملات الصليبية تجربة حرب مستمرة دامت مئتي عام انتهت بهزيمة الصليبيين، وبرفض شامل لهذه الغزوات. إن الجيوش مهما بلغت من القوة، ومهما كان تجهيزها وأعدادها، لا تقدر أن تفرض نفسها إلى الأبد على إرادة الشعوب. نعم . إن الانهيار النهائي لكل المستعمرين من فيتنام إلى الجزائر، يدل تمام الدلالة على أن المواجهة بين الجيش وبين الشعب منتهية حتماً – على الرغم من المجازر والفظائع – إلى هزيمة الجيش".

ويتابع قائلاً: إن الصهيونية لم تتمكن من احتلال فلسطين إلا بفضل حربين عالميتين، ولم تترسخ على أرضها حتى الآن إلا بفعل خمس حروب، وهي لم تصل إلى انتصارها الأول (وهو صدور وعد بلفور عام ١٩١٧) إلا بعد دخولها لعبة الخصومات بين القوى الاستعمارية الهادفة إلى تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية وتقسيمها.

... ومع ذلك ، "وعلى الرغم من هذا النشاط العسكري" فإن الصهيونية الإسرائيلية كما يرى غارودي قد وصلت مرة ثانية – كما سبق أن حدث عام ١٩٢٧ – إلى مرحلة الإنهاك، لأن الهجرة إلى إسرائيل لا تعدل الهجرة منها،

لأن دولة إسرائيل هي أقل بلاد العالم طمأنينة وأمناً، من جراء السياسة العدوانية الحربية التي ينتهجها القادة الصهاينة.

ويؤكد غارودي على أن إسرائيل استعمار استيطاني تماسكه مصطنع لا مثيل له سوى النظام الذي كان في جنوب افريقيا. وكذلك "القومية" الإسرائيلية فهي مصطنعة أيضاً أيما اصطناع. ومن الناحية التاريخية لم تكن هناك أمة يهودية في فلسطين حتى في عهد مملكة "داود". وكان البناء السياسي لمملكة داود هنا غير مستقر، فلم يتح لثقافة أصيلة أن تنمو وتتطور... **وعلى مدى أربعة آلاف عام لم تعش دولة عبرية إلا ثمانية وسبعين عاماً في ظل داود وسليمان ومئة عام أخرى في ظل "المكابيين".**

.. إن دهشة غارودي من شراسة الصهيونية ووقاحتها وهمجيتها وفاشيتها لا حدود لها. وها هو ذا يعود إلى إبدائها في صورة أخرى لا تفتقر إلى أصالة النظرة التاريخية "**فلقد عرفت هذه المنطقة عبر التاريخ اجتياحات وغزوات خارجية، ولكن .. لم تهدف أي منها إلى طرد السكان الأصليين أو إبادتهم ، فالرومان والصليبيون والمستعمرون الإنكليز أنفسهم كانوا يكتفون بإقامة محميات لهم واحتلال البلاد للسيطرة عليها واستثمار سكانها. أما المخطط الصهيوني فلا نظير له: إنه يقوم على إحلال شعب محل شعب، وحضارة محل حضارة.** وقد مورس هذا المخطط بدءاً من هرتزل الذي يعلن في كتابه "الدولة اليهودية" قائلاً: "سنشكل في فلسطين حصناً لأوروبا في وجه

آسيا. وسنكون حصناً أمامياً متقدماً للحضارة الغربية في وجه البربرية"....
وانتهاء بغولدا مائير التي أعلنت في صحيفة "صنداي تايمز" عام ١٩٦٩ قائلة: "ليس هناك فلسطينيون. نحن لا نقر بوجود شعب فلسطيني أتينا لنطرده ونستولي على أرضه. نعم لا وجود لمثل هذا الشعب".

وينظر المفكر الفرنسي الكبير إلى المقاومة الفلسطينية نظرة أعمق وأشمل، من مجرد كونها حركة كفاح مسلح عادل، من أجل تحرير وطن واستعادة حق مستلب، ذاك "أن المقاومة الفلسطينية – مهما كانت النكسات العسكرية التي واجهتها – تحمل عبء رسالة عالمية: إنها رسالة تاريخية تقوم بالدفاع عن الحضارة بحضارة تمتد بجذورها إلى الهلال الخصيب عبر آلاف السنين".

.. ولا يرى روجيه غارودي من حل إقليمي جزئي للقضية الفلسطينية ". إن الحل الوحيد الممكن، لن يكون إلا في إطار النظر إلى فلسطين على أنها جزء من الهلال الخصيب، لم تنفصل عنه قط عبر التاريخ" وليس هذا الهلال عنده، سوى جزء لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير.

... وهو لا ينسى أخيراً أن ينبه العرب إلى قوتهم الاقتصادية الهائلة، وهي قوة تقدر أن تقلب موازين القوى العالمية، لصالحهم أولا وأخيراً، ومن أجل كسب تلك القوى إلى جانبهم:

" فأوروبا اليوم تعتمد في نصف ما تحتاجه من النفط علـــى الشـرق الأوسط وتستورد ٧٠% مما تحتاجه من العالم العربي. كذلك تحتاج فرنســا إلى النسبة نفسها من غاز الجزائر. إن حجم علاقة فرنسا التجارية بـالجزائر وحدها يفوق أربعة أضعاف حجم علاقتها التجارية بإسرائيل. وقـل الشـيء نفسه عن أوروبا كلها. فنصف صادرات الدول العربية تتجه إلى الولايـات المتحدة. **إن الدول العربية، سواء كانت مصدرة أو مستوردة هـي أفضل شريك تجاري لأوروبا".**

.. مع ذلك فإن أوروبا منحازة بوضوح إلى جانب إسرائيل في موقفها من القضية الفلسطينية.. وإنما يتجلى ذلك في الممارسـة، ذاك أن الأقـوال تبدو أحياناً متّسمة بكثير من النفاق والتردد، وبينها وبين الممارسات الفعليـة هوة كبيرة، فقد أعلن المجتمعون في مؤتمر القمة الأوروبي في البندقية عـام ١٩٨٠ "أن الشعب الفلسطيني يجب أن يمارس حقه فـي تقريـر مصـيره" وأعلنوا أيضاً أنهم يخالفون كل مبادرة أحادية الجانب تهدف إلى تغيير وضع القدس.. ولكن سرعان ما رأينا أن الرئيس الفرنسي ميتران في أول زيـارة رسمية له إلى إسرائيل "لم يكن حازماً فيما يخص القضية الفلسـطينية، ولـم يَدِنْ إسرائيل لضمها الجولان، بل إنه اعترف ضمناً بضم القدس.. حينما قبل زيارتها." وبعد سنة واحدة من هذه الزيارة طلب زعيم الصهاينة الفرنسـيين

"آلن دي روتشيلد" عام ١٩٨١ إلى رئيس وزراء فرنسا "بيير موروا" أن يفي بالوعود التي قطعها ميتران، والقاضية بإلغاء إجراءات مقاطعة إسرائيل..

.. بعد ذلك مباشرة، وبعد أن تأكدت إسرائيل من كسرها طوق العزلة، " كانت على ثقة من أنها تستطيع أن تجتاح لبنان دون أي عقاب، وذلك بفضل الدعم غير المشروط من قبل الولايات المتحدة وشركائها المطيعين في أوروبا ".

.. حينذاك كان الاستنكار العالمي شاملاً، حتى إنه دفع مجلس الأمن إلى اتخاذ قرار يطالب فيه بيغن بسحب قواته من لبنان " وكان القرار جماعياً ما عدا صوتاً واحداً. إنه صوت الفيتو الأميركي! أي إشارة الضوء الأخضر لممارسة المذبحة ".

إسرائيل لن تعيش خمسين سنة أخرى

عند هذا المفصل التاريخي، بين خمسين سنة مضت من عمر نكبة فلسطين، وبين خمسين سنة تأتي، ترى ما الذي يمكن أن يخرج به المراقب من استنتاجات واستقراءات؟

بعد النظر إلى كل تلك الأعوام الحافلة بالمرارات والخيبات والنكسات والإخفاقات، ولدى التطلع إلى نصف القرن الآتي، فهل كل ما مضى، وما هو راهن، هما في هذه الصورة الكالحة السوداء؟

لست أريد أن أفعل ما درجت العادة عليه في مثل هذه المناسبة، إذ يجري الاستشهاد، بما حدث في فلسطين وبلاد الشام كلها ومصر، خلال مئتي سنة من القرون الوسطى في أثناء الحروب الصليبية، وما انتهت إليه من هزائم شاملة وانحسار تام، لأقارن من ثم، بين ذلك، وبين ما يمكن أن يكون في فلسطين والأراضي العربية المحتلة ، في الجولان وجنوب لبنان. ذلك أني أريد أن أقدم مثالاً، أحدث تاريخياً، وأقرب إلى عصرنا، هو من خلاصة ما عاشه ذلك الجزء من جنوب أفريقيا، منذ أن وصل إلى الكاب – Cape الهولاندي فان ريبيك وأنشأ مستعمرة في صورة مرفأ لتموين و إصلاح

سفن شركة الهند الشرقية – الهولاندية عام ١٧٥٦م ودون دخول في التفاصيل، فإن البريطانيين استولوا على هذه المستعمرة التي اتسعت كثيراً بعد عام ١٨٠٦م وظل يُنظر إليها على أنها بلاد الرقيق والخدم وبلاد العمالة الرخيصة المُنفّذة بأيد ملونة ".

والآن بعد كل تلك السنوات، ما أشد ما تغير المشهد في تلك الديار، فإن المسؤولين " الأخيرين" عن المجازر بين السود من أهل البلاد الأصليين، وعن سياسة الفصل والتمييز العنصريين، رهن المحاكمات. وها هو ذا أقدم وأشرف سجين سياسي في الكرة الأرضية، أمضى زهاء سبعة وعشرين عاماً في سجون جنوب أفريقيا ومنافيها، على رأس السلطة هناك[1].

وما أكثر ما تحدثنا وكتبنا في النصف الثاني من هذا القرن، عن وجوه الشبه الكثيرة بين جنوب أفريقيا وبين إسرائيل ولابد أن تكتمل أوجه الشبه هذه أخيراً وآخراً.

لابد بادئ ذي بدء من الوقوف ملياً، إزاء الإصرار الفلسطيني على أمرين اثنين: التجذر في الأرض، والعودة إلى الأرض. **وإذا كان مليون فلسطيني قد خرجوا في مظاهرات غاضبة، عظيمة المعاني والدلالات، في الذكرى الخمسين للنكبة في الضفة والقطاع في ١٩٩٨/٥/١٤م** – وهذا في

[1] – كتب هذا الفصل في ايار ١٩٩٨ وكان نلسون مانديلا ما يزال رئيساً لجمهورية افريقيا، قبل انتهاء ولايته الشرعية.

ذاته أمر، يوجب على قوى الاحتلال الصهيوني أن تعيد النظر في حساباتها جميعاً للسنين القادمة – **فإن المفاتيح التي رفعوها**، وهؤلاء هم من سكان المخيمات، **هي رمز هام من جهة**، ذو صلة متينة بالواقع في الأراضي المحتلة من جهة ثانية.

في كتابه "ويلات وطن – صراعات الشرق وحرب لبنان" يتحدث الكاتب الصحفي البريطاني المعروف "روبرت فيسك" عن بعد آخر في مسألة المفاتيح هو الذي عنيته بالإشارة إلى صلتها المتينة بالواقع. فقد أراد هذا الرجل، الذي كان يراسل صحيفة "التايمز" اللندنية، من بيروت عام ١٩٨٧م ، أن يصل من وراء "المفاتيح" إلى مسألة هي بيت القصيد. "كان همه الأساسي أن يعرف تاريخ ملكية البيت الذي يسكنه اليهودي ليصل إلى حقيقة واضحة هي أن العرب هم أصحاب الأرض والعقار، مما اضطروا إلى تركه مجبرين".

يتحدث فيسك عن قصة المفاتيح منذ البداية قائلاً:

" مما يزيد من المفارقات اعتقاد اللاجئين الفلسطينيين في البداية أن غيابهم سيكون قصيراً. أو أنه لن يبلغ سوى عدة أيام، أو شهور معدودة على الأكثر، يعودون بعدها إلى منازلهم وحقولهم في فلسطين لاستئناف حياتهم العادية التي قطعتها الحرب. **ولهذا السبب عمد الكثيرون منهم إلى إقفال**

البوابات الأمامية بإحكام حين غادروا بيوتهم. والذين كان لديهم مزيد من الوقت اهتموا بجمع معظم مستنداتهم القانونية – من صكوك ملكية، وخرائط البساتين، وبيانات ضريبية – ووضعوا كل ذلك في حقائب وعلب إلى جانب متاع العائلة والمجوهرات ومفاتيح الأبواب، وتصوروا أنهم إذا أسعفهم الحظ فإن بيوتهم ستنجو من السطو، وأن أي نزاع حول حقوقهم يمكن حسمه بسهولة عند إبراز الصكوك. وبعضها قديم جداً يحمل إشارة الباب العالي في الأستانة".

ويستطرد الكاتب البريطاني،فيقول: "إن مفاتيح الحديد الضخمة الداكنة ذات المقابض المزينة، كانت بمثابة وعد بالعودة حطمه التاريخ، فأصحاب البيوت الجدد الإسرائيليون، حرموا عليهم العودة وبدلوا الأقفال".

ويروي روبرت فيسك أنه كثيراً ما رأى صكوك ملكية الأرض الضائعة، ورأى تلك المفاتيح وهو يقابل ثلاثين أسرة من الأسر الفلسطينية في لبنان. وحين توجه إلى فلسطين المحتلة، استكمالاً للفكرة التي خطط لها، فوجئ بالذرائعية الخبيثة التي حدثه بها المستوطنون الذين احتلوا البيوت العربية.

" كان من المفروض أن تنشأ دولتان، دولة للعرب ودولة لليهود، إلا أن **دولة العرب لم تقم". إن جميع الذين تحدث إليهم كانوا يعلمون علم اليقين أن الدولة الصهيونية هي التي أبعدت الفلسطينيين من ديارهم على نحو**

مباشر، أو غير مباشر، عن طريق الإرهاب والتدمير والرعب. مع ذلك وعلى الرغم من اعترافهم " أن العرب يملكون الأراضي بصورة شرعية داخل ما يعتبر الآن إسرائيل، وبعض العرب الآخرين يستطيعون دون أدنى شك إثبات ملكيتهم" فإنهم يمضون أبعد في "الذرائعية" المخاتلة قائلين: إن هؤلاء الناس هم الآن مواطنون في دول عربية تعد في حالة حرب مع إسرائيل". و "إن خسارة العرب حرب ١٩٤٨م – ومعذرة لأننا ربحنا – أدت إلى تحول قسم من العرب إلى طائفة من اللاجئين وذلك جزء من مشكلة الشرق الأوسط. ويقدم فيسك أمثلة من البيوت العربية والقرى التي اغتصبت. **بينها بيت كنعان أبو خضرة الصحفي الفلسطيني الذي لعب دوراً في حضّ العرب على مواجهة اليهود.** طرق فيسك باب البيت فخرج يهودي، ورد على سؤاله: أليس هذا بيت كنعان أبو خضرة؟ بقوله: هنا كان بيت أبو خضرة لكنني أسكنه الآن.

وفي قرية "أم الفرج" رأى الصحفي البريطاني نصباً تذكارياً حولوا به اسم القرية إلى "بن عامي" **ورأى أيضاً مسجد القرية القديم لا يزال قائماً، غير أنه مهجور، وقد سدت أبوابه ونوافذه بالحجارة، وعمد أحد الإسرائيليين إلى طمس الآيات القرآنية بالدهان.**

وها هو ذا المفكر الفلسطيني المعروف الدكتور هشام شرابي الذي يعيش في الولايات المتحدة منذ سنة النكبة يحدثنا عن زيارته مدينته "يافا"

برفقة كاميرا هيئة الإذاعة البريطانية فيقول: "لم تتغير أبداً ساحة الحناتير، إلا في بناية بلديتها التي فجَّرَتْها بعد مغادرتي يافا مجموعةٌ إرهابية يهودية في نهاية عام ١٩٤٧م" ويقول أيضاً: زرنا منزلنا في حي العجمي، **وهو الآن حي "الغيتو" العربي حيث يسكن أهل يافا الباقون هناك.** كانت حديقة المنزل الأمامية على حالها، وشجرة الياسمين التي كان والدي ينتقي منها زهرة كلما غادر البيت، كانت مزدهرة تستلقي على الحائط القديم ذاته . أعلمت أن أسرة يهودية من رومانيا تقيم في المنزل. وعندما اقترح المخرج أن أدخل البيت رفضت ذلك. لم أقو على رؤية القاعة التي أذكرها تماماً وغرفة الطعام والغرف الأخرى[١]".

أدهشتني نتيجة أحد استطلاعات الرأي العام في الكيان الصهيوني، لأنها تطابقت على نحو يلفت النظر، ورؤيا – وتكاد تكون رؤية – الفريق سعد الدين الشاذلي بطل عبور قناة السويس في حرب تشرين / أكتوبر ١٩٧٣م .

فخلال الاحتفالات في فلسطين المحتلة بالذكرى الخمسين لإنشاء الكيان، قال ثلث الإسرائيليين إنهم لا يتوقعون الاحتفال بالذكرى المئوية بعد خمسين سنة أخرى وأثاروا شكوكاً حول قدرة دولتهم على البقاء مئة سنة. ولم يكن الأمر مجرد إحساس لأنه كان يعبر عن قراءات نقدية آخذة في

[١] – سبق الاستشهاد بهذه المقابلة في فصل عنوانه "من بال ١٨٩٧ إلى فلسطين ١٩٤٧"

الانتشار للتاريخ الإسرائيلي الذي كانت المناسبة فرصة لمراجعته، كما يقول الكاتب اللبناني ساطع نور الدين.[1] أمّا الفريق الشاذلي فيقول: **"أنا لست سياسياً، أنا أنظر إلى الصراع نظرة استراتيجية. ومن هنا أقول: أشكّ كثيراً أن إسرائيل التي احتفلت بطريقة صاخبة مثيرة بعيدها الخمسين، ستتمكن من الاحتفال بعيدها المئوي . إن مجموع القوى الشاملة للعالم العربي يفوق بمراحل قوى إسرائيل. كما أن العيوب – في الحكام والنظم والآليات – العربية معروفة وهي ليست قدراً محتوم الاستمرار".**

واستطرد الفريق الشاذلي قائلاً: " تتغير الأوضاع لصالحنا، وتتغير مع الزمن لغير صالح إسرائيل. إن الإسرائيليين متفوقون في نوعية القوى البشرية وهذه حقيقة، لكن الفجوة بيننا وبينهم تضيق بزيادة التعليم و الثقافة. وفي الموارد الطبيعية لا مجال للمقارنة. وفي المجال العسكري فإن صناعة التوازن ليست مستحيلة **وأكاد أقول إن جولة حاسمة سوف تأتي يوماً، لأن مثل هذا الصراع لا يمكن طي صفحته بغير الحسم.** إنه صراع مختلف عما في أي مكان آخر. وبما أن التوازن العسكري مفقود حالياً، فإن علينا من جهة ألا نوقع صكوك الاستسلام عبر سياسة ذكية لكسب الوقت، وعلينا ، من جهة أخرى أن نعمل بأقصى الطاقة لردم الهوة العسكرية".

---

[1] – جريدة السفير – بيروت – تاريخ : ١٩٩٨/٥/٩

وكان الفريق الشاذلي متفائلاً، في مجال وعي أبناء الأمة العربية لهذا الصراع في واقعه الخطير ونتائجه المختلفة، فهو يذكر أنه حارب إسرائيل خمس مرات منذ عام ١٩٤٨ م يوم كان ملازماً أول قائد فصيلة في سيناء ويقول: **"الوعي بالقضية رغم كل شيء أفضل مما كان عليه الحال قبل ١٩٤٨ م" ويقول أيضاً: "وأعتقد أنه سيكون بين أحفادي من هو على استعداد أن يحارب ولو مرة واحدة".**[١]

* * *

ثمة حقيقة تؤكد أن الرأي القائل إن إسرائيل لن تكمل مئة سنة من عمرها، لا يسبح في فراغ، بل إن يهود إسرائيل يعيشون هذا الواقع من خلال الخوف الذي بدأت أصداؤه تتردد في نفوسهم، منذ قيام حرب الاستنزاف: (١٩٦٨ – ١٩٧٠م) وحرب (١٩٧٣م) فقد بدأ المرء يسمع أصداء إعادة نظر بصحة أطروحات الصهيونية ، والشباب أنفسهم يتساءلون: هل كانت الصهيونية هي الحل لمشكلات المجتمع الصهيوني؟ وهم يقولون: إننا نواجه من جديد خطر الإبادة. ينتهي إلى هذه النتيجة كاتب يهودي هو "اليعازر شفايد" أستاذ الفلسفة اليهودية في الجامعة العبرية في القدس ويلاحظ تناقضاً آخر، بدا له جلياً، من خلال المنظور المنطقي، **"فإذا رغبت اسرائيل أن تكون ديمقراطية كاملة، فإن عليها أن تكف عن أن تكون دولة يهودية،**

---

[١] – صحيفة الأهالي القاهرة – العدد ٨٦٩

وأن تكون دولة مواطنيها. وهذا يؤدي إلى محو جوهر إسرائيل الصهيوني. وفي ذلك نهاية حاسمة للحلم الصهيوني".

نتساءل الآن، عن الانحياز الأمريكي المطلق للكيان الصهيوني، والذي تجلى في مشروع القرار الذي طرح أمام الكونغرس، في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٧ ويحمل الرقم "١٠٢" وكان يتوقع أن يقدم هدية إلى إسرائيل في ١٤ أيار/مارس ١٩٩٨م. خلال احتفالاتها بالذكرى الخمسين لقيامها.. وهذا ما لم يحدث حتى الآن.

وينطوي هذا المشروع الذي أيده أكثر من مئتين من أعضاء الكونغوس على مغالطات تاريخية وسياسية كثيرة، فقد ورد فيه ما نصه "حيث أن الشعب اليهودي رغب في إقامة دولة إسرائيل الحديثة كنتاج طبيعي أتى من وجود مملكة إسرائيل التاريخية، والتي أقيمت منذ ثلاثة آلاف سنة في مدينة القدس في أراضي إسرائيل التاريخية" لقد ورد ذكر القدس على هذا النحو أكثر من مرة في هذا المشروع، وهو أمر غير صحيح، كما بات معروفاً، ويضيق المجال هنا عن تفنيد هذه المغالطة. وكان المشروع ملكياً أكثر من الملك ذاته. لقد قامت قيامة الدوائر الصهيونية في فرنسا والكيان الصهيوني، لأن روجيه غارودي صحّح الرقم الذي يذكرونه حول محرقة الهولوكوست في أثناء الحرب العالمية الثانية، وهو ستة ملايين، فأوضح **هذا المفكر أنه في حدود المليون. أما مشروع القرار الأمريكي، فقد رفع الرقم إلى تسعة**

ملايين يهودي في أوروبا أي إن عددهم هو نصف عدد الضحايا التي قدمها الاتحاد السوفييتي، في معاركه التي وصلت إلى حدود لينيغراد – بطرسبورغ حالياً – وشملت أكثر من نصف أراضيه، في وجه الغزو النازي.

وأحرقت وأبيدت خلال ذلك قرى بكاملها. ترى إلى متى سيستمر هذا الانحياز الأمريكي المفضوح لجانب الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة؟ وهل في الإمكان الفصل بينه وبين المصالح الأمريكية في هذا الجزء من العالم الذي يدعونه الشرق الأوسط؟ وهل ستقوم علاقة طوباوية كالحب العذري بين الإدارة الأمريكية وبين هذا الكيان، إذ يفقد قدرته على أداء وظائفه المتعددة التي أنشئ في سبيلها، في قلب الوطن العربي أولاً كفاصل مانع مدروس بين العرب في القارتين الآسيوية والأفريقية. ثانياً كخادم وحارس للمصالح الأمريكية. وإسرائيل تؤدي الوظائف بالأصالة عن نفسها وبالوكالة عن الولايات المتحدة الأمريكية، في ما يشبه التطابق في بعض الأوقات. كما حدث عندما شنت عدوانها على العراق للقضاء على المفاعل النووي العراقي صيف ١٩٨١م . **ولولا أن العراقيين، كانوا يتوقعون هذا الهجوم الجوي الغادر لحدثت كارثة بيئية. لكن الكيان الصهيوني في المقابل، لم يتمكن من مواجهة الثورة الإيرانية.**

المراجع

١- القرآن الكريم

٢- الكتاب المقدس

٣- عالم بلا يهود - ترجمة ودراسة: د. عبد المنعم حفني - مكتبة مدبولي - القاهرة ١٩٧٦.

٤- اليهود واليهودية - د. عبد الجليل شلبي - دار أخبار اليوم - القاهرة ١٩٩٧.

٥- تاريخ فلسطين عبر العصور - يوسف سامي اليوسف - دار الأهالي - دمشق ١٩٨٩.

٦- المفسدون في الأرض - س. ناجي - الطبعة الثانية - العربي للإعلان والنشر والطباعة - دمشق ١٩٧٣.

٧- بنو إسرائيل - جغرافية الجذور - د. زياد منى - دار الأهالي - دمشق ١٩٩٥.

٨- القصة الألمانية الحديثة في ضوء ترجمتها إلى العربية - د. عبده عبود - اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٧.

٩- واقعية بلا ضفاف - روجيه غارودي - ترجمة: حليم طوسون - دار الكاتب العربي - القاهرة. (بلا تاريخ)

١٠- - كافكا - تشارلز أوزبورن - ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٦٧.

١١- اليهود في المانيا - سلسلة مقالات كتبها: ليوسيفرس في صحيفة "شترن" الألمانية - لم يذكر اسم المترجم - دمشق ١٩٧٨ طبعة خاصة

١٢- المسألة اليهودي – كارل ماركس – ترجمة محمد عيتاني – دار مكتبة الجيل – بيروت (بدون تاريخ).

١٣- حول المسألة اليهودية – كارل ماركس – ترجمة ومراجعة: حمزة برقـاوي – دار الأهالي – دمشق.

١٤- من هو اليهودي – اسحق دويتشر – ترجمة: نجاة قصاب حسن – دار العروبة للطباعة. (بدون تاريخ).

١٥- اسرائيليات وما بعد العدوان – أحمد بهاء الدين – دار الهلال القاهرة – الطبعة الرابعة ١٩٦٩.

١٦- أمجاد إسرائيل في أرض فلسطين – د. جورجي كنعان – دار الطليعة – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٧٨.

١٧- اليهود في القرآن – عفيف عبد الفتاح طبارة – دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة التاسعة – ١٩٨٢.

١٨- محمد واليهود – محمد أحمد برانق– محمد يوسف المحجوب – مؤسسة المطبوعات الحديثة – القاهرة (بلا تاريخ).

١٩- بروتوكولات حكماء صهيون – عجاج نويهض – دار طلاس – دمشق ١٩٨٤ – الجزء الأول والجزء الثاني.

٢٠- ملكوت آرام – شوقي خير الله – مكتب الدراسات العلمية – سن الفيل (بيروت) – ١٩٦٩.

٢١- ما وراء جريمة ١٨٤٠ – جان دورلت – ترجمة: حسن حمدان – دار المجد – دمشق – ١٩٨٩.

٢٢- يهود دمشق - د. يوسف نعيسة - دار المعرفة - دمشق- الطبعة الأولى - ١٩٨٨.

٢٣- الفرعون الذي يطارده اليهود بين التوراة والقرآن - تأليف : سعيد أبو العينين - دار أخبار اليوم - القاهرة ١٩٩٧.

٢٤- سارة المرأة التي هدمت الإمبراطورية العثمانية: تأليف الكاتب التركي: لطفي اكدوغان - تقديم ومراجعة: د. محمد محفل - دار طلاس - دمشق ١٩٩٥ (لم يذكر اسم المترجم).

٢٥- صراع على أرض الميعاد - محمد عطا - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - الإدارة العامة للثقافة - القاهرة - سبتمبر ١٩٦١.

٢٦- فلسطين أولاً- تأليف: لوكاس غرولنبرغ ، ترجمة: محمود فلاحة - وزارة الثقافة - دمشق - ١٩٨٢.

٢٧- الموسوعة الفلسطينية - الطبعة الأولى ١٩٨٤ - المجلد الأول (أ-ث) دمشق.

٢٨- محاربو إسرائيل - تأليف: عمانويل راتيي- ترجمة: فوزي عبد الهادي - دار طلاس - الطبعة الأولى - ١٩٩٦ .

٢٩- فلسطين أرض الرسالات السماوية - تأليف: روجيه غارودي- ترجمة: قصي أتاسي- ميشيل واكيم- دار طلاس - الطبعة الأولى ١٩٨٨.

٣٠ - ما يعد به الإسلام (وعود الإسلام) تأليف: روجيه غارودي - ترجمة: قصي أتاسي- ميشيل واكيم- دار الوثبة - دمشق (دون تاريخ).

نصر الدين البحرة

- ولد في دمشق – حي مئذنة الشحم في ١٥ آب ١٩٣٤.
- تخرج في جامعة دمشق مجازاً في الفلسفة والدراسات الاجتماعية.
- اشتغل في التعليم الابتدائي والثانوي مدرساً للفلسفة واللغة العربية في دمشق وبيروت.
- مارس الصحافة إلى جانب التعليم في أواسط الخمسينات، وكان محرراً وأمين تحرير في عدد من الصحف الصادرة في دمشق: صوت العرب، الوعي، الصرخة، الطليعة، الرأي العام.
- نال عام ١٩٥٥ الجائزة الأدبية الثانية في مهرجان وارسو الدولي للشباب والطلاب عن قصته "أبو دياب يكره الحرب" وكان رئيس لجنة المحكِّمين الأدبيين في المهرجان الشاعر المشهور ناظم حكمت.
- إلى جانب القصة القصيرة، كتب الشعر العمودي وقصيدة النثر والدراسات الأدبية والسينمائية والتاريخية، وله مقالات كثيرة منشورة في الصحف السورية والعربية.
- يقدم برامج إذاعية منذ عام ١٩٥٢، وما يزال يقدم برنامجاً ثقافياً في إذاعة دمشق يذاع صباح كل يوم أحد في الساعة العاشرة والنصف.

وقدم وشارك في تقديم كثير من برامج التلفزيون العربي السوري.

- أعارته وزارة التربية عام ١٩٦٦ للعمل في جريدة الثورة الدمشقية فعمل معلقاً سياسياً ومحرراً رئيسياً، ثم أمين قسم الدراسات، ورأس بعد ذلك

قسم الأرشيف فأعاد تنظيمه، وتولى أمانة تحرير الجريدة حتى عام ١٩٦٩، فأنهيت إعارته وعاد إلى وزارة التربية للتدريس

- انتخب في الدور التشريعي الرابع لمجلس الشعب "١٩٨٦-١٩٩٠" عن مدينة دمشق، وهو منذ ذلك التاريخ مستشار للسيد رئيس مجلس الشعب الأستاذ عبد القادر قدورة لشؤون الإعلام والثقافة، وخلال ذلك، وبإشراف الأستاذ قدورة وتوجيهه، أنشأ مجلة مجلس الشعب للمرة الأولى في تاريخ المجلس- ورأس تحريرها.
- عضو المكتب التنفيذي لاتحاد الكتاب العرب.
- رئيس إدارة فروع اتحاد الكتاب العرب في سورية.
- رئيس تحرير مجلة "التراث العربي" التي يصدرها اتحاد الكتاب العرب بدمشق.
- عضو جمعية القصة والرواية.
- عضو عامل في اتحاد الصحفيين السوريين.
- عضو في اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين.
- كان بين المؤسسين في المسرح القومي ممثلاً، وأخرج بعض الأعمال المسرحية على مسرح معرض دمشق الدولي وأعدها عام ١٩٦٠، وكان ذلك مع النادي الفني بدمشق.

مؤلفاته:

آ= قصص:

١- هل تدمع العيون- مجموعة قصصية - مطبعة الجمهورية- دمشق ١٩٥٧

٢- أنشودة المروض الهرم - مجموعة قصصية- وزارة الثقافة- دمشق ١٩٧٢
٣- رمي الجمار- مجموعة قصصية- وزارة الثقافة - دمشق ١٩٨٠.
٤- أغنية المعول - مجموعة قصصية للأطفال ومسرحية- اتحاد الكتاب العرب دمشق١٩٧٨.
- طبعة ثانية "أغنية المعول" - اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٨٣.
٥- رقصة الفراشة الأخيرة - مجموعة قصصية - دار المجد دمشق ١٩٨٩.
٦- محاكمة أجير الفران - مجموعة قصصية- دار المجد- دمشق ١٩٩٨.

ب- دراسات أدبية:

١-أحاديث وتجارب مسرحية - اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٧٧.
٢- الأدب الفلسطيني المعاصر بين التعبير والتحريض - منشورات الطلائع- دمشق١٩٧٧.

ج - دراسات سياسية:

- الثورة في أفريقيا - القيادة القومية - دمشق ١٩٦٩

د - شعر:

- البستان - مجموعة شعرية - اتحاد الكتاب العرب - ١٩٩٧.

هـ- دراسات تاريخية:

- دمشق الأسرار - مطبعة الجمهورية - دمشق ١٩٩٣

نفسية اليهودي في التاريخ

تأليف :نصر الدين البحرة

الطبعة الأولى عام: ٢٠٠٠

تصميم الغلاف: عمر البحرة

التنضيد الضوئي: روز أيــــوب

تنفيذ : مطبعة دار عكرمة

دمشق. تلفاكس: ٢٣١٣٤٨٩ . ص.ب: ١١٨٨١

نفسية اليهودي في التاريخ/ نصر الدين البحرة

.ــ دمشق: (د.ن) ، ٢٠٠٠ .ــ ٣٢٢ص؛ ٢٥سم.

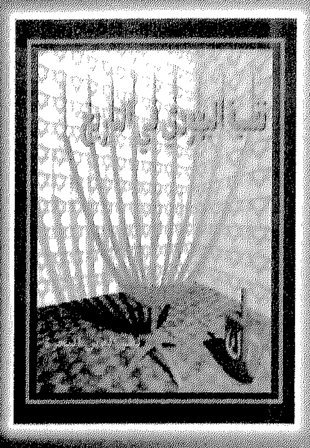
١. ٩٠٩/٠٤٩٢٤ ب ح ر ن   ٢. ١٥٥,٨ ب ح ر ن

٣. العنوان   ٤. البحرة

مكتبة الأسد

عنوان المؤلف: ص.ب: ٥٤٥٣

فاكس: ٣١٢٠٠٨٨ دمشق . سوريا



الغلاف: عمر البحرة

نفسية اليهودي في التاريخ

في هذا الكتاب...

- ❖ اليهودي كما رآه شكسبير وديكنـــز وغوغول.
- ❖ مقالات دوستويفســكي عن اليهود التي عتّموا عليها أكثر من مئة سنة وظهرت بالعربية فقط... أخيراً.
- ❖ من تاريخ اليهود... وأخلاقهم.
- ❖ اليهود والإسلام والنبي محمد (ص).
- ❖ فكرة شعب الله المختار عند اليهود.
- ❖ قراءة في بروتوكولات حكماء صهيون.
- ❖ "القبالا" نقطة بيكار اليهود العالمية.
- ❖ خرافات من التلمود.
- ❖ جريمة يهود دمشق سنة 1840.
- ❖ اليهود ينتقمون من الأموات.
- ❖ المفكر الفرنسي روجيه غارودي يفنّد أكاذيب اليهود.
- ❖ من هو اليهودي.
- ❖ الماركسية والمسألة اليهودية.

مطبعة عكرمة
دمشق

ثمن النسخة: 250 ل.س